



أَبَايُكُ

الحب هو التوأم اللطيف للموت

أحمد آل حمدان

ملحمة الطين والنار



« في قرية صغيرة تدعى الجشاسة .. هناك بدأت هذه القصة »

لم يكن طفلاً عادياً أبداً فهو لم يخرج من رحم والدته باكياً مثل بقية المواليد، بل خرج صامتاً يُقلب بصره في الأشياء مدهوشاً كما لو أنه تفاجأ بوجود كوكب آخر، غير الكوكب المظلم الضيق الذي كان يعيش فيه..

وبينما كان الطفل لا يزال ساكناً بين يدي القابلة إذ وقعت عيناه على والدته المستلقية بظهرها فوق الأرض والغارقة في عرقها اللانهائي، فانتفض جسده الصغير اللزج الملطخ بدماء الولادة مثل سمكة زينة صغيرة أخرجوها للتو من حوضها المائي.. زحفت والدته إلى الخلف بصعوبة بالغة حتى أسندت ظهرها على حائط الطين القديم ثم رفعت يديها المرتجفتين في الهواء:

- دعيني أراه - قالت جومانا - هل هو بصحة جيدة يا ماريا؟!

- إنه بخير - أجابت القابلة وهي تضعه بين يديها: انظري إلى عينيه إنها تشبهان عينيك يا سيدة جومانا.

عندما أصبح الطفل بين يدي والدته مد أصابعه الصغيرة نحو خصلة نافرة من شعرها الناعم وألقى القبض عليها بقوة لا تتوافر لدى طفل في مثل عمره، وبينما هو يمسك بخصلة شعرها النافرة تلك إذ جعل يتدبر بصمت وخشوع في عينيها البندقيتي اللون كما لو أنه في تلك اللحظة كان يقرأ فيهما البداية والنهاية..

بعد وقت قصير اقترحت القابلة:

- ما رأيك في أن أخذه لغرفة أخرى ريثما ترتاحين قليلاً؟!

وحينها فقط بكى الطفل بصوت عالٍ كما لو أنه يعترض، قالت جومانا ببراءة:

- لا بأس دعيه؛ أنا لا أشعر بالتعب

- ألن يأتي السيد بحر ليطمئن عليك وعلى الطفل؟!

لم تفسح جومانا مجالاً لذلك السؤال بأن يعكر عليها صفو فرحتها بالقادم الجديد:

- عندما يجد والده فسحة من الوقت سيأتي بالتأكيد

- وهل فكرت بالاسم الذي ستطلقينه عليه؟!

كانت جومانا قد قررت في وقت سابق أن أحداً لن يُسميه غير زوجها؛ لذلك سوف تظل تطلق عليه لقب «الطفل» حتى يعود والده من غيابه ويُسميه بنفسه...

لم تبح بقرارها ذاك لأحد؛ كي تتجنب مغبة عتاب طويل لن ينتهي غير أن القابلة سألت وكأنها استطاعت قراءة ما يدور في عقلها:

- هل تفكرين بتأجيل تسميته حتى يعود أبوه ويسميه بنفسه؟!

وبنبرة جادة تشي بعدم رغبتها في النقاش: ربما...

- ولكن شهوياً كثيرة قد مضت على غياب السيد بحر، ولا أحد يعلم متى قد يعود....

قاطعتها بأدب مُنهيّة النقاش:

- اذهبي الآن لأخذ قسط من الراحة وغداً، أرسل لك أجرتك.

أرادت أن تقول بأنها تفضل البقاء للمساعدة، لكن جومانا حدست ذلك فسبقتها بالقول:

- لا تقلقي إذا احتجتك لاحقًا فسأجد من أرسله في طلبك.

لملمت القابلة أدوات الولادة التي جلبتها معها، وضعتها في كيس من القماش حملته فوق كتفها بعد أن أحكمت إغلاقه جيدًا، ثم التفتت نحو جومانا وسألت بلطف:

- أتريدين مني شيئًا آخر قبل أن أذهب؟!

وهي تمرريدها على رأس طفلها الناعم طلبت جومانا منها:

- أريد منك إطفاء القناديل، فالنار يجب أن تطفأ قبل النوم كما تعلمين...

هزت القابلة رأسها ثم انصرفت.

لم يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت حتى كانت القابلة ماريما قد أطفأت جميع النيران المنبوعة من القناديل المتآكلة المعلقة على حيطان المنزل فأصبح البيت مظلمًا باستثناء إضاءة خافتة كانت تنبعث بهدوء من نافذة الغرفة التي تجلس فيها جومانا مع ابنها

وعندما لم يعد هناك شيء آخر لتفعله القابلة فإنها اتجهت نحو باب الفناء استعدادًا للمغادرة، ولكنها ما أن فتحتة حتى خفق قلبها بقوة وأسقطت من يدها كيس القماش الذي كانت تحمله فوق كتفها، واتسعت عيناها بسبب المفاجأة:

لقد شاهدت أمامها شيئًا لم تتوقعه أبدًا..

شاهدت أمامها أقدم جنية عرفها أهالي قرية الجشاسة «تاج»
وكان جميع من في القرية يخافون منها ويحاولون اجتناب غضبها ..
ورغم تقدمها في العمر إلا أنها ما تزال تحتفظ بقدر كبير من الجمال
يخبرنا بأنها كانت شديدة الفتنة عندما كانت أصغر سنًا: لها شعر
غجري أسود اللون يتخلله بعض خصل الشيب الرمادية، وبشرة
بيضاء مشدودة كجلد حصان سباق، وملامح هادئة تشبه وقت
غروب الشمس.. وقد كانت تمتلك طائرًا نادرًا أحمر اللون مرقشًا
بحبات ريش برتقالية، كان ذلك الطائر من فصيلة العنقاء اسمه
«إكيل» وقد قامت بسرقة من عش والدته عندما كان لا يزال داخل
البيضة، لذلك استطاعت ترويضه وجعله خادمًا لها .. ثم ولأن ذلك
الطائر الأحمر لم يكن يفارقها، وكان مثل ظلها تمامًا فإن أهالي قرية
الجشاسة مع الوقت نسوا اسمها الحقيقي وأصبحوا يطلقون عليها
لقب ذات الطائر الأحمر

قالت القابلة بخوف:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟!



أجابت تاج:

- تعلمي أن لا تحشري أنفك في الأمور التي لا تخصك يا ماريّا،
فلو أنك قبل قليل لم تأتِ بذكر غياب زوجها بحر لما قامت جومانا
بطرده.

لم تتفاجأ القابلة كثيرًا لمعرفة ذات الطائر الأحمر بذلك الأمر، فقد
كان من الطبيعي جدًا أن تعرف تلك الجنية بأكثر الأشياء السرية
التي تدور خلف الأبواب المغلقة.

حاولت ماريّا الدفاع عن كرامتها:

- السيدة لم تقم بطردي لقد صرفتني فقط لأنها تشعر بالتعب

- لا بد أنها شعرت بالتعب من ثرائك التي لا تنتهي..

لم تحاول القابلة أن تجادل في الأمر أكثر:

- مم.. معك حق أنا ثرثرة وكلامي لا ينتهي...

قالت ذلك بتوتر واضح ثم هرولت مبتعدة وقد أنساها الخوف
أن تحمل معها كيس القماش من على الأرض، قالت الجنية تحدث
طائرها الأحمر:

- إكليل، ابقى هنا ريثما أعود.

زعق إكليل وهو يرفرف بجناحيه الطويلين في الهواء فقالت:

- لا لن أتأخر سأنجز ما جئت من أجله ثم سنرحل سريعًا.

سارت بخفة في ساحة البيت الداخلية متجهة نحو الغرفة التي تجلس فيها جومانا وحيدة مع ابنها الرضيع، وكانت ذات الطائر الأحمر في كل مرة تمضي فيها بجوار قنديل معلق على الحائط تعود النار للاشتعال فيه فورًا وبهذه الطريقة ما كادت أن تصل لتلك الغرفة حتى أصبح جميع البيت مضاءً من جديد..

فتحت باب الغرفة نظرت نحو الطفل وقالت:

- يبدو أنه في صحة جيدة يا جومانا..

التفتت جومانا نحو مصدر الصوت بدهشة:

- أنتِ بالذات ليس مرحبًا بكِ هنا!!

تساءلت ذات الطائر الأحمر ببرود لا يلائم حساسية الموقف:

- ألا أستطيع الاطمئنان عليكِ حتى في مثل هذا اليوم؟!

- لا أريدك أن تطمئني علي - وأضافت جومانا بتوتر:

- لقد حذرتك أكثر من مرة بعدم الاقتراب!!

- متى تفهمين أيتها الحمقاء أنني لن أقوم بأذيتك؟!

- ولكنك قد تؤذيني بقدومك إلى هنا؛ فلن تسير الأمور على ما

يرام لو عرف زوجي بالحقيقة!!

- أين هو زوجك هاه؟! .. لقد مضت شهور كثيرة على اختفائه!!

بخيبة أمل سحيقة نظرت جومانا نحو الأرض وهمست:

- ولكنه قد يأتي في أي لحظة ...

- وماذا سيحدث لو أنه عرف بالحقيقة ألا تقولين بأنه يحبك؟!

- نعم يحبني ولكنني لا أريده أن يكتشف بعد كل هذه السنين التي قضيتها معه أنني .. أقصد أننا .. أعني أنك - لم تعد تعلم ماذا يجب أن تقول فأكملت جملتها:

- أنت تعلمين ما الذي أريد قوله بالضبط..

- لماذا تخجلين؟! لا أحد يخجل من حقيقة أصله قولي له بأنك.....

قاطعتها قبل أن تكمل جملتها:

- لماذا لا تقولين لي أنتِ عن سبب مجيئك هنا في هذه الليلة؟!

- من أجله - قالت الجنية العجوز وهي تشير بإصبعها نحو الطفل النائم، ثم أردفت: هل أستطيع إلقاء نظرة عليه أم أنك ستحرميني من ذلك أيضًا؟! كانت تعلم بأن ذات الطائر الأحمر لن تؤذي طفلها وبأنها لن ترحل قبل أن تحقق ما جاءت من أجله، لذلك مدته نحوها وهي تقول باستسلام:

- حسنا - وأردفت بحزم: ولكن بسرعة!!

حملته بين يديها وهي تبتسم، تأملت فيه قليلاً ثم همست متسائلة:

- هل ستقولين له عندما يكبر بأنه مختلف عن البقية وبأنه

صرخت عليها مقاطعة حديثها قبل أن تكمل:

- هذا يكفي يا ذات الطائر الأحمر!!

أدركت الجنية العجوز أنها أغضبت كثيرًا فقالت لتغير الموضوع:

- هل أستطيع أن أتمنى له في أذنه أن يعيش حياة سعيدة؟

كانت تلك إحدى عادات الولادة في قرية الجساسة حيث تقوم الأم باختيار الصديقة الأقرب لقلبها وتطلب منها أن تتمنى في أذن مولودها أن يعيش حياة سعيدة، وكانت الأم تحرص كثيرًا في انتقاء تلك الصديقة لأنهم كانوا يعتقدون بأن شقاء المولود وسعادته مربوطان بصلاح قلب الشخص الذي سوف يتمنى له..

- وترحلين بعدها؟!

- نعم أرحل

رفعت ذات الطائر الأحمر الطفل إلى مستوى فمها ثم بدأت تتمتم في أذنه بصوت منخفض متظاهرة بأنها تتمنى له أن يعيش حياة سعيدة، ولكن في الواقع لا أحد غير الرب يعلم ماذا كانت تلك الجنية العجوز تقول في أذنه بالضبط...

وحين انتهت من تمتماتها أخيرًا راحت تُلصق أذنها على صدره وتُصيح السمع لصوت نبضات قلبه

في الحقيقة لم يكن أحد في العادة يستمع لصوت نبضات قلوب المواليد بعد الانتهاء من التمني لهم في آذانهم ، لهذا تساءلت جوماننا بشك:

- ماذا تفعلين؟!

- ششش، اصمتي قليلا!!

وبعد فترة من الوقت ابتسمت ذات الطائر الأحمر أخيرًا وتنفست
الصعداء؛ إذ إنها تحققت مما جاءت من أجله.. فأعادت الطفل إلى
أمه ثم غادرت دون أن تتكلم، ولو أن الطفل استيقظ في تلك اللحظة
من نومه وفتح عينيه، لكانت جوماننا سوف تشاهد في عينه اليسرى
وهجًا أحمر اللون غريب...

"ثم بعد عشرة أعوام"

كان الطفل حينها يرتدي ثوبًا يصل إلى منتصف ساقه ويحمل بيده سراجًا قديمًا متآكلًا فيه قبس من نار يطوف به ساحة البيت الواسعة كعادته كل ليلة قبل النوم؛ ليتحقق مما إذا كانت أبواب ونوافذ البيت مغلقة ومما إذا كانت القناديل المعلقة على الحيطان مطفأة، وبينما لا يزال في جولته التفقدية تلك إذ سمع صوتًا عند الباب. كان الوقت متأخرًا جدًا من تلك الليلة الباردة ولم يتعود الطفل طوال سنواته العشر الماضية على الزيارات المفاجئة.. لذلك فإنه وضع السراج جانبًا، انحنى ليلتقط فردة حذائه بيده ووقف في مكانه متخذًا وضعية مقاتل، ثم زمجر قلقًا وهو ينظر نحو الباب كشبل أسد صغير التقطت أذناه وقع خطوات غريبة تقترب من العرين وهمس:

- لص..

رغم الظلام الحالك إلا أن ضوء القمر الناعم ساعده على رؤية ملامح ذلك اللص وهو يقفز من فوق حائط البيت: كان رجلًا نحيلًا طويل القامة يرتدي ثيابًا سوداء ويلف حول عنقه شالًا صوفيًا، يمتلك ملامح وجه حادة كما لو أنه استعارها من نسر: أنف معقوف، عينان قاسيتان، حاجبان مرسومان بدقة وشارب ثقيل متصل بلحية خفيفة.



حذق الطفل فيه بحذر لأكثر من خمس دقائق كملاكم في حلبة قتال يتحین قرع الجرس للهجوم على خصمه، ابتسم اللص مرتبكا:

- كيف حالك أيها الصغير؟

ثم دون مقدمات هجم عليه الطفل مستعيئا بفردة حذائه، فلم يملك ذاك اللص حينها إلا أن يهرب من أمامه.. كادت المطاردة أن تمتد طويلا في ساحة البيت لولا أن اعترض أحدهم طريق الطفل:

- ماذا تفعل - صاحت جومانا في وجهه - توقف إنه أبوك!!

جلست على الأرض لفت ذراعيها حول ابنها بحنو وجعلت تحاول إقناعه بأن ذلك الرجل هو والده وليس لصا كما يظن.. وحين اقتنع بعد فترة طويلة من الجدل لم يشعر بالخجل ولم يعتذر عن سوء تصرفه، وكل ما قاله هو: لم أكن أعرف.

كانت جومانا سلفا قد حُضرت كلمات العتاب التي ستقولها أمام زوجها عندما يعود من غيابه ولكن عندما جاء، مات الكلام في صدرها وأستيقظ الحنين؛ ذلك أن كل معارك المرأة دائما ما تنتهي بانتصارات الحب، تمتت لو أنها في تلك اللحظة تستطيع أن تركض نحوه وتعانقه بقوة لتخبره بالعناق فقط كم هي مشتاقة إليه وكم صلت في غيابه حتى يعود إليها بخير، وكم كانت تطيل النظر في القمر كل يوم لربما كان زوجها ينظر للقمر بتلك اللحظة فيعانق طرفه في السماء البعيدة طرفها، وكم ثرثرت عنه في ليالي الحنين مع الشهب والنيازك والأفلاك المسيرة، وكيف أنها في كل مرة كانت تخبر النجمات - نجمة نجمة - بأنه أشد الأشياء عشقا وقربا وحبًا إلى فؤادها وروحها وقلبها.

لم يمض الكثير من الوقت حتى طرق شخص غريب عليهم الباب قاطعًا على جومانا خيالاتها .. التفت بحر نحو مصدر الصوت وهمس بعد أن اتسعت عيناه من القلق وظهرت على جبينه خطوط تجاعيد خفيفة تشي بخوفه:

- يبدو أنه صديقي أيوب.

نهضت جومانا من جوار ابنها لتدخل إحدى الغرف وهي تقول:

- هل أعد لكما شيئًا للأكل؟

- لا، فأيووب لن يمكث هنا طويلا.

سار الطفل خلف أمه يتبعها فأمره والده بالبقاء:

- ابق لتلقي التحية على صديقي أيها الصغير.

أرسل نظرة عاصية لوالده دون أن يتكلم ثم أكمل سيره خلف أمه، فقالت جومانا وهي توقفه في مكانه وتنظر إليه بحدة:

- اسمع كلام أبوك.

- ولكنني لا أعرف من يكون حتى أسمع كلامه يا أمي..

- قلت لك بأنه أبوك!!

- دعيه يا جومانا - همس بحر - الصغير معه حق فهو لا يعرفني.

- بل سيسمع كلامك رغما عنه - قالت ذلك ثم أرسلت نحو ابنها نظرة معاتبة وأردفت بحدة:

- ستبقى هنا لتلقي التحية على صديق والدك!!

- لأجلك فقط، لأجلك سأفعل.

حين فتح بحر الباب ظهر له رجل ضخيم مثل غول ما أن رآه الطفل حتى اعتقد في نفسه بأن صديق والده ذاك يملك طولاً وعرضاً لا ينبغي لمخلوق بشري أن يمتلكهما: كان أسود اللون حليق الذقن والشارب له شعر طويل يبقيه على هيئة صفائر ويشده إلى الخلف، وقد بدا شكل مظهره العام يشبه شكل محارب كان في طريقه للذهاب نحو معركة، حيث يعلق على ظهره قوساً يصل طوله لستة أقدام وكنانة يضع بداخلها ثلاثة عشر سهماً، بالإضافة لسيف ضخيم يحمله على خاصرته، دخل أيوب البيت ثائراً ولكنه ما أن لاحظ وجود الطفل أمامه حتى هداً قليلاً وابتسم كاشفاً عن أسنان ناصعة البياض بينها سن واحدة ذهبية، تساءل بدهشة:

- هل هذا هو ابنك يا بحر؟!

- نعم - هز بحر رأسه - هذا ابني



مد أيوب يده الكبيرة في إيماءة للمصافحة فتقدم الطفل نحو اليد الممدودة في الهواء وحين صافحها شعر بأن يده سقطت في بئر عميقة مظلمة.. وعندما انتهت المصافحة وعاد لأمه كان يتفحص يده في الطريق حتى يتأكد من أنها ما زالت في مكانها، وأنها لم تسقط في تلك البئر العميقة المظلمة .. ما أن دخل الطفل للغرفة التي تجلس فيها والدته وأصبح الجو في الخارج آمناً بعض الشيء لتبادل الكلام، حتى التفت بحر نحو صديقه وسأله باندفاع:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا أيوب؟!

- أنت من يجب عليه الإجابة عن هذا السؤال يا بحراً!.. لقد كسرت ميثاق الدم بزيارتك المتهورة هذه.. أتعلم ما الذي قد يفعله بك ناب الفيل وبعائلتك لو اكتشف الأمر؟!

- لقد مضت أكثر من عشرة أعوام كاملة لم أرَ فيها عائلتي .. ولم يعد في مقدوري احتمال المزيد!!

- أنت من أوقع نفسك في هذه الورطة منذ البداية.. لقد نصحتك بأن لا تتزوج هذه المرأة يا بحر حتى لا تورطها معك ولكنك لا تصغي لأحد!!

- هل عرضت نفسك للخطر ولحققتني إلى هنا حتى تعاتبني؟!

- لا بل جئت لأنقذك وأنقذ عائلتك من الدمار الذي قد يلحق بهم بسببك - ثم أضاف: يجب أن تغادر هذا البيت بسرعة!!

- بل سأبقى هنا

- كف عن عناد الأطفال هذا.. هل ستكون سعيداً عندما يقتل ناب

الفيل زوجته وابنك بعد أن يكتشف أمر زيارتك هذه؟!

في الغرفة المجاورة كانت جومانا تجلس قُرب النافذة تحاول استراق السمع لتلك المحادثة، لكنها لم تتمكن من فهم كلمة واحدة وذلك بسبب أصواتهما التي ترتفع تارة، ثم تنخفض تارة أخرى، ولو أنها فقط واصلت استراقها السمع لفترة أطول لربما كانت قد فهمت كل شيء .. غير أن ابنها الذي بدا متضايقًا من وجود أغراب في البيت قرر فجأة أن يندفع إلى خارج الغرفة ويضع حدًا لوجودهما هناك من دون حتى أن يعطي لوالدته فرصة إيقافه، فصاح عليهما: «أنتما الاثنان، إنكما تسببان لنا الإزعاج»

قال أيوب معتذرًا وهو ينهض:

- لم أكن أقصد إزعاجكم في هذا الوقت المتأخر على كل حال

اتجه نحو الباب وقبل أن يغادر أوقفه بحر معتذرًا:

- آسف كان يجب علي أن لا أشركك في هذا الأمر منذ البداية

- الأصدقاء ليسوا في حاجة للاعتذار يا صديقي - رد أيوب بهدوء

وتابع: كنت أعلم سلفًا بأنني أعرض حياتي للخطر، ومع هذا اخترت أن أقف معك.

حرر مزلاج الباب ولكنه قبل أن يدفع بجسده للخارج، التفت نحو

الطفل مبتسمًا وقال:

- يا لك من قملة صغيرة مزعجة.

أراد بحر في تلك الليلة الدخول لغرفة زوجته غير أن الطفل وقف أمامه معترضًا:

- اذهب لغرفة أخرى، أما هنا فسوف ينام أنا وأمي فقط.

فقال بحر محاولاً تقديم رشوة لذلك الحارس العنيد:

- سأشتري لك حمازًا مثل بقية الأولاد إن سمحت لي بالدخول

لم يتكلم الطفل...

- سأشتري لك ثيابًا جديدة لو أنك ابتعدت

لم يتكلم أيضًا...

- سأقوم برسمك لو أنك نفذت ما أطلبه منك

- حقا؟!

- ألم تخبرك أمك بأنني أجيد الرسم؟!

كان الطفل مسحورًا بفن الرسم وكان يرسم من وقت لآخر بعض الرسومات على الورق مستخدمًا الفحم والريشة ودواة الحبر وكانت جوماننا - على الرغم من سوء رسوماته - إلا أنها تشعر بالكثير من الرضا عندما تشاهده يمارس تلك الموهبة التي تذكرها بزوجها..

- هاه ماذا قلت؟! أنت موافق؟!

نسى المقابل الذي يجب عليه دفعه مقابل الرسمة وهتف بحماس:

- نعم نعم أريدك أن ترسمني..

- سأفعل ولكن بعد أن تسمح لي بالدخول..

قال متذكراً وهو يستعيد عناده وأردف:

- لا، أنت لن تدخل هنا أبداً..

أطال بحر النظر في عيني ابنه البندقيتي اللون واللتين تشبهان كثيراً عيني زوجته محاولاً أن يقرأ فيهما طريقة يستطيع من خلالها الدخول للغرفة، وقد كان مستعداً لأن يستمر في عمليات التفاوض تلك لوقت طويل ولكن جوماننا التي أزاحت ستارة النافذة وظهرت له من خلف الشباك أومات له برأسها تخبره بأن لا يتعب نفسه؛ فالطفل يراه شخصاً غريباً وهو لن يسمح لشخص غريب بالنوم في فراش أمه.

في الصباح: كان الطفل يغط في نوم عميق عندما نهضت والدته من جواره وجعلت تتسحب بهدوء لخارج الغرفة.. وعندما تأكدت من أنها أصبحت في أمان وأن ابنها لم ينتبه على حركتها أكملت طريقها نحو غرفة زوجها مشياً على أطراف أصابع قدميها، لم تكن تعلم إن كانت ستجده مستيقظاً أم نائم؛ لذلك فضلت أولاً أن تلقي نظرة عليه من خلال النافذة لتتأكد.. وعندما فعلت وجدته يضع لمساته الأخيرة على ثيابه وهو ينظر إلى نفسه في المرآة، فعرفت أنه كان يستعد للرحيل مرة أخرى.

لم ينتبه إليها في بداية الأمر ولكنه عندما انتهى من وضع اللمسات الأخيرة على ثيابه واستدار لينصرف وجدها تنظر إليه من خلال النافذة وما أن التقت العين بالعين حتى سقطت أول دمعة من

عينها، ورغم أن حائظًا وبابًا ومسافة كانت تفصل بعضهما عن بعض إلا أنه خيل إليه سماع صوت ارتطام دمعها بالأرض.

فتح الباب واتجه نحوها بمزيد من الحذر؛ كي لا يكشف ابنه الأمر توقف أمامها مباشرة تاركًا بينه وبينها مسافة قُبلة، رفع وجهها بيده وراح يتأمل في عينها البندقيتي اللون واستطاع رغم الدموع المحتشدة فيهما قراءة هذه الجملة، والمكونة من ست كلمات:

«ابقَ ففي رحيلك لا أمان لنا»

تجاهل الكلمات المكتوبة في عينها وقال:

- هل تعلمين بأنك ثاني أجمل امرأة رأيتها؟!

قالت بغيرة وقد ازداد حزنها: ومن عساها تكون الأولى؟!

- أنتِ - أجاب مبتسمًا ثم أضاف: ولكن عندما تبترسمين.

ابتسمت واختفى بريق الحزن من عينها، واعترفت بلهفة:

- لقد اشتقت إليك يا بحر .

- وأنا اشتقت إليك أيضًا - ثم تنفس ملء رئتيه وأضاف:

- ما زالت رائحة الياسمين تنبعث منك.

- أنا بستان الياسمين الذي تطاردك رائحته أينما ذهبت وتعيدك إليه

مكبلاً مثل أسير حرب.. أتذكر؟!

وهو يبتسم لها بحنو: أنا دائماً أذكر

كانت رائحة الياسمين تنبعث دائماً من جسدها، وكان بحر وبطريقة

غامضة يستطيع التقاط تلك الرائحة حتى وهو في أقاصي الأرض،
وعندما كان يعود إليها في كل مرة يقول « في الغياب كانت رائحتك
تصلني يا جومانا » وعندما يشاهد في عينيها دهشة الأطفال كان
يبتسم ويضيف:

- أنتِ بستان الياسمين الذي تطاردني رائحته أينما ذهبت ويعيدني
إليه مكبلاً مثل أسير حرب.

ثم وبينما كانا يقفان في ساحة البيت الداخلية يتذكران تلك الأيام
البعيدة إذ مدت جومانا يداً مرتعشة أمسكت بها زوجها من ثيابه
السوداء بذات القوة التي أمسك الطفل فيها خصلة شعرها النافرة
عندما حملته بين يديها لأول مرة .. كانت جومانا فتاة طاغية
الجاذبية للحد الذي جعل بحريجد صعوبة بالثبات متوازناً في مكانه
عندما شاهدها لأول مرة: عيناها البندقيتا اللون وشفثاها البارزتان
 وأنفها المستقيم ووجهها الأبيض المرقط بحبات النمش الخفيفة
المنتشرة على وجنتيها وأجزاء معينة من رقبتها كل ذلك كان يجعل
من جمالها شيئاً نادراً .. تملك شعراً رمادي اللون طويل عندما تجعله
مسترسلاً فوق كتفيها تصبح كما لو أنها فتاة من السماء تُلقي على
الأرض نظرة من وراء شحب الليل الرمادية المتراكمة..



أمام سطوة زوجها اخفضت جومانا خطوط دفاعاتها تمامًا،
فاقترب بحر منها أكثر حتى بات يستطيع رؤية نفسه في حدقتي
عينيهما، تخالطت أنفاسهما ببعض حتى أصبح كل واحد منهما يتنفس
زفير الآخر ولكن قبل أن يضع قبلته عليها..

جاءت صرخة الطفل حادة مثل شبل يزأر لأول مرة:

- أنت، ابتعد عنها!!!!

ثم انحنى الطفل ملتقطًا فردة حذائه،

وراح يركض باتجاه والده الذي ما أن رآه يقترب منه حتى هرب
نحو الباب، أزال مزلاج الباب والتفت نحو زوجته ليلقي عليها نظرة
الوداع قبل أن يرحل، فوجدتها تضع يدها عند فمها وتضحك.. ابتسم
سعيدًا من أجلها ثم وقبل أن يكمل هروبه أجابها على تلك الجملة
التي قرأها في عينيهما قبل قليل والمكونة من ست كلمات:

- لا أخشى عليك مغبة رحيلي وإلى جانبك هذا الوحش المفترس!!

بعد فترة طويلة من غياب بحر وفي أحد المساءات الهادئة طرق
أحدهم بنقر خفيف باب البيت .. ذهب الطفل ليفتح الباب.. وجد
أمامه فتاة شابة ربما كانت في مثل عمر والدته تقريبًا.

كانت الفتاة تحمل بين يديها جرة ماء وطبقًا من الطعام: حيث
تبادل الأطعمة بين بيوت قرية الجساسة كان إحدى أكثر العادات
ثباتًا ورسوخًا هناك.. وقد كان من الطبيعي جدًا في أحيان كثيرة أن
يفتح الطفل باب البيت ويأخذ أطباق الطعام وجرار الماء من فوق
العتبة ويدخلها للمطبخ دون حتى أن يعرف هوية مُرسلها.

أخذ منها جرة الماء وطبق الطعام ثم قال وهو يهم بإغلاق الباب
كما علمته والدته أن يقول في مثل تلك الحالات:
- شكرا ..

لحظة - قالت الفتاة - أريد محادثة والدتك، اذهب ونايها .

عندما جاءت جومانا بعد قليل قالت لها الفتاة:

- والدتي تدعوك للانضمام إلينا في الغد حيث سيجتمع في بيتنا
بعض من نساء القرية، وقد اشتقنا إليك كثيرًا فقد مضى زمن
طويل لم نجتمع فيه معك.

في الحقيقة كانت جومانا أيضًا قد اشتاقت لصديقاتها من نساء
القرية وكانت تشعر بالحاجة إلى الترويح عن نفسها قليلًا برفقتهم،
غير أنها في الوقت ذاته تعلم بأن ابنها لن يوافق على أن تتركه
وحيثًا في البيت ريثما تذهب وتعود..

لهذا فإنها فتحت فمها لتعتذر عن تلبية الدعوة، غير أن الطفل الذي
أحس برغبة والدته في الذهاب تكلم قائلاً:

- سوف تلبي أمي الدعوة ..

- حقا - هتفت الفتاة - هل ستأتين غدا؟!

نظرت جومانا بدهشة نحو ابنها وسألته بصوت منخفض لتتأكد:

- هل ستوافق على البقاء وحيثًا ريثما أقوم بتلك الزيارة؟!

- لا، بل سأتي معك.

ولأنها كانت تخاف من أن يتسبب لها بالمتاعب هناك فإنها قالت:

- سأخذك معي شرط أن لا تثير المتاعب، اتفقنا؟!

- اتفقنا .

وهكذا أكدت جومانا للفتاة بحماس عن نيتها في القدوم غدًا وهي لا تعلم أبدا مالذي كان ينتظرها هي وابنها هناك.

في مساء اليوم التالي: كان المجلس يعج بالكثير من النساء وبالعرثرات والأحاديث التي لا تنتهي.. جلس الطفل بجوار والدته وقد أبدى التزامًا بوعده لها بعدم إثارة المتاعب.. ولكن بعض النساء كن يرغبن بالتمتع بالخصوصية في تناقل الأحاديث فقالت إحداهن:

- لماذا لا يذهب ابنك للعب مع الأولاد يا جومانا؟!

التفتت نحو ابنها: اذهب للعب مع بقية الأولاد يا صغيري

- لا أريد - همس في أذنها - أريد البقاء معك

ثم ولكي تبرر إصراره على البقاء معها فإنها كذبت عليهن وقالت بأنه يمر بوعكة صحية؛ لذا فهو لا يشعر بالرغبة في اللعب مع بقية الأولاد .. فاضطرت النساء في ذلك اليوم إلى خوض أحاديثهن الخاصة وهم يستخدمن لغة يعتقدن بأنها سرية، ولكن في الحقيقة كان الطفل يسجل في رأسه ويفهم كل كلمة يسمعها، وفي أثناء تلك الزيارة حدث ما لم يكن أحد يتوقعه حيث اقتحمت ذات الطائر الأحمر المكان فجأة دون أن تتلقى منهن دعوة أو تطرق عليهن الباب

طالبة الإذن بالدخول، قالت وهي تدخل:

أرى أن هنا الكثير من نساء الجشاسة..

ولأنهن كن يشعرن بالخوف منها فإن واحدة منهن لم تُبدِ اعتراضًا على مجيئها باستثناء جومانا التي كانت تعلم بأن تلك الجنية لم تأت إلا من أجلها .. قالت وهي تستعد للمغادرة:

- سأعود لبيتي..

ثم وفي محاولة لتلطيف الأجواء حاول بعض النسوة استبقاءها قليلًا بينهن غير أن ذات الطائر الأحمر قالت وهي تتخذ لنفسها مكانًا تجلس فيه، وبنبرة صوت من جاء يفتش عن المتاعب:

- دعوها تأخذ أحملها الصغير وتذهب به إلى حيث تشاء.

ومن غير أن تعلق جومانا أمسكت يد ابنها وغادرت المجلس متجهة نحو الباب لتغادر .. ولكنها لم تتمكن من فتح الباب أو تحريكه وكأن هناك الكثير من الأيدي الخفية التي كانت تثبته وتمنع مفاصله عن الحركة

قالت وقد عرفت السبب:

- اتركوا الباب!!

سأل الطفل ببراءة وهو يرى أمه تتحدث مع الهواء:

- إلى من تتحدثين؟! ليس هناك أحد!!

كانت جومانا تعرف الكلام الذي يجب عليها أن تقوله لتصرف تلك الأيدي الخفية والتي - بأمر من ذات الطائر الأحمر - كانوا يمنعون

الباب عن الحركة، غير أنها لم تكن تريد أن تتكلم حتى لا تثير انتباه ابنها لأسرار كان غافلاً عنها، قالت بغضب وهي تعود لمجلس النساء:

- اتبعني!!

حين رأتها ذات الطائر الأحمر تعود سألتها ببراءة مزيفة:

- لماذا عدت؟!

- أنت تعلمين السبب - ردت بحنق - الباب مقفل!!

- لم لا تحاولين فتحه؟!

قالت ذلك وضحكت بصوت عالٍ كما لو أنها ألقت دعاية مضحكة وعندما وجدت نفسها الوحيدة التي تضحك فإنها تسألت بغضب وهي تنظر لبقية النساء:

- لم لا تشاركيني الضحك؟!

لفرط الخوف قام النساء بمشاركتها الضحك حتى إن أحدهن بالغت في الأمر قليلاً وكادت أن تؤذي نفسها، عندما سقطت على وجهها لكثرة ما ضحكت.

نظرت ذات الطائر الأحمر نحو الطفل وقالت بمكر:

- لم لا تذهب للعب مع بقية الأولاد أيها الصغير؟!

أخفت جوماننا ابنها خلفها:

- لا شأن لك به!!

- دعي الولد يُجيب أم أنك قصصت لسانه؟! - ثم أعادت عليه

السؤال: لم لا تذهب للعب مع بقية الأولاد أيها الصغير؟!

همس بخجل:

- أريد البقاء مع أمي.

وهنا قالت ذات الطائر الأحمر بطريقة قاسية وهي تنظر نحو أمه:
يجب أن يختلط ابنك الرخو هذا مع بقية الأولاد يا جوماننا، لكي لا
يصبح فتاة عندما يكبر!!

تلقت جوماننا ذلك الخطاب القاسي بألم شديد وشعرت بأنها تريد
الدفاع عن ابنها بأي طريقة لكنها لم تكن تعلم بماذا كان يجب عليها
أن تجيب، أما الطفل الذي شعر بالوجع الذي تسببت فيه تلك المرأة
لوالدته فإنه انحنى ليلتقط فردة حذائه..

- هيه أنت لا تتحدثي معها بهذه الطريقة!!

هكذا صرخ في وجه الجنية وهو يحاول مهاجمتها مستخدمًا فردة
حذاءه أما والدته وبقية النسوة فإنهن حاولن الإمساك به وجره بعيدًا
حتى لا تقوم ذات الطائر الأحمر بأذيته، غير أنه كان قويًا بما يكفي
ليتحرر من قبضاتهن ويندفع بشراسة نحو العجوز محاولًا ضربها
بفردة حذائه..

صاحت جوماننا:

- أرجوك لا تفعل!!

توقف الطفل قبل أن يصل إلى هدفه بخطوتين ثم قال من غير أن

يلتفت للخلف:

- لا أحد يؤذيك وينجو بفعلته..

ابتسمت ذات الطائر الأحمر وهي تنظر للطفل إذ إنها رأت فيه العلامة الثانية التي تؤكد صحة ما تعتقده بشأنه فقد تحولت عينه اليسرى عند الغضب للون الأحمر القاتم، ولو أنه التفت لوالدته في تلك اللحظة لكانت هي أيضًا ستشاهد ذلك التحول المخيف في عينه ولكنه لم يلتفت إليها وظل يحدق بغضب نحو ذات الطائر الأحمر.. لقد كان يشعر برغبة غريبة وشديدة في رؤية الدماء تتفجر منها، وفي الوقت نفسه لا يريد أن يعصي أمر والدته .. عادت عينه للونها الطبيعي، انتعل فردة حذائه ثم استدار نحو الخلف عائداً إلى أمه، نظر مباشرة إليها وهمس قائلاً: «لأجلك فقط.»

في الحقيقة كان ذلك كله مدبرًا ومخططًا له من ذات الطائر الأحمر إذ أنها لم تُلْقِ كل تلك الإهانات على جوماننا إلا لكي تختبر الولد وقد نجحت فيما خططت له.

قالت غير مكترثة بالنساء اللاتي كنَّ يسمعنها:

- لقد أخبرتك من قبل بأن هذا الولد مختل.....

- لا أريد أن أسمع هذه السخافات!!

صاحت جوماننا في وجهها قبل أن تتم ذات الطائر الأحمر جملتها ثم أمسكت ابنها من يده واتجهت به نحو الباب، حاولت فتحه للمرة الثانية غير أنه كان لا يزال مغلقًا بواسطة تلك الأيادي الخفية ولكن ولأنها - هذه المرة تحديدًا - كانت تريد الخروج من هناك بأي ثمن

فإنها قالت دون تفكير بالعواقب:

- أنا جومانا ابنة الملك جبار الأباطرة، آمركم بالابتعاد والسماح لنا بالخروج!!

ما أن قالت ذلك حتى انفتح الباب من تلقاء نفسه، وسمع ابنها صوتًا ثقیلاً ينبعث من الهواء يقول:

- اقبلي اعتذارنا.

عندما عادا إلى البيت نظرت جومانا نحو ابنها .. كان من الواضح أن لديه الكثير من الأسئلة داخل عقله.. وقد كانت هذه أيضًا ضمن خطة ذات الطائر الأحمر .. إذ إنها أرادت بتصرفها ذاك أن تخلق بداخله الأسئلة حتى يعرف الحقيقة - حقيقة نفسه - ويكتشف السر الذي تحاول والدته إخفاءه عنه .. وفي حقيقة الأمر لقد نجحت ذات الطائر الأحمر إلى حد كبير بإثارة فضوله، ولكن جومانا كانت تعرف كيف تروض الوحش القابع في أعماق ابنها:

- سوف تنسى كل الأشياء التي شاهدتها وسمعتها هناك.

- ولكنني أريد أن أعرف من هو الملك جبار الذي قلتِ بأنك.....

قاطعت كلامه بشكل صارم:

- أعلم بأن لديك الكثير من الأسئلة تتقافز في رأسك ولكنني أريد منك أن تنساها، اتفقنا؟!

- ليس قبل أن تخبريني عن الملك جبار هذا الذي قلتِ بأنك ابنته وعن الصوت الذي تكلم في الهواء وقال لك اقبلي اعتذارنا، وأريد

منك أن تخبريني عن تلك المرأة العجوز ولماذا كانت تهيئك بتلك الطريقة ولماذا لم تسمح لي بضربها، أريد أن أعرف لماذا كان الباب موصدًا رغم أن المزلاج لم يكن.....

قاطعته للمرة الثانية وهي تنظر إلى عينيه:

- وإذا قلت لك من أجلي؟!

كان من الصعب جدًا عليه أن ينسى كل تلك الأسئلة التي في رأسه أو تلك النظرات الغريبة التي كانت ترسلها إليه العجوز وإلى والدته: لقد كانت تنظر إليهما بحب عميق لا يستطيع أن يجد له تبريرًا، ورغم هذا كان مستعدًا لأن يفعل أي شيء من أجل والدته، فهمس قائلاً:

- لأجلك فقط ...

كانت جومانا تدرك أهمية القصة في تهذيب النفس وتأديبها؛ لذلك كانت كل ليلة طوال السنوات الماضية تقص على ابنها قصة ما قبل النوم وعندما تنتهي فإنها تضع قبلة على جبينه وتخبره بالجملة الختامية والتي يفهم من خلالها أن القصة انتهت وأن موعد النوم قد حان:

«تذكر طوال عمرك يا بني أن الرب، يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه»

ثم تصمت قليلًا لتضمن أن تلك الجملة سوف تستقر في رأسه فلا ينساها، وتقول أخيرًا «اتفقنا؟!»

أما هو فإنه رغم ظلام الغرفة الدامس إلا أنه كان يغلق عينيه في

كل مرة ويحلل تلك الجملة في عقله تحليلًا دقيقًا، وبعد أن يفهمها جيدًا ويستوعب معناها بشكل تام يفتح عينيه في الظلام ويسأل هامسًا:

- يُجيب الرب أي دعوة يا أمي؟!

- نعم أي دعوة!!

في ذلك الزمن البعيد عاشت مملكة أباييل في عصور لا نهائية من الانحطاط والظلام والجهل حيث كان من النادر جدًا أن يهتم أحد من أفراد الشعب بتحصيل العلوم والمعرفة، وربما العلم الوحيد الذي يسعى الجميع للحصول عليه هو تعلم الفنون القتالية كالرماية والمبارزة بالسيف وركوب الخيل.. وكانت تجارة الجواري والعبيد وأنواع التجارات الأخرى كبيع المواشي والجلد والصوف والأواني الخزفية هي الشغل الشاغل لهم .. ورغم ذلك حرصت جوماننا على تمكين ابنها من تعلم القراءة والكتابة .. ولم تكتفِ عند ذلك القدر فحسب بل أرادت القيام بإرساله إلى الجد نوفل وهو رجل طاعن في السن، يُشاع بأنه يعتنق إحدى الديانات السماوية القديمة ويُعرف بأنه الشخص الوحيد المتعلم في قرية الجساسة غير أن الطفل كان له رأي آخر في هذه المسألة:

- لقد قمت بتعليمي القراءة والكتابة وهذا يكفي!!

فأجابته جوماننا وهي تمسك أرنبه أنفه بلطافة:

- نعم لقد أصبحت تجيد القراءة والكتابة أيها الرائع، ولكن هناك الكثير من العلوم المهمة الأخرى والتي سوف تتلقاها بشكل أفضل لو أنك ذهبت للجد نوفل.

كان هناك شيء غريب وجذاب في طريقة حديثها تجعل ابنها يحب النظر إليها وهي تتكلم معه؛ فهي طوال الوقت تحافظ على طيف ابتسامة لا يغادر وجهها، وتصب كل تركيز عينيها عليه فتجعله

يشعر وكأنه أهم شيء في الدنيا - لن تبقى صغيرًا طوال عمرك يا بني ستكبر يومًا ما وستحتاج حينها لعقلك - وأضافت وهي تلتزم بإصبعها رأسه وتقول بطريقة محبة:

- ولن يصبح عقلك هذا مفيدًا من غير أن تغذيه بمزيد من العلوم والمعرفة، اتفقنا؟!

- وإذا وافقت على الذهاب للجد نوفل فهل ستأتين معي؟!

- لقد أصبحت أكبر من أن تحتاج لمرافقة والدتك.

- لا أزال صغيرًا فأنا في الرابعة عشرة من عمري فقط - ثم أضاف متسائلًا: هل ستأتين معي عند الجد نوفل أم لا؟!

- ستذهب وحدك وسأظل في انتظارك هنا حتى تعود وتخبرني بالأشياء التي تعلمتها هناك اتفقنا؟!

- لا لم نتفق، أنا لن أذهب لمكان لا تكونين فيه معي!!

- وإذا قلت لك من أجلي؟!

- أنا أفعل أي شيء من أجلك ولكن ليس هذا الطلب أرجوك!!

قال ذلك ثم صمت فجأة إذ سمع هسيس أقدام مربية كانت تتحرك بحذر في الساحة الداخلية للبيت:

- ما بك؟!

أجاب وهو ينهض: ابقى مكانك...

أمسك بفردة حذائه وذهب ليستطلع الأمر، وبعد قليل هتف قائلاً:

- إنه بحر يا أمي!!

ومثل عرائس الماريونيت والتي يتحكم بها شخص ما عبر خيوط دقيقة من خلف الستار راح الحنين بخيوطه اللامرئية يحرك جوماننا نحو زوجها...

بدا وجهه المتعرق بفعل حرارة الشمس أكثر شحوبًا من المرة الماضية عندما جاء لزيارتها قبل أربع سنوات .. وأسفل عينيه الحادثتين ترسم دائرتان بلون البنفسج تدلان على إرهاقه .. ورغم ذلك الذبول إلا أن تينك العينين كانتا ولا تزالان نقطة ضعفها.

قال بحر وهو ينظر نحو ابنه:

- لقد كبرت كثيرًا!!

- لقد مضت أربع سنوات - قالت تعاتبه - بالطبع سيكبر.

اقترب منها محاولاً معانقتها لكن الابن وقف له بالمرصاد:

- ابقْ بعيدًا لا تقترب منا!!

حاولت أمه أن تذكره باحترام والده، لكنه حدس ذلك فالتفت إليها قبل أن تتكلم:

- هذا ليس أبي لقد تركنا منذ زمن طويل ورحل عنا!!

لم يبرر بحر غيابه كل ما فعله هو أن قال مستسلفًا:

- حسنا سأبقى بعيدًا - ثم أضاف: إن كان هذا يرضيك.

صاح الطفل بحدة:

- ما الذي جاء بك؟!

صاحت جومانا بانفعال: اصمت يا ولدا!

- جئت كي أرسلك، وسأغادر في اليوم التالي.. أعدك

- ابق معنا لا ترحل مجددًا يا بحرًا!

نظر إليها وابتسم ليخفي عنها آبار أحزانه الجوفية، هو لا يستطيع أن يكشف لها أسباب الغياب لأنه يعلم جيدًا فظاعة ما قد يحدث لها ولابنة إن فعل ذلك:

- لا أستطيع البقاء...

بنبرة صوت باكية قالت:

- كفاك غيابًا!!

- لدي الكثير من التجارة التي يجب علي الاهتمام بها.

كان يجب عليه وهو يكذب أن يُغمض عينيه حتى لا تقرأ زوجته الكذب فيهما، لقد فاتته أن يتذكر بأن الإناث يستطعن بغرائزنهن قراءة لغات العيون وأن أكاذيب الذكور لا تنطلي عليهن أبدًا:

- قل الحقيقة ربما نستطيع مساعدتك!!

تدخل ابنها معاتبًا:

- توقف عن التشبث بيد تريد الرحيل!!

صمت بحر ولم يعلق بينما قرأت جومانا في عينيه شيئًا:

«عندما تعرفان الحقيقة، ستغفران لي كل شيء».

أخرج من تحت ثيابه رقعة من ورق البردي وحجر فحم أسود:

- قف إلى جوار والدتك أيها الصغير..

وأضاف وهو ينظر لزوجته: ابتسمي؛ كي تصبح الرسمة أجمل!!

ثم مستخدمًا حجر الفحم الأسود جعل بحر يخطط أبعاد الرسمة بشكل خافت، وحين انتهى من رسم الخطوط الأولية راح يهتم بالتفاصيل الدقيقة للملامح وخربشات الشعر .. ثم ولكي يضيف مزيدًا من الواقعية على رسمته فإنه رسم الظلال بكثير من الحرص والاهتمام، وعندما انتهى أخيرًا مسح بإصبعه الخطوط غير المرغوب فيها.. في حقيقة الأمر لم يكن بحر أصلا بحاجة لرؤية ابنه وزوجته حتى يقوم برسمهما، فهو يجيد الرسم مستعينًا بقوة ذاكرته غير أنه كان يريد استغلال تلك الفرصة ليتأمل عائلته من غير أن يمنعه أحد من فعل ذلك.

تقدم إلى حيث كان الابن يقف بجوار أمه، مد الورقة إليه وراح يقيس ردة فعله من خلال تعابير وجهه .. لم يتمكن الابن من إخفاء مدى انبهاره بروعة الرسمة فلفرط براعتها شعر بأنه ينظر إلى ولد وامرأة حقيقيين يسكنان داخل الورقة.. بدا مبتسمًا في الرسمة رغم أنه في الواقع كان يقف مقطب الحاجبين، واكتشف في تلك اللحظة فقط وهو يحدق في صورته أنه ورث عن والدته الكثير من تفاصيل وجهها الجميل؛ الأمر الذي كان سيجعل ملامحه تبدو ملائمة أكثر لو أنها كانت على فتاة أكثر من كونها على ذكر..

سأله بحر:

- ما رأيك في الرسمة؟!

أجاب بكبرياء ومن غير أن يعيد رقعة ورق البردي لوالده:

- أستطيع أن أرسم أفضل منها لو أردت..

ربت والده على شعره وقال بحنو:

- أنا واثق من أنك تستطيع.

في تلك الليلة لم يحاول بحر الاقتراب من غرفة زوجته؛ لأنه كان متأكدًا من أن ابنه لن يسمح له بالدخول لذلك فإنه لجأ لحيلة أشد مكرًا:

- أخبر أمك بأنني أريد وسادة أضعها تحت رأسي أيها الصغير.

تناهى ذاك الكلام لأذن جومانا التي كانت لم تخلد للنوم بعد وأدركت على الفور ما كان يرمي إليه زوجها من وراء ذلك الطلب، فقامت بتمرير وسادتها البيضاء الخاصة إلى ابنها وقالت:

- أعطي أباك هذه الوسادة.

احتضن بحر الوسادة العابقة برائحة زوجته الياسمينية ثم غط في نوم عميق، وبهذه الطريقة سيتمكن من استدعائها في أحلامه من غير أن تكون هناك قوة في العالم تستطيع منعه من فعل ما يريد.

في صباح اليوم التالي خرج بحر من غرفته منتشياً، وكأن لقاءه

بزوجته في الأحلام جعلت الحياة تستيقظ داخل جسده.

كان الطفل حينها يجلس بجوار والدته يمسك الرسمة بيد بينما يحاول باليد الأخرى أن يرسم واحدة أفضل منها كي يقهر بها أباه..
اقترب بحر منه وأستطاع أن يشاهد رسمة ابنه البدائية والتي تدعو للضحك أكثر من كونها تدعو لأي شيء آخر:

- لقد كنت محققًا حين قلت بأنك تستطيع أن ترسم أفضل مني..

قال بحر ذلك بلطف ثم خطف رقعة الورق خاصته من يد ابنه،
طواها بعناية وخبأها في أحد جيوب ثيابه:

- منذ الآن وصاعدًا عندما أشتاق إليكما سأنظر لهذه الرسمة.

- وأنا ماذا أفعل عندما أشتاق إليك؟!

لم يُجبها واتجه نحو الباب ليغادر لكنه توقف بعض الوقت، استدار إلى الخلف بتردد كما لو أنه كان يريد أن يفعل شيئًا ليس واثقًا من عواقب نتيجته، ثم فجأة وبعد صمت امتد للحظات صاح بكل صوته:

- أحبك يا جوماننا!!!

فتح الباب مبتسمًا وهو يجيل النظر في دروب القرية وكأن تلك الكلمة التي باح بها للتو قد نجحت في إنعاش قلبه، التفت مرة أخرى نحوها وكانت عيناه تنبضان بالحياة أكثر من أي وقت مضى، وقال يُجيبها عن سؤالها السابق:

- غني لي يا جوماننا.. غني وسيحضر طيفي ليراقصك..

طبع قبلة مطولة على راحة يده وأرسلها لزوجته عبر الهواء، ابتسم للمرة الثانية ثم غادر عائداً للغياب...

أما الطفل فإنه وثب قائماً وأخذ يلکم الهواء بيديه كيفما اتفق حتى يُشتت القبلة الهوائية تلك ويمنعها من الوصول لوالدته.. بينما نظرت جومانا إلى الأرض لتخفي خجلها وذلك بعد أن شعرت بحرارة تلك القبلة وهي تهبط بسلام لشفتيها.

حين حل الظلام وجاء وقت النوم سأل والدته قائلاً:

- ما هي قصة اليوم يا أمي؟!

كانت جومانا في تلك الليلة مشغولة البال تفكر في أمر ما وليست في مزاج جيد يتيح لها الكلام أبداً، غير أنها في الوقت ذاته تعلم بأن ابنها لن يغلق عينيه وينام قبل أن تحكي له قصة فقالت:

- منذ وقت طويل .. طويل جداً .. كان هناك جيش كبير من البشر والجن والطير والرياح، كانوا جميعهم يسرون خلف رجل واحد اسمه النبي سليمان...

متخيلاً ذلك الجيش الكبير العرمرم وهو يسير تحت قيادة رجل واحد ردد الطفل اسم النبي مندهشاً:

- سليمان؟!

أكملت والدته:

- كان ذلك الجيش الكبير يعبر من خلال وادٍ ضخم، اسمه وادي

النمل فصاحت آنذاك نملة صغيرة اسمها جرسا..

- جرسا؟! -

- نعم جرسا - أكدت والدته، ثم تابعت:

- صاحت جرسا بصوتها كله تخاطب بقية أفراد النمل قائلة:
(ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)
حين سمع النبي سليمان كلام النملة ابتسم وش....

ولكن يا أمي - قاطعها متسائلاً - كيف سمعها النبي سليمان وهي
نملة صغيرة ولها صوت صغير؟!

- الرياح - أجابت - الرياح هي من وضعت الكلام في أذنه...

- الرياح؟! -

- نعم إنها أحد جنود النبي

ردد متعجبا: الرياح!!

- حين سمع النبي سليمان كلام النملة ابتسم وشكر الرب على هذه
القدرة التي خصه بها، وأمر الجنود بالتوقف .. فتوقف كامل الجيش
ريثما يدخل النمل مساكنهم.

ثم ولأن جوماننا كانت تريد الانتهاء من القصة بأسرع وقت ممكن
فإنها صمتت قليلاً قبل أن تقول الجملة الختامية والتي يفهم ابنها
من خلالها أن القصة انتهت وأن موعد النوم قد حان:

- تذكر طوال عمرك يا بني أن الرب يُجيء....

اعترضها قبل أن تكمل الجملة:

- أهذا كل شيء؟! .. هل انتهت القصة عند هذا الحد؟!

- لقد تأخر الوقت كثيرًا

- ولكنني أريد أن أعرف ما الذي حصل بعد ذلك؟

- سأخبرك غدًا

- ولكن.....

قاطعته قبل أن يكمل:

- يجب عليك أن تنام الآن وغدًا سوف أكمل لك القصة.

استسلم أخيرًا وهو يغطي نفسه باللحاف بينما قالت أمه:

- تذكر طوال عمرك يا بني أن الرب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه

ثم أضافت: اتفقنا؟!

صحيح أنه لم يكن راضيًا عن مدة القصة ونهايتها السريعة إلا أنه

تفاعل مع جملة والدته الختامية، فأغلق عينيه وجعل يحلل كل كلمة

من تلك الجملة في عقله تحليلًا دقيقًا وحين استوعب وفهم كل

معانيها سأل كعادته:

- أي دعوة يا أمي؟!

- نعم أي دعوة

- اتفقنا .

في تلك الليلة بالذات لم تتمكن جومانا من الخلود للنوم؛ فقد كانت مشغولة البال تفكر في أمر ما:

«في الحقيقة التي يخبئها زوجها بحر عنها»

لقد شعرت اليوم وهي تنظر إليه بأنه متورط بشيء كبير جدًا، فقد كان ذلك واضحاً من خلال تعابير وجهه المرهق وعينيه اللتين يسكنها الخوف، كانت تائهة لا تعرف ما الذي يجب عليها أن تفعله، ضائعة مثل فتاة صغيرة أفلتت يد والدتها وسط الزحام.. ورغم كل ذلك التيه والشتات إلا أنها كانت تعلم جيداً إلى من يجب عليها أن تلجأ في مثل هذه الحالات

تسحبت من جوار ابنها برشاقة لبوة ثم سارت على أطراف أصابعها نحو باب البيت، فتحتة بحذر حتى لا تصدر مفاصله صوتاً عالياً يفضح خطتها.. التفتت يميناً وشمالاً لتتحقق من خلو الطريق، وعندما تأكدت من أن أحداً لا يراها سارت بعيداً.. لقد ذهبت شرقاً نحو المكان الذي لم يكن عليها أبداً أن تفكر بالذهاب إليه.

لم يكن القمر حاضرًا في تلك الليلة المرعبة لذلك انتشرت النجوم في السماء على مد البصر، والقرية التي كان سكانها نائمين بدت في ذلك الوقت المتأخر جدًا من الليل كما لو أنها مكان قديم هجره البشر.. اتجهت شرقًا نحو الغابة المحزّم على الغرباء دخولها .. اسمها «الغابة المظلمة» وهي أرض فسيحة تغطيها الأشجار العالية المتشابكة، وتنهض في منتصفها قلعة حجرية كبيرة ذات طابقين سكنتها قديمًا عائلة ملكية من الجن اسمها «عائلة الأباطرة».

دخلت الغابة من ممرها الواسع والذي يشبه فوهة كهف كبيرة غير مبالية بالأخطار التي تحفها أو ربما قد تحدث لها بالداخل .. كانت تسير بخطوات ثابتة وسط الضباب والظلام وتذكر أن هناك من يراقبها بعينين باردتين من وراء الأشجار، ولكنها لم تبال وسارت إلى حيث كانت وجهتها.

ما أن اقتربت من تلك القلعة الصخرية ذات الطابقين حتى سمعت صوتًا يشبه زمجرة أسد سيء المزاج، رفعت بصرها نحو مصدر الصوت بقلق فرأت طائرًا ضخماً يجلس على قمة القلعة وينظر نحوها بغضب كما لو أنه يحاول تحذيرها من مغبة الاقتراب أكثر..

ولكن لأنها كانت تريد التحدث مع ساكنة تلك القلعة بأي ثمن فإنها أكملت سيرها غير مكترثة بالتحذير.. فما كان من ذلك الطائر حين شاهدها تقترب أكثر، إلا أن قفز من مكانه ضاربًا الهواء بجناحيه

الطويلين منطلقا نحوها شاهراً في وجهها مخالب سوداء معقوفة
ذات نهايات قاتلة:

- إكليل - صاح أحدهم من داخل القلعة - عد إلى مكانك!!

وقبل أن يغرس الطائر مخالبه في جسدها استجاب لذلك النداء
فصفق الهواء مرة أخرى بجناحيه الطويلين ليرتفع بضعة أمتار نحو
الأعلى ويستدير في الجو عائداً إلى مكانه.. ثم ولأن أحداً لم يظهر
في الأرجاء فإن جوماناً صاحت بصوت مرتفع:

- أين أنتِ؟!

وعندما لم تتلقَ جواباً غير الصرير الخافت الذي تبعته حشرة الليل
فإنها اقتربت بخطوات حذرة نحو بوابة القلعة، وقالت بهمس يملؤه
الرجاء:

- أرجوك أريد التحدث إليك...

فتحت ذات الطائر الأحمر البوابة:

- ما هو الأمر الخطير جداً الذي دفعك للمجيء إلى هنا؟!

- أليس مرحباً بي هنا؟!

ابتسمت لها ذات الطائر الأحمر بحنان بالغ وقالت:

- أنت تعلمين بأن أمك سترحب بك دائماً أيتها الحمقاء.

الشيء الذي كانت جوماناً تحاول إخفاءه عن الجميع هو أن ذات
الطائر الأحمر في الحقيقة تكون والدتها، أما السبب الذي كان يدفعها
لصدها دائماً عنها فهو لأنها تخاف من أن يقوم بحر بهجرها في أحد

الأيام لو عرف بحقيقة كونها جنية، لقد تخلت جوماننا في الماضي
عن كونها فردًا من أفراد عائلة الأباطرة وهي - عائلة ملكية من الجن
- لأجل الزواج من الإنسي بحر وهي الآن ليست مستعدة لخسارته:

- لم يعد في استطاعة قلبي أن يحتمل المزيد!!

- أظنك تتحدثين بشأن بحر

هزت رأسها بضعف فبصقت ذات الطائر الأحمر على الأرض:

- تبًا للرجال - ثم أردفت قائلة: أتعلمين؟! يجب أن نعاملهم كما
تتعامل إناث العناكب مع ذكورها، إنها تقوم بقتلهم بعد أن تأخذ منهم
حاجتها!!

تجاهلت نصيحة والدتها الثمينة تلك وقالت:

- أحتاج إليك يا تاج أنقذيني، إن الوسوس تأكلني.

ابتسمت ذات الطائر الأحمر وهي تقول:

- مضى زمن طويل لم ينطق فيه أحد اسمي الحقيقي - ثم
أفسحت مجالًا وأضافت: ادخلي وأخبريني ما الذي حدث معك.

- لا أستطيع الدخول لا أملك الكثير من الوقت، فقد يستيقظ ابني
في أي لحظة ولن تجري الأمور بخير إذا استيقظ من نومه ولم
يجدني!!

ابتسمت تاج ساخرة:

- ذلك الأحمق الصغير ماذا كان يظن عندما حاول مهاجمتي؟!

- أعتذر لك بالنيابة عن الطفل

- لقد أصبح في عامه الرابع عشر وأنت لا تزالين تنادينّه بالطفل

- لقد قررت أن لا يسميه أحد غير والده

- اختاري له اسما مؤقتًا على الأقل، ما رأيك بأساطير كاسم أخيك؟!

- البشر لا يسمون بهذه الأسماء

- حسنا ما رأيك ب.....

قاطعتها:

- لم آت لأناقش معك اختيار اسم له

- معك حق .. حسنا ما لذي تريدني مني أن أفعله به؟!

- بالطفل؟!

- تبًا لك وللطفل يا جوماننا أقصد زوجك .. ما الذي فعله بحقك وما

الذي تريدني مني أن أفعله به؟!

- لا لم يفعل شيئًا، كل ما في الأمر هو أن قلبي غير مطمئن!!

- هذا ما يحدث لقلب الأنثى عادة عندما يسكنه رجل - ثم أردفت

متسائلة:

- ولكن لماذا الآن بالذات؟!

- ماذا تقصدين؟!

- لقد صبرتي عليه كثيرًا لماذا الآن بدا قلبك غير مطمئن؟!

- لأنه عندما جاء لزيارتنا اليوم

قاطعت حديث ابنتها والدهشة واضحة في سؤالها:

- بحر جاء لزيارتكما اليوم؟!

- نعم وقال شيئًا لم أتمكن من فهمه، وهذا ما دفعني للقدوم إليك...

قالت ذلك ثم اخفضت رأسها دليلاً على تأثرها

- أرفعي رأسك وأخبريني عن الذي قاله

رفعت جوماناً رأسها ثم حركت شفتيها سامحة للكلمات بالخروج:

- قالت عيناه لنا «عندما تعرفان الحقيقة، ستغفران لي كل شيء»

- وأنت ما الذي تريدني مني أن أفعله؟!

- أريد منك أن تخبريني بالحقيقة

بعد تردد قصير همست تاج بحزم:

- أحضري لي شيئًا فيه من رائحة بحر، وسأتقضى أثره.

- شيئًا فيه من رائحة بحر - تساءلت بغرابة - مثل ماذا؟!

- لا أعلم .. أي شيء.. قطعة من ثيابه القديمة مثلاً

كانت جوماناً قد قامت منذ وقت طويل بغسل جميع الثياب القليلة

التي يمتلكها زوجها، لذلك فإنها لم تكن تملك شيئًا فيه من رائحته:

- أعتقد أنني لا أملك طلبك هذا!!

- فكري بحل، فمن غير رائقته لن أتمكن من العبور عليه.

قالت وقد تذكرت شيئًا:

- لقد نام على وسادتي البارحة أستطيع أن أجلبها لك لو أردت.

- هذا جيد.. بقليل من الحظ قد يفي هذا بالغرض.

- لن أتأخر - قالت وهي تستعد للعودة لبيتها:

- سأحضر لك الوسادة وأعود بسرعة

أوقفتها تاج:

- ما الذي ستقدمينه لي؟! فكما تعلمين أنا لا أقدم خدماتي بالمجان.

- ما الذي تريدينه؟!

- أريد منك أن تتوقفي عن مناداتي بـ تاج أو ذات الطائر الأحمر.

- وكيف تريدني مني أن أناديك؟!

- أمي - وأضافت قائلة: هكذا تناديني.. هذا هو الثمن

ابتسم شيء ما بداخل جوماننا؛ فقد كان طلب تاج لطيفًا هذا ما فكرت به وهي تقول:

- سأجلب لك الوسادة وأعود بسرعة يا أمي.

شعرت تاج عند سماع تلك الكلمة بشيء لا يمكن للكلمات وصفه لقد سمعت للتو الكلمة التي كانت كل يوم تستيقظ من نومها وهي تحلم بسماعها .. ولكن جوماننا أردفت وكأنها تضع خطًا تحت شرط

مهم:

- ولكنني سأقولها فقط عندما نكون وحدنا اتفقنا؟!

- وأنا سأحرص دائمًا على أن نكون وحدنا ...

أرادت أن تعود للبيت لأجل أن تجلب الوسادة التي نام عليها زوجها البارحة ولكن والدتها اقترحت عليها:

- دعي سابح يوصلك.

- لا فليس من الحكمة أن يشاهدني أحد وأنا بداخل عربتك

- لا تقلقي لن يراك أحد - قالت بثقة ثم صاحت: سابح!!

سمعت جوماننا صوت عجالات عربية تقترب يجرها حصان أبيض ضخم يهز الأرض بحوافره الأربعة، فتحت تاج باب العربة بيد ومدت يدها الأخرى لتساعد ابنتها في الصعود إلى الداخل، ثم همست في أذن الحصان:

- لا تدع أحدًا يراك ...



جلست فوق أحد المقاعد المريحة للعربة وجعلت تشاهد أشجار الغابة وهي تسير إلى الخلف بسرعة من خلال النافذة.. ثم وبينما هي كذلك إذ راحت تسترجع في ذاكرتها تلك الأيام البعيدة عندما عرض عليها بحر الزواج:

- جوماننا لقد فعلت في حياتي كل الأشياء الفظيعة والتي قد تضمن لي دخول الجحيم من أوسع أبوابه، لكنني لم أتخيل أبدًا أنني سأكون شريزًا للحد الذي يجعلني أفكر يومًا بالزواج...

بدهشة ممزوجة بغضب قالت حينها:

- ولماذا تريد أن تتزوجني طالما أنك ترى بأن الزواج شر؟!

- لأنني أحبك - ثم أردف: أنا العاصي بكل شيء أدخليني جحيمك!!

في اليوم التالي وعلى أضواء النيران المشتعلة عقدت عائلة الأباطرة اجتماعًا طارئًا في الغابة ل يناقشوا فيه أمر ارتباط ابنتهم الجنية ذات السلالة الملكية بمخلوق بشري، وكانت تلك هي الحالة الأولى التي تشهدها العائلة منذ أن استوطنوا أراضي الغابة، اجتمع يومها جبار وكبراء الأباطرة حول الصخرة السوداء والتي كان منظرها يشبه لحد ما منظر طاولة اجتماعات كبيرة .. اتجهت جميع الأنظار نحو جوماننا والتي جلست وحيدة في الجهة المقابلة لهم مثل متهمة يتم التحقيق معها، سألها جبار الأباطرة:

- هل تعلمين أن زواجك بمخلوق الطين ذاك

- إن له اسقًا يا أبي - قاطعت حديث والدها - بحر، اسمه بحر!!

أحدثت تلك المقاطعة بعض الجلبة في الاجتماع حيث كان كُبراء

العائلة يتساءلون فيما بينهم حول موضوع واحد وهو: كيف تجرأت جوماننا على أن تقاطع حديث كبيرهم حتى ولو كان والدها.

- هدوء أيها السادة..

قال جبار وهو يضرب صخرة الاجتماعات بقبضة يده وتابع قائلاً بعد أن التزم الجميع بالصمت:

- هل تعلمين أن زواجك من بحر سوف يكلفك قوة النار خاصتك، وبأن عينيك الحمراء ستنطفئان إلى الأبد ولن يكون في استطاعتك إشعالها مجدداً وبأنك

قالت تكمل عن والدها جملته:

- وبأنني سأصبح عاجزة كالبشر، أعلم كل ذلك يا أبي.

- وتعلمين أيضاً بأن قراراً كهذا ربما قد يحرم أطفالك قوة النار؟!

- لا أريدهم أن يحصلوا عليها، وإن حدث يوماً ورزقت بمولود يحملها فإني سأبذل قصارى جهدي حتى أبقى الحقيقة عنه سرّاً فلا يستخدم قوته أبداً.

سرت همهمة في الاجتماع بين كبراء العائلة عندما سمعوا ذلك، ضرب جبار صخرة الاجتماعات السوداء بقبضة يده الضخمة:

- هدوء أيها السادة.

وأضاف وهو ينظر نحو ابنته بفضول:

- دعونا نفهم منها لماذا لا تريد لأطفالها أن يحصلوا على القوة؟!

تكلمت قائلة بعد أن ألتزم الجميع بالصمت: حصول أحد أبنائي
على قوة استثنائية خارقة للطبيعة البشرية، سوف يثير بالتأكيد
شكوك زوجي، وقد يعرض أمري للافتضاح

أصيب جبار بالدهشة مما سمعه للتو، فعلق:

- هذا يعني أنك سوف تخفين حقيقة أصلك عن بحر ولن تخبريه
بأنك من الجن؟!

- إنه يكره الجن؛ وأخاف أن يهجرني إن عرف بالحقيقة

وهنا ومن اللاشيء اقتحمت تاج عليهم الاجتماع:

- وهل تعلمين أيتها الحمقاء بأن زواجك من مخلوق الطين ذاك

- بحر - صرخت مقاطعة - لديه اسم يا أمي إنه يدعى بحرًا!

- تبًا لك يا جومانا - ردت تاج وأردفت بغضب: وهل تعلمين أن

زواجك منه يعني التخلي عن كونك فردًا من أفراد عائلة الأباطرة؟!

كانت تعرف القانون:

- سيصبح بحر حينها عائلتي وسنكوّن أنا وهو عائلتنا الخاصة

سألت تاج بخبث كمن يدفع شخصًا من قمة رأس جبل:

- وهل يعرف أبوك من هو بحر، انظري إلى عينيه وأخبريه.

التفت جبار نحو ابنته وسألها:

- أهنأك شيء لا أعرفه؟!!

بتوتر لم تتمكن من إخفائه همست:

- نعم لقد كان بحر في السابق يعمل مع الجاثوم...

اتسعت عينا جبار ولم يعلق لفرط الفاجعة بينما أصيب كبراء عائلة الأباطرة بالخرس لهول المفاجأة، فقالت تاج تخبرهم بالمعلومة الناقصة التي لم تقلها لهم ابنتها:

- بل إنه كان واحدًا من أكبر قادات الجاثوم!!

دافعت جوماننا عنه:

- أخبرني بأنه نادم على ذلك يا أمي ولقد قطع لي وعدًا بعدم العودة للعمل معهم

- ثم أضافت بعناد: وأنا أثق به وسأتزوجه!!

- لا تصدقي وعدًا يقطعه لك رجل..

قالت تاج ذلك ثم التفتت نحو زوجها جبار بعتب:

- قل شيئًا لماذا تبدو موافقًا كيف تسمح لابنتك بالوقوع في هذه المصيبة - وتابعت بحسرة: ألا يكفي الابن الذي خسرناه من قبل ولم نعد نعلم عن أمره شيئًا؟!

تمتم جبار بحدة وكأنه لم يكن راضيًا عن وجود تاج بينهم:

- يكفي!!

لم تكتفِ وأكملت: هل ستدع ابنتك تتزوج ذلك البشري دون أن تحرك ساكنًا؟! تدخلت جوماننا:

- قلت لك بأن له اسمًا يا أمي!!

- اصمتي أنت - صرخت تاج في وجهها - هل تظنين أننا سنقف مكتوفي الأيدي بينما نشاهدك تقفزين نحو الهاوية؟!

ضرب جبار الصخرة السوداء بقوة كادت أن تقسمها لنصفين فصمتت تاج والتفتت جميع الرؤوس نحوه، حبست الأنفاس في انتظار قراره الأخير والذي سوف ينفذه الجميع من غير مناقشة:

- جميعنا سنحترم ما تقررره جوماننا طالما أن الأمر لن يضر أحدًا من أفراد عائلتنا . وأضاف: فلتتزوج من تشاء هذه حياتها ولديها كامل الحرية في أن تعيشها بالطريقة التي تراها مناسبة .. ولكن جوماننا منذ اليوم ووفقًا لقانون العائلة فإنها لم تعد واحدة منا .. لقد تخلت عن كونها فردا من أفراد الأباطرة بموافقتها على الزواج من مخلوق بشري.

حاولت تاج الطعن في القرار:

- إنها لا تعرف مصلحة نفسها.....

قاطعها جبار وهو ينظر إليها بغضب: اصمتي أيتها اللعينة

أحنت تاج رأسها واختفت دون أن تضيف شيئًا.

- سنرحل عن هذه الغابة - قال وهو ينهض - فلن تعيش الأباطرة بجوار البشر مرة أخرى؛ يكفي ما خسرناه حتى الآن.. سنجد لأنفسنا مكانًا آخر نختبئ فيه، وهنا ينتهي الاجتماع.

لم يأت اليوم التالي إلا وقد غادر جميع أفراد الأباطرة خلف جبار، باستثناء تاج التي قررت البقاء لأجل ابنتها.. ورغم أن جوماننا أخبرتها بأنها لن تعترف بها وبأنها ستقوم بصددها في المستقبل كلما

حاولت الاقتراب منها، إلا أن تاج لم تكثرث وقالت بحنان:

- يكفيني أن أتنفس من ذات الهواء الذي تتنفسين منه يا ابنتي.

وصلت جوماننا إلى بيتها أخيرًا .. تسلمت بحذر إلى الداخل حتى لا يستيقظ ابنها، أخذت الوسادة التي نام زوجها عليها البارحة وعادت للجلوس في العربة لينطلق بها سابع عائدًا نحو القلعة، وفي الطريق حاولت أن تصفي عقلها من الذكريات حتى تبدو متماسكة وثابتة أمام والدتها...

وعندما وصلت للقلعة وجدت أمها لا تزال تقف في مكانها تنتظر عودتها، هبطت من العربة الخشبية قالت وهي تمد لها الوسادة:

- خذي لا تزال رائحته فيها

- هذا جيد، سأزورك غدًا في المساء ومعني الخبر

- بقيت هناك مشكلة واحدة يا أمي؛ الطفل لن يسمح لك بالدخول إنه لا يسمح لأحد بالاقتراب مني.. هذا بالإضافة إلى أنه بالتأكيد سوف يسألني عن سبب وجودك في البيت.. وعندها لن أعرف كيف أجيب...

- لا عليك هذه ليست مشكلة سأصرف معه.

في مساء اليوم التالي: كان الطفل جالسًا بجوار والدته يرسم بحجر الفحم على الورق محاولًا تطوير مهاراته في الرسم عندما

سمع طرقًا على الباب فنهض ليرى الطارق، حين فتح الباب وجد امرأة كبيرة في السن تحمل في يدها وسادة بيضاء وفوق رأسها بامطار يرفرف طائر أحمر اللون ذو أجنحة طويلة:

- هل أمك هنا أيها العفريت الجميل؟!

أراد أن يغلق في وجهها الباب

ولكنه لم يتمكن من ذلك، لأن الباب تجمد في مكانه فجأة...

اقتربت منه تاج وهي تردد بصوت منخفض وبطريقة سريعة كلمات غير مفهومة المعاني بالنسبة إليه، وحين انتهت نفثت من ريقها على وجهه ثم أعادت تطرح السؤال عليه:

- هل أمك هنا أيها العفريت الجميل؟!

- نعم - قال بشرود وهو يشير نحو الغرفة - هي تجلس هناك.

على الرغم من أنه كان يتنفس بطريقة جيدة وجميع وظائفه الحيوية تعمل بكفاءة عالية إلا أنه لم يعد في استطاعته تحريك أطرافه أو الشعور بشيء مما يدور حوله، قالت تاج وهي تدخل الغرفة:

- تمتلكين ابناً مزعجاً، سامحيني على ما فعلته به.

نظرت جوماننا من خلال النافذة نحو ابنها، فوجدته متصلباً في مكانه كتمثال من الشمع:

- ويلي.. ما الذي فعلته به؟!

- تعويذة بسيطة ستضمن لنا بقاءه هادئاً ريثما ننتهي من حديثنا

- أتوسل إليك يا أمي أن لا تفعلي به شيئًا سيئًا

قالت وهي تقتعد الأرض:

- إنه يذكرني بك كثيرًا يا جومانا .. فعندما كنتِ بمثل عمره كنتِ

شيئًا مزعجًا للغاية - ثم أضافت تطمئننها قائلة:

- على كل حال لن يحدث له شيء سأعيده لك مثل ما كان قبل أن

أرحل.

أعادت الوسادة البيضاء لابنتها:

- خذي لقد استفدت منها كثيرًا - وأضافت:

- من غيرها ما كان في استطاعتي العثور عليه.

- وما الذي توصلتِ له؟!

- لقد عاد بحر للعمل مع الجاثوم وأنتِ وابنتك في خطر مميت.

ثم أضافت:

- زوجك يعيش الآن في بيت واحد مع فتاة سمراء من قرية

الساحرات اسمها أيار تقص شعرها مثل الصبيان، ورغم نحالتها إلا أن

عليها اللعنة تمتلك أردافًا ضخمة تشبه أرداف فرس نهر.

كان بحر في الماضي يعد واحدًا من أحد أكبر القادات في منظمة

كبيرة اسمها الجاثوم، تقوم بممارسة الجريمة في جميع مدن وقرى

أبابل من غير أن تتمكن قوات الدولة - رغم الجهود المبذولة - من

إلقاء القبض عليها أو على أحد أفرادها نظرًا للبراعة والخفة التي يتمتع بها أفراد تلك المنظمة .. ولكن بعد أن التقى بحر جوماننا وأصابهما الحب بسهامه اختلف كل شيء، فقد أقلع عن العمل مع منظمة الجاثوم نهائيًا وقطع لها وعدًا بأن لا يعود لهم، لذلك أصاب الإحباط قلبها وهي تسمع ذلك الخبر:

- هل أنتِ واثقة مما قلته يا أمي؟!!

- ما كنت لأنقل لك خبرًا كهذا لو لم أكن واثقة منه ...

- ولكنه وعدني بأن لا يعود للعمل معهم

- لقد نصحتك من قبل بأن لا تصدقي وعدًا يقطعه لك رجل

صمتت جوماننا لبعض الوقت ثم سألت:

- ما الذي يجب علي أن أفعله؟!

- عليك أن تحزمي حقائبك وتأتي للعيش معي في القلعة - قالت

تاج - فهناك في الغابة ومع وجودي أنا وإكليل لن يستطيع أحد الاقتراب منك أو من ابنك.

عندما سألت جوماننا قبل قليل: «ما الذي يجب علي أن أفعله»

كانت تقصد أن تقول ما الذي يجب عليها أن تفعله مع زوجها وما هي الطريقة الأنسب للتصرف معه ولم تكن تقصد الشيء الذي فهمته تاج، لذلك فإنها قالت بعناد:

- سأبقى حتى يعود زوجي وأتحدث معه بخصوص هذا الأمر..

«الحب بالنسبة للمرأة هو أهم معركة في حياتها، والمرأة بطبعها

العنيد لا تنسحب أبدا من معاركها حتى وإن كانت خسارتها مؤكدة..
وكانت تلك إحدى أكثر معادلات الحب التي لم تتمكن تاج من
استيعابها، لهذا فإنها أجابت بغضب وحدة وقهر:

- تبا لك ولزوجك يا جومانا ولهذا القلب الذي تملكينه أقول لك أن
زوجك عاد للعمل مع منظمة الجاثوم، وبأنك وابنك في خطر مميت
وأنت تقولين لي بأنك سوف تنتظرينه حتى يعود، لو كنت مكانك
لهربت!!

- تقولين ذلك لأنك لم تجربي أن يتعلق قلبك بأحدهم.

- هل أبدو لك غيبة للحد الذي يجعلني أعلق قلبي بأحدهم؟!

تجاهلت النقاش مع والدتها في ذلك الأمر وسألت:

- فقط قل لي أين أستطيع العثور على بحر؟!

- لن أخبرك..

- لماذا؟! - قالت معترضة - هذا ما جئت لأجله البارحة!!

- لأنك سوف تموتين لو حاولت اكتشاف الحقيقة ...

رغم الكلام الخطير الذي نقلته إليها تاج إلا أن جومانا لم تكن تفكر
في أمر عودة زوجها للعمل مع الجاثوم فقط، بل كان ثمة شيء آخر
يشغل بالها وهو: تلك الفتاة التي اسمها أيار والتي يعيش معها زوجها
في بيت واحد وعن الأشياء التي قد يفعلونها خلف الأبواب المغلقة
عندما يحل الليل عليهما .. لقد اشتعلت الغيرة في قلبها ولا شيء
يصبح أكثر جنونا وغباء من امرأة تغار:

- حدثيني عن تلك التي تسكن مع زوجي

انفجرت عليها تاج:

- هل هذا وقت الغيرة أيتها الحمقاء؟!

هي تعلم بأن والدتها على حق ولكن من عساه يقنع قلبها بذلك؟!
لقد كانت الغيرة تحرقها مثل عصر ليمونة خضراء فوق جرح نازف
ورغم هذا لا تستطيع أن تكف عن التفكير بهذا الأمر.

كان ثمة شعور داخلي يقول لها بأن هناك شيئًا ما أجبر زوجها حتى
يعود للعمل مع الجاثوم:

- أريدك أن ترتبي لي موعدًا لمقابلة أبي...

- لماذا تريدان مقابله؟!

- أريده في أمر، أتوسل إليك أن ترتبي لي موعدًا معه

- أنت تعلمين بأن الشخص الوحيد الذي يستطيع فعل ذلك هي
الوزيرة خيزران..

- وأين هي خيزران؟ وكيف أستطيع العثور عليها؟!

- ما الذي تريدينه من والدك؟!

- أريده أن يحارب منظمة الجاثوم؛ فهذه الطريقة الوحيدة التي قد
تعيد لي بحر

- لن يوافق يا جومانا .. فأنت لم تعودتي واحدة من العائلة ليقدم
لك المساعدة - قالت تاج ذلك قاطعة عليها الأمل - كما أنك تعرفين

بالأمور الفظيعة التي حدثت بين الأباطرة والجاثوم قديمًا، وهم ليسوا مستعدين لتكرار التجربة مرة أخرى..

أحست تاج بخوف ابنتها، فقالت تقدم لها هذا الاقتراح:

- ليس ضروريًا أن تأتي للقلعة أستطيع البقاء هنا لحمايتك.

- لن يكون بحر مسرورًا لو جاء وراك

- لن يراني، سأغادر في اللحظة التي يدخل فيها من الباب!!

- والطفل ماذا سأقول له حين يسألني عنك؟!

- أنا أمك يا جوماننا، وأنا جدته أيضًا...

- هو لا يعرف ولا أريده أن يعرف بأنك جدته.

قالت جوماننا ذلك ثم وضعت يدها على فمها ونظرت نحو والدتها

بندم وكأنها انتبهت للخطأ الفظيع الذي أوقعت نفسها فيه

- أقصد أن أقول ب....

قاطعتها تاج:

- لا تقولي شيئًا

- لا تسيئي فهمي كل ما بالأمر هو أنني لا أريده أن يعرف أنك....

- جنية - قالت تاج ثم همست بخيبة أمل:

- لقد حفظت الدرس جيدًا لا داعي لأن تكرريه علي كلما التقينا..

- أرجوك لا تغضبي مني يا أمي

تجاهلت تاج ذلك الكلام ثم قالت في محاولة أخيرة لمساعدة ابنتها:

- خذي ابنك واهربي به بعيدًا..

لم تكن الفكرة مناسبة لجوماننا ؛ فهي ليست من ذلك النوع الذي يعالج مشاكله بالهرب، وفي الوقت ذاته تعلم بأنها مهما ابتعدت كثيرًا فإن جميع الطرق في النهاية ستقودها نحو الشخص الذي يسكن قلبها:

- الأمور لا تسير بهذه البساطة يا أمي.

أيقنت تاج أخيرًا بأن لا فائدة تُرجى من الحديث مع ابنتها العنيدة لذلك فإنها سارت نحو الباب لتغادر.. ولكنها توقفت أمام الطفل الذي لا يزال متصلبًا في مكانه:

- إنه جميل جدًا؛ فبالرغم من كونه ذكر إلا أنه يشبهك كثيرًا

- ماذا أقول له حين يستيقظ من غفوته هذه؟!

- لا تقلقي لن يكون من السهل عليه أن يتذكر

وقبل أن تزيل عنه مفعول التعويذة قالت:

- أنت متأكدة من أنك لا تريدين إخباره بالحقيقة؟

- لقد انتهينا من هذا الحديث يا أمي!!

- إنه يستحق أن يعرف بأنه مختلف يا ابنتي...

- إنه ابن بحر، ابن الطين هل نسيت؟!

ابتسمت تاج بمكر وهي تقول:

- يبدو أن هناك خللاً يصيب عقول الذين يقعون في الحب

- ماذا تقصدين؟!

- أنتِ هي التي انطفأت عيناكِ وزالت قوة النار خاصتك نهائياً بعد

ارتباطك ببحر

- ثم وضعت يدها فوق قلب حفيدها: ولكن هذا الولد يمتلكها، أنه

يمتلك القوة يا جومانا.

- وما أدراكِ أنتِ؟!!

- لأنني سمعتها في صدره عندما قمت بحمله بين يدي لأول مرة...

وهنا فهمت جومانا الأمر وعرفت لماذا جاءت والدتها لزيارتها في

ذلك اليوم ...

لقد جاءت لتتأكد مما إذا كان يمتلك القوة بداخله أم لا؛ ولهذا

طلبت أن تمنى له حياة سعيدة.. بينما هي لم تتمنّ له بل ألقت في

أذنه التعويذة التي اكتشفت من خلالها حقيقة:

«إنه هجين يملك بداخله النار والطين»

- لقد فهمت سبب مجيئك في ذلك اليوم

- هذا الولد يستطيع أن يصبح قوياً جداً لو أنك سمحت لي فقط

بتحريك النار بداخله قبل أن يتجاوز مرحلة البلوغ ويصبح حينها

ذلك الأمر مستحيلاً!!

أشارت جوماننا بإصبعها نحو الباب وقالت بحزم:

- ارحلي من هنا!!

تمتمت والدتها منكسرة: كما تشائين.

ثم وضعت يدها فوق رأسه وقرأت بينها وبين نفسها كلامًا بصوت منخفض وقالت قبل أن تغادر:

- سيحتاج لبعض الوقت قبل أن يختفي مفعول التعويذة عنه.

بعد قليل من الوقت بدأت عيناه - عينا الطفل - تستعيدان قدرتهما على الرؤية وبدأ يشعر بالدم يجري في عروق جسده، ثم شيئًا فشيئًا بات في مقدوره الإحساس بالأشياء من حوله:

- أأنت بخير، هل تريدني أن آخذك إلى حكيم القرية؟

لم يتكلم بل راح يركض نحو الباب.. فتحه لكنه لم يجد أحدًا قال:

- كانت هناك امرأة تقف في الخارج!

- لا، لم يكن هناك أحد

- ولكني رأيته وكان معها عصفور كبير لونه أحمر

طوقته بين ذراعيها وهمست: إنها تخیلات لم يكن هناك أحد...

كان يؤمن بأن أمه لن تكذب عليه لذا فإنه صدقها وكذب عينيه:

- معك حق - تمتم - لم يكن هناك أحد إنها تخیلات.

- هل أستطيع أن أطلب منك شيئًا يا صغيري؟!

- نعم، أي شيء لأجلك

- أبوك

- ما به؟!

- فتش عنه .. اعثر عليه حتى ولو كان مختبئًا تحت الأرض.

انطلق للتفتيش عن والده في دروب القرية المتشابكة...

ولفرط حماسه في البحث فإنه قد ابتعد كثيرًا حتى وصل لنقطة اختفت فيها البيوت تمامًا عن مجال نظره ووجد نفسه وحيدًا أمام غابة كبيرة كان منظرها من الخارج يغريه بالدخول إليها، ولكنه ما كاد أن يتقدم خطوتين باتجاهها حتى سمع فحيح صوت أنثوي مَهيب ينبعث من عمق الغابة يقول محذرًا:

- لا تدخل أيها الصغير.

سأل الطفل صاحبة الصوت: من أنت؟

أتاه الصوت من داخل أعماق الغابة:

- اسمي تارا وأنت ابن جوماننا أليس كذلك؟!



- كيف عرفتِ؟!

- أنت تشبه أمك كثيرًا

- تعرفين أمي؟!

- أنا وسمو الأميرة جوماننا كنا صديقتين في الماضي

- أمي أميرة؟!

لم يجبه أحد وامتدّ الصمت طويلاً وكأن صاحبة ذلك الصوت
اكتشفت أنها قالت شيئاً ما كان ينبغي لها أن تقوله، عاد الصوت بعد
قليل من داخل الغابة يقول:

- ما الذي جاء بك لهذه المنطقة أيها الصغير؟!

- كنت أبحث عن بحر عندما وجدت نفسي بالصدفة هنا

- أمك طلبت منك أن تفتش عنه؟!

- نعم، هي طلبت ذلك

قال الصوت:

- عد إليها وقل لها بأن لا تفتش عنه أبداً

هنا وفي هذه اللحظة سمع الطفل صوتاً آتياً من الخلف يقول:

- ماذا تفعل القملة الصغيرة في مكان خطير مثل هذا؟!

كان سعيداً بلقاء أيوب للحد الذي جعله يركض من غير شعور نحوه
لمعانته ...

- هل كنت تتحدث مع أحدهم أيها الصغير؟!

قال وهو يشير بإصبعه نحو الغابة: كنت أتحدث مع تارا

- هذه الغابة مهجورة ولا يسكنها أحد.

- ولكنني واثق من أنني كنت أتحدث مع أحدهم...

أخبره أيوب بأن تلك المنطقة اسمها الغابة المظلمة وهي مهجورة منذ زمن بعيد وبأن أحدًا لم يسبق له من قبل أن دخلها وخرج منها حيًّا؛ لذلك فلا أحد يعرف ما فيها.. وعندما سأل الطفل عن سبب تسميتها بالغابة المظلمة أجابه أيوب قائلاً:

- لأنها مظلمة طوال الوقت فحتى أشعة الشمس بالكاد تستطيع الدخول إليها بسبب الأشجار الكثيفة التي تغطي أراضيها - ثم سأله خارجاً عن موضوع الغابة:

- ولكن لم تقل لي ما الذي أخرجك من البيت؟!

تذكر طلب والدته فقال:

- للبحث عن بحر - وأضاف: هل تعرف أين أجده؟!

- لا، أنا لا أعرف مكان والدك كما أنني لم أره منذ مدة طويلة

كانت أدوات النفي الكثيرة المستخدمة في الإجابة دليلاً على أنه يكذب:

- أنت لا تقول الحقيقة - صاح - أخبرني أين أجده!!

- أخبرتك بأنني لا أعرف أيها الصغير

وهنا قال مهددًا: ألم تخبرك أمك إلى أي مكان مخيف يذهب أولئك الذين يكذبون؟

صمت أيوب قليلا يتذكر ما حدث له قبل أعوام طويلة حين كان صبيًا يُباع ويُشترى مثل سلعة في أسواق الجواري والعبيد.. إنه لا يذكر شيئًا عن ماضيه السحيق ولم يجرب طيلة حياته معنى أن تكون له عائلة:

- لا، لم تخبرني.

- الكاذب يذهب إلى الجحيم!!

ابتسم أيوب وهو يشاهد عصبية الطفل والذي أكمل يقول:

- سأكرر سؤالي مرة أخرى عليك وأريدك أن تكون صادقًا في إجابتك معي هذه المرة اتفقنا؟!

هز أيوب رأسه موافقًا بينما صاح الطفل في وجهه معترضًا:

- لماذا لا تقول اتفقنا؟!

- اتفقنا .. اتفقنا!!

كرر سؤاله:

- هل تعرف أين أجد بحر؟!

كان أيوب يدرك في قرارة نفسه أنه من الخطير جدًا إخباره بمكان والده ورغم ذلك لم يتمكن من مواصلة الكذب؛ فقد كانت هناك طاقة غريبة تنبعث من الطفل وتؤثر في عقله مباشرة وتجبره على قول الحقيقة، قال وهو يبتعد:

- اتبعني..

بعد مسافة طويلة جدًا قطعناها معًا سيرًا على الأقدام توقف أيوب فوق إحدى الهضاب المرتفعة المكسوة بالأعشاب والمروج الخضراء، وأشار بإصبع ضخم كما حبة الكوسا نحو بيت ضيق كان ينهض وحيدًا بالقرب من أحد الأنهار:

- والدك تجده هناك - وأضاف: ولكن ذهابك علي أن أحذرك

- من ماذا؟!

- من الفتاة التي ستفتح لك الباب

- الفتاة التي ستفتح لي الباب؟!

- اسمها أيار - قال أيوب وأضاف: اسألها عن موعد عودة بحر واحذر من أن تقول لها بأنه أبوك، هل تفهم؟!

- ماذا أقول لها إذا؟!

- أي شيء ولكن المهم هو أن لا تدري بأنه أبوك - ثم تابع:

- كما يجب عليك أن لا ثجب عن أي سؤال آخر توجهه إليك

- لماذا؟!

- كف عن طرح الأسئلة أيها المزعج، وافعل كما أخبرتك!!

سار الطفل نحو البيت الذي أشار إليه أيوب...

كان بيتًا صغيرًا ضنع من الحجارة والطين وجذوع الأشجار وكان
منظره من قريب يوحي بأن لا أحد يسكنه؛ الأمر الذي جعله يلتفت
للخلف نحو أيوب ويقول:

- أنت واثق من أن بحريسكن هذا البيت؟!

لكن أيوب كان قد اختفى من مكانه فتساءل الطفل:

- أيوب أين أنت؟! - وعندما لم يجد جوابًا صاح:

- أين ذهبت؟!

- اخفض صوتك - قال أيوب الذي كان يختبئ خلف الشجرة -
سوف أبقى هنا ريثما تطرق باب البيت وتسأل عن والدك.

- لماذا تختبئ؟!

- اطرق الباب فقط، ولا تنسى الأشياء التي أخبرتك بها

- أي أشياء؟!

عاد يكرر عليه:

- لا تخبرها بأنه أبوك، ولا ثجب عن أي سؤال توجهه إليك.

طرق الطفل باب البيت لأكثر من مرة دون فائدة...

وقد كان في طريقه لأن ينسحب من هناك، لولا أنه سمع في آخر
لحظة أصوات أقدام من داخل المنزل تقترب.. وبعد لحظات فتحت
له الباب فتاة سمراء نحيفة ترتدي فستانًا قصير بفتحة صدر واسعة،
سألها:

- هل بحر يسكن هنا؟!

- نعم ولكنه ليس هنا الآن - ثم سألت: من أنت؟!

أراد الكذب لكنه لم يكن معتادًا على ذلك فقال:

- بحر.. إنه.. هو.. أبي

تبدل وجه أيار وهي تقول: أنت ابن عقربة الجن إذا؟!

لم يفهم ما الذي كانت تقصده بقولها عقربة الجن، فقال متجاهلاً:

- أريد أن أتحدث مع بحر في أمر مهم، هل هو هنا؟!

- قلت لك لا - ثم أضافت بمكر لكي تستدرجه في الكلام:

- ولكنني أستطيع أن أخبره بما تريد عندما يعود..

انطلت الحيلة عليه فقال:

- أخبريه بأن أمي ترغب في رؤيته مرة أخرى.

ارتفع حاجباها للأعلى وقالت كمن يقع على سر خطير:

- هل جاء والدك لزيارتكم في الأيام الماضية؟!

- نعم - قال - جاء لزيارتنا مرتين

أصابتها الصدمة عندما عرفت بأن بحر قام بزيارة عائلته سألت:

- وكيف عرفت أنه يسكن هنا هل هو من أخبركم؟!

- أيوب أخبرني..

- أيوب أخبرك - سألت مندهشة: وأين هو؟!

أشار نحو الشجرة التي يختبئ خلفها:

- هناك خلف تلك الشجرة...

عندما عرفت أيار أن أيوب خلف الشجرة دخلت البيت وتناولت شيئاً في يدها لم يعرف الطفل ما هو لأنها دسسته تحت قطعة من القماش وخبأته خلف ظهرها ... اتجهت نحو الشجرة بحذر حتى إذا وصلت إليها ونظرت للجهة الأخرى لم تجد أحداً:

- لا يوجد أحد هنا هل كنت تكذب؟!

- لا أنا لا أكذب ...

اختفت أيار من مكانها بتأثير السحر ثم ظهرت أمامه بلمح البصر وربما اقترابها الشديد منه هو ما سمح له برؤية العروق السوداء الدقيقة والتي لفرط غضبها أصبحت تغطي وجهها .. أمسكته من ثيابه بيد واحدة ورفعته بضع بوصات عن الأرض، ثم وباليدين الأخرى التي كانت تخبئها خلف ظهرها وضعت على رقبته خنجرًا حاد النصل:

- سأقتلك إن لم تخبرني بالحقيقة..

- أنا لا أكذب إنه أيوب كما قلت لك...

ضغطت بالخنجر على رقبته أكثر: «لا تكذب» قالت وهي تقرب وجهها منه حتى لعقت بلسانها الطويل شفثيه المكتنزة وكأن الساحرة بتلك الطريقة كانت تتذوق الصدق في كلامه، شعر الطفل بالاشمئزاز وهو يمسح شفثيه بكف يده ويقول برعب:

- صدقيني!

أفلتته وقالت قبل أن تدخل للبيت وتغلق الباب في وجهه:

- من الأفضل لك أن لا تدعني أراك مرة أخرى..

بعد ذلك ذهبت أيار نحو مطبخها فتحت درجًا صغيرًا أخرجت منه قارورة مستطيلة مرسوم على زجاجها صورة لعظمتين متقاطعتين وجمجمة مكتوب أسفلها كلمة من حرفين: « شم » ثم أخرجت جرة ماء صغيرة بنية اللون، وطبقًا من الطعام لونه أبيض.

لقد أخطأ أيوب كثيرًا عندما دل الطفل على البيت الذي يسكن فيه والده ولكنه لم يفعل ذلك إلا لأنه كان تحت تأثير شيء غامض ينبعث من عيني الطفل ويجبره على قول الصدق .. وما يجعله الآن يشعر بالخوف أكثر هو إدراكه أن الساحرة أيار لن تسكت، بعد أن عرفت بأن بحر ذهب لزيارة عائلته وأن جوماننا تسعى لاكتشاف الحقيقة .. عندما قام أيوب بإيصال الطفل إلى البيت انتبه لجرة ماء صغيرة بنية اللون وطبق من الطعام لونه أبيض كانا يستقران عند عتبة الباب، فسأل بشك:

- لمن هذا الطبق وهذه الجرة؟!

أما الطفل الذي كان معتادًا على أن يستقبل كل يوم من الجيران أطباق الأطعمة وجرار الماء ويدخلها للبيت من غير حتى أن يعرف هوية مُرسلها فإنه أجاب قائلًا:

- يبدو أن إحدى صديقات أُمي تركت لنا الأكل هنا كالعادة .

هز أيوب رأسه وابتعد من غير أن يساور الشك قلبه؛ إذ إنه لم يكن يعتقد أبدًا بأن الساحرة أيار ستنفذ حُكم الإعدام بكل تلك السرعة.

دفع الطفل باب البيت بقدمه واتجه نحو المطبخ حاملاً في يده الجرة وطبق الطعام... وضعهما هناك ثم ذهب لينقل الأخبار لوالدته.. قَصَّ عليها كل شيء منذ أن غادر البيت وحتى عاد، إلا أنه نسي إخبارها بما حدث معه عند الغابة المظلمة وذلك الحديث الذي دار بينه وبين تارا... شعرت جوماننا بالغيرة أكثر من أي وقت مضى خصوصًا عندما أكد لها ابنها أن تلك الفتاة السمراء التي اسمها أيار تعيش فعليًا في بيت واحد مع والده:

- صف لي تلك الفتاة

- لقد كانت طوال الوقت غاضبة!!

- أريد أن أعرف من أجمل هي أم أنا؟!

- أنت؛ لأنك لا تغضبين علي مثلها..

- لا أحدثك عن جمال النفس بل جمال المظهر

- أنت أجمل لأنك لا تقفلين الباب بوجهي

وهنا أمسكت جوماننا ابنها من ثيابه وجرتة إلى الخارج تدفعه ركلاً بقدمها على مؤخرته، وما كاد أن يلتفت نحوها محتجًا على ما تفعله به حتى صفعته على وجهه بقوة أسالت الدماء من فمه:

- لماذا تفعلين هذا بي؟!

لم تجب عليه وأغلقت في وجهه باب البيت كما فعلت معه أيار
تمامًا:

- الآن أصبحت أنا وهي متعادلتين - قالت جومانا من خلف الباب،
ثم سألت:

- قل لي من الأجمل أنا أم تلك الفتاة؟!

أخذ يبكي بصوت غير مسموع ..

بينما قالت من خلف الباب:

- لقد غضبت عليك وأغلقت الباب بوجهك مثل ما فعلت أيار معك
أخبرني من الأجمل؟!

- أنا لا أحبك!!

كانت تلك الكلمة التي قالها ابنها أشبه بصفعة يتلقاها شخص
استيقظ للتو من نوم طويل، لم تصدق جومانا ما سمعته ففتحت
الباب على مهل وأطلت برأسها للخارج، ثم سألت بدهشة:

- ماذا قلت؟!

- لماذا تفعلين هذا بي - صاح في وجهها - أنا أكرهك!!

قال ذلك ثم راح يركض عنها مبتعدًا دون أن يستمع إليها وهي
تهمس:

- لا تذهب أرجوك!!

فتحت الباب لتلحق به ولكن صوتا ما جاءها من الخلف:

- جومانا

خفق قلبها بشدة إذ إنها كانت تعرف جيدًا رنين ذلك الصوت
الأسبه بفحيح أفعى ... التفتت للوراء ببطء شديد واحتاجت للكثير
من الوقت لتستوعب أن الذي تشاهده أمامها حقيقة وليس وهمًا
تصوره لها ذاكرة الحنين سألت غير مصدقة:

- أنتِ؟!

- هناك أمر خطير جثث لأخبرك به.

ظنت جوماننا أنه مهما كان ابنها غاضبًا منها فإنه سيعود إليها قبل غروب الشمس، ولكن الشمس غربت منذ أكثر من خمس ساعات ولم يعد، فبدأ وجهها أكثر شحوبًا وأصبحت نظراتها شاردة كما لو أنها سوف تصاب بعد قليل بالعمى .. ما الذي أصابها حتى تصفعه على وجهه و تطرده خارج البيت بتلك الطريقة؟! هي نفسها لا تملك إجابة عن تلك الأسئلة التي تدور في عقلها، ولكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا فقط وهو أنها أصبحت شخصًا آخر عندما بدأ قلبها يشتعل بالغيرة .. وبينما كانت مشغولة بالبكاء والندم على ما فعلته به لم تنتبه إلى صرير مفاصل باب البيت وهي تطلق أنة خفيفة تشي بأن أحدهم قد جاء، وتلك اليد التي ربتت على شعرها الرمادي الناعم:

- لا تبكي

رفعت رأسها ونظرت نحو ابنها بندم:

- آسفة لم أكن أقصد أن

أغلق فمها بيده الصغيرة العابقة برائحة الدموع والتراب والحزن:

- أنت أجمل منها - قال الطفل - أنت أجمل أم في الدنيا كلها..

- ما الذي أفعله كي تسامحني؟!

- أن تروي لي قصة

- موافقة

وقبل أن يذهب لغرفة النوم قال لها: هناك شيء آخر أريده منك

- أي شيء لأجلك

- أريدك أن تنسيه - ثم أضاف بصوت جاد: أعني بحر

- والدك في خطر وهو بحاجة للمساعدة.

- أي خطر؟!

- لست متأكدة يا بني.

ورغم أنه لم يكن يحب والده إلا أنه لم يكن يتمنى له الشر أيضًا:

- إذا دعينا نذهب إليه ونساعده

- لقد تأخر الوقت.. سننام وعندما نستيقظ سنذهب إليه، اتفقنا؟!

- اتفقنا

كانت جومانا في تلك اللحظة تشعر بالضعف أكثر من أي وقت مضى، إنها مشتتة وخائفة .. خائفة من كل شيء وليست واثقة من قدرتها على الصمود، تشعر بأنها تائهة في صحراء مظلمة حيث لا إنارة ولا إشارة تهتدي بها للطريق الصحيح، تتمنى من كل قلبها لو كان بإمكانها وضع حد لكل الأشياء التي تعصف بها، نظرت نحو ابنها وقالت:

- أحضر لي بعض الماء ثم تعال لأروي لك قصة.

ذهب إلى المطبخ...

أمسك بجهل جرة الماء البنية التي كانت الساحرة أيار قد وضعت فيها الشم، ثم صب منها الماء لوالدته وعاد ليعطيها الكأس، وهو لا

يعلم بأنه كان يقدم لها الكأس الأخيرة!!

وعندما أفرغت والدته كأس الماء في جوفها، سألها ببراءة:

- أحضر لك المزيد؟!

- لا ، هذا يكفي.

وأردفت: أنت مستعد لسماع القصة؟!

- ليس قبل أن أطفئ قناديل الحائط وأغلق الأبواب والنوافذ!!

أما جوماننا التي بدأت تشعر بزوبعة خفيفة تدور في رأسها، فإنها قالت لطفلها قبل أن يغادر: حسنا، ولكن لا تتأخرا!!

حين عاد إليها بعد أن أكمل مهمته التفقدية على مرافق البيت، وجدها ممددة فوق فراش النوم تمسك بطنها بكلتا يديها، وتتألم بشدة فسألها:

- ما بك، هل تشعرين بالتعب؟!

ولأنها لم تكن تريده أن يقلق عليها فإنها أبعدت يديها من عند بطنها واستوت في جلستها متكئة بظهرها على حائط الطين الذي اتكأت عليه عندما حملته بين يديها لأول مرة، صنعت على وجهها الفرهق ابتسامة زائفة، وقالت:

- لا تقلق أنا بخير.

تمدد بجوارها مثل جرو صغير يتمدد بجوار المدفأة، وقال:

- أنا مستعد.

بدأت تروي قصتها:

- منذ وقت طويل .. طويل جدًا .. كان هناك طفل صغير، وأم تحبه.. تحبه جدًا، كانا يعيشان في كوخ بعيد.. بعيد جدًا، ذات يوم رحلت تلك الأم عن ابنها الصغير، وتركت له عند صديقتها سراً خطير خطيرًا جدًا...

نظرت لعيئي ابنها وسألته كمعلم يختبر تركيز أحد طلابه:

- ماذا تركت تلك الأم لطفلها الصغير؟!

- تركت له عند صديقتها سراً خطير .. خطيرًا جدًا!!

قالت وقد بدأ مفعول السم في الظهور عليها:

- انظر إلى عيني وأعد علي القصة ...

- أنت تتعرقين - همس بخوف وهو يمد يده إلى جبينها، ثم أضاف:

جبينك ساخن

وهي تبعد يده عن جبينها:

- لا تهتم .. انظر إلى عيني وأعد علي القصة.

وهو ينظر إلى عينيها ويفعل مثل ما طلبت منه:

- منذ وقت طويل .. طويل جدًا .. كان هناك طفل ص...

- أكمل، لماذا سكت؟!

أكمل ببطء محاولاً أن يتذكر تفاصيل القصة:

- كان هناك طفل صغير .. وأم تحبه.. تحبه جدًا ، كانا يعيشان في
كوخ بعيد.. بعيد جدًا ، ثم ذات يوم رحلت تلك الأم - تردد قليلاً
وكأنه نسي المقطع القادم، فساعدته جومانا هامسة وهي تهز رأسها
لتشجعه:

- رحلت تلك الأم عن ابنها الصغير، هاه وماذا بعد يا بُني؟!

- آه نعم تذكرت.. رحلت تلك الأم عن ابنها الصغير، وتركت له عند
صديقتها سراً خطير .. خطيراً جداً!!

أعطته قبلة على جبينه كمكافأة ثم قالت:

- لن تنسى هذه القصة يا صغيري أليس كذلك؟!

- لن أنساها ..

ثم ولأن جومانا لم تقل هذه المرة جملتها الختامية والتي يفهم
الطفل من خلالها أن القصة انتهت، وأن موعد النوم حان فإنه قال
باستغراب شديد:

- هل انتهت القصة؟!

- لا، لم تنتهِ

- أكملني إذا ..

- ستكملها أنت يوما وتصنع نهايتها بنفسك...

لم يفهم تلك الأحجية ولكنه حرك رأسه موافقاً وقال بقلق:

- لا تُجهدي نفسك ارتاحي الآن!!

صحيح أن بطنها كان يؤلمها وكانت تشعر بأن هناك سكاكين حادة تنغرس في جدار معدتها ولكنها تظاهرت بأنها بخير كي لا يُصاب ابنها بالجزع، فأغمضت عينيها وهي لا تزال تتكى بظهرها على حائط الطين، قال الطفل وقد فاجأها بهذا السؤال المباغت:

- هل تحبين بحريا أمي؟

- لا .. لا أحبه

قالت ذلك ثم مدت جسدها على فراش النوم وقد أنهكها التعب، ذهب لكي يجلب لها وسادة يضعها أسفل رأسها .. ولكنه عن غير قصد جلب لها الوسادة البيضاء ذاتها التي كانت تعبق برائحة والده.. وما أن دسها تحت رأسها حتى التقط أنفها - أنف جوماننا - رائحة زوجها العابقة فيها فمررت أطراف أصابعها على ظهر الوسادة بحنو وكأنها تتخيل نفسها تصافح صدر بحر.

تمتتم بهمس يحمل في طياته كل حنين الدنيا قائلة:

ها أنت ذا جئت يا بحر لقد اشتقت إليك كثيرًا، للتو سألني الطفل إذا ما كنت أحبك أم لا ، قلت له: «لا» حتى لا أثير غضبه بينما في الحقيقة كنت أقصد ألف ألف نعم !!

حين استيقظ من نومه مساء اليوم التالي وجد والدته على غير العادة لا تزال نائمة فلم يشأ أن يوقظها من نومها، وقرر أن ينتظر بجوارها في صمت حتى تفيق من تلقاء نفسها، ولكن غروب الشمس قد اقترب ومر الكثير من الوقت وجوماننا لم تستيقظ بعد فسأل

بشك:

- أمي؟!

وعندما لم تجب على نداءاته المتكررة أزال الغطاء عن وجهها فشهد شيئاً غريباً: كان وجهها قد أصبح شاحباً تحيط به هالة زرقاء اللون وثقة زغب خفيف عند زاوية فمها، وحين وضع أذنه عند صدرها لم يستمع لصوت دقات قلبها

انتابه شديد الخوف عليها ، فوثب قائماً وهو يقول:

- يجب أن يأتي الحكيم لرؤيتك!!

كان المطر في تلك الليلة يصب بقوة كما لو أن أحدًا فتح جميع صنادير السماء دفعة واحدة، وكان البلل الذي أصاب جسد الطفل قد ضاعف من قسوة البرد عليه، ورغم الشائعات التي يرددها جميع نساء ورجال القرية في تلك الفترة، والتي تقول بأن الوحوش تفضل ليالي المطر في اصطیاد فرائسها، إلا أنه لم يفكر بالاختباء في البيت حتى يهدأ الطقس قليلًا، بل راح يركض بكل سرعته في أرجاء القرية مفتشًا عن بيت الحكيم .. وبينما هو يركض إذ أطلق الرعد صوتًا مرتفعًا أدخل الرعب إلى قلبه، فأغمض عينيه من شدة الخوف لكنه لم يتوقف بل واصل الركض تحت المطر، ثم وبسبب انعدام الرؤية لديه تعثرت قدمه بحجارة بارزة لم ينتبه إليها، فسقط أرضًا.. استعان بيديه لينهض الا أنهما كانتا أضعف بكثير من أن تحملا جسده في تلك اللحظة، وربما بسبب البرد والجوع والمطر استسلم وسقط مغشيا عليه .. بعد وقت قصير: استيقظ من نومه خائفًا بسبب مدافع الرعد التي توالى بشكل مرعب في السماء، واحتاج لبعض الوقت حتى يتذكر السبب الذي من أجله وجد نفسه خارج البيت ممددًا فوق بركة من الوحل والطين مستلقيًا تحت وطأة المطر الغزير هتف متذكرًا:

- الحكيم!!!

بمزيد من الجهد استطاع أن يُسند نفسه على يديه ويثب منتصبًا ليكمل رحلة البحث عن حكيم القرية، ولكنه ما كاد يخطو خطوتين نحو الأمام حتى سمع أصوات أقدام تقترب منه:

- من هناك؟!

كان المطر لا يزال يضرب بقوة وكأنه يريد أن يلحق الأرض درسًا لا تنساه، وكان الليل شديد الظلمة وكأن هناك من أطفأ جميع أضواء الكوكب وحدها رياح الشتاء الباردة كانت تغني قصيدة الخوف، والحجارة والصخور والأشجار، يرددون خلفها آخر بيت في القصيدة
كرر الطفل سؤاله تحت المطر:

- من هناك؟!

لم يجب عليه أحد هذه المرة أيضًا ولكن وقع الأقدام ظل يقترب منه أكثر .. وعندما لمعت عروق البرق في السماء وأضاءت حوله المكان أستطاع مشاهدة الحقيقة، حيث كانت تقف أمامه أربعة ذئاب تنظر إليه سعيدة بوجبتها السهلة، راح أكبرهم يتقدم نحوه:

- لا يبدو أن جرو البشر هذا فيه الكثير من اللحم يا رفاق - قال الذئب الأكبر لرفاقه - ولكنه سيفي بالغرض على كل حال أليس كذلك؟!

كررت الذئاب كلام زعيمها بحماس: بلى سيفي بالغرض

أما الغريب في الأمر فهو أن الطفل خيل إليه أنه استطاع فهم ما تقوله تلك الحيوانات المفترسة كلمة كلمة حرفًا حرفًا، ولكنه لم يصدق ذلك الأمر بالطبع وفسره على أنه تخيلات .. ورغم أن الطفل يعلم بأنه سيكون وجبتهم القادمة، إلا أنه لم يشعر بالخوف بل كان يشعر بالغضب .. كان غاضبًا لأنه يعتقد بأن الوقت ليس مناسبًا للموت، لقد شعر بأنه سيقوم بخيانة والدته لو أنه مات قبل أن يقدم

لها المساعدة، يجب عليه أن يواصل البحث عن بيت الحكيم مهما كلفه الثمن.

انحنى ليأخذ فردة حذائه وعندما رفع رأسه كانت عينه اليسرى قد تحولت للون الأحمر القاتم، ثم راح يهجم قافزًا في الهواء بكل قوة نحو الذئب الأكبر، وبالتالي قفز ذلك الذئب باتجاهه ولكن وقبل أن يصطدم الاثنان في الهواء حدث ما كان من شأنه أن يقلب الموازين رأسًا على عقب .. فقبل أن يشتبك الاثنان في الهواء بلحظة واحدة كان هناك سهم قد انطلق من مكان ما شق له طريقًا من بين قطرات المطر، ليستقر أخيرًا في عنق الذئب الأكبر ويسقطه أرضًا: «اللعة اهربوا يا رفاق» هذا ما قالته بقية الذئاب بعضها لبعض بصوت عالٍ، وهي ترى قائدها مستلقيًا على الأرض تتفجر من رقبتة الدماء، وقف الطفل مدهوشًا لا يعلم ما الذي حدث تكلم أحدهم تحت المطر وهو يقترب منه ماسكًا في يده قوسًا طوله ستة أقدام:

- كم أنت شجاعة أيتها القملة الصغيرة المزعجة!!

- أيوب - هتف الطفل بفرح ثم قال حين انتبه:

- ولكن كيف عرفت أنني هنا؟!

كان أيوب طوال الوقت يحرس بيتهم من بعيد خوفًا عليهم من غدر الجاثوم... وأثناء تلك المراقبة استطاع أن يشاهد الطفل وهو يخرج من البيت فقرّر اللحاق به:

- أخبرتني السماء بأنك هنا - وأضاف متسائلًا:

- إلى أي مكان تريد الذهاب في هذه الليلة المربعة؟!

- أمي مريضة - قال - وخرجت لطلب المساعدة

- ما الذي حدث؟!

- لا وقت لأشرح لك، ساعدني في الوصول للحكيم.

عند زاوية الطريق كان هناك منزل صغير ، بدا أنه كان يقاوم بصعوبة واضحة هجمات المطر القوية.. مد أيوب أصبعًا في الهواء مشيرًا نحوه:

- ذاك هو منزل الحكيم!!

راح الطفل يطرق الباب بكل قوته،

ولم يتوقف إلا حين جاءه الصوت الغاضب من الداخل:

- لتصبك السماء بشلل يا من تطرق الباب بهذه الطريقة.

فتح أحدهم الباب .. وكان رجلًا طويلًا في أواخر الأربعينات من عمره، جسده نحيل مثل ساق قصب سكر وشعره المنفوش يجعل منظره العام أشبه بمكنسة أوساخ.. لديه لحية تشبه لحية عنز فحل وكان شاربه الحليق هو الأمر الذي أكسب أنفه بروزًا مبالغًا به...

- أهذا منزل الحكيم؟

- نعم، هذا منزل الحكيم

- وأنت هو الحكيم أليس كذلك؟!

- لا، بل زوجته - ثم أردف بحدة: نعم أنا هو، ماذا تريد؟!

كان حينها يرتدي ثوبًا طويلًا أخضر اللون ويحمل في يده اليسرى كتابًا ضخماً منقوش على غلافه اسم «الترجمان» وفي قبضة يده اليمنى يحمل سراجًا ينبعث من فتيله المشتعل هسيس ضوء خافت: - من أنت؟! .. وما الذي يفعله صبي في مثل عمرك هنا وفي هذا الوقت المتأخر؟!

- جئت آخذك لترى أمي إنها مريضة!!

- ادخل حتى يهدأ الطقس قليلًا ثم نذهب لرؤيتها - وأضاف متذمرًا صوت هامس: لتقضي السماء على أمهات هذه الأيام، كيف يسمحن لأولادهن بالخروج في مثل هذه الأجواء الخطيرة؟!

- هي لم تسمح لي بالقدوم إلى هنا، لقد جئتك وهي نائمة

ثم ولكي يقنعه بالذهاب معه الآن وبأسرع وقت ممكن فإنه جعل يشرح له الحالة التي ترك والدته عليها ، قال له بأنها لا تتكلم وبأن قلبها متوقف كليًا عن النبض وأخبره عن الهالة الزرقاء التي تحيط بوجهها الشاحب .. وعندما انتهى الطفل من كلامه لم يكن لدى الحكيم أدنى شك بأن والدته لم تكن تعاني من مرض ما، بل كانت ميتة .. ثم وكنوع من العزاء وضع الكتاب والسراج جانبًا، شمر عن أكمامه وقال:

- حسنًا أيها المتهور سأأتي معك.

ما كاد الاثنان يسيران تحت المطر بضع خطوات قليلة، حتى صاح الحكيم بخوف وهو يشير بإصبعه نحو الأمام:

- يا للسماء لم أكن أعرف أن في قريتنا غوريلات!!

أعترض أيوب:

- أنا لست غوريلا!!

اقترب الحكيم منه كما لو أنه يريد أن يتحقق، ثم قال بطريقة مستفزة:

- يا للسماء أنت تشبهها حتى من القريب يا رجل!!

- أنت تملك لسانًا طويلًا أيها الحكيم!!

- ليس لساني فقط.

اقترب أيوب منه وقال بنبرة مهددة:

- لو لم يكن هذا الولد بحاجة لك لكنت سألقنك درسًا في الأدب!!

فأجاب الحكيم بنبرة الصوت نفسها:

- لو لم تكن الغوريلات شيئًا نادرًا في هذا العالم لكنت سأركل لك مؤخرك!!

تدخل الطفل بينهما منهيًا الشجار:

- هيا يجب أن نذهب بسرعة أُمي مريضة!!

في أحد أيام الجمعة وبعد منتصف الليل بقليل وبينما المطر لا يزال منهمراً في الخارج بقوة، قال الحكيم بنبرة آسفة كما لو أنه يعتذر نيابة عن القدر للطفل الذي كان يحدق فيه منتظراً نتيجة الفحص:

- لقد ماتت.

أمّا الطفل الذي لم يدرك معنى الموت فإنه ردد ببراءة:

- ماتت؟!

- لقد فارقت والدتك الحياة منذ البارحة أيها الصغير..

لفرط ما كان يحب والدته فإنه لم يتخيل حتى في أكثر كوابيسه رعباً أنه قد يفقدها يوماً، لذلك لم يستوعب ما قاله الحكيم وذهب في الاعتقاد إلى أن والدته ربما تكون مصابة بمرض اسمه «الموت» فغادر الغرفة لبعض الوقت، وحين عاد كان يحمل بين يديه بعض النقود المعدنية:

- خذ - قال وهو يمدّها نحو الحكيم - هذه كل أموالنا.

سأل الحكيم بدهشة:

- وما الذي تريد مني أن أفعل بكل هذا المال؟!

- اشفها - همس متوسلاً - اشفها من الموت.

شعر الحكيم بأنه ما كان يجب عليه أن يوافق على القدوم مع هذا الصغير منذ البداية وفكر في أن ينسحب عائداً إلى منزله، غير أنه لن يفعل ذلك قبل أن يكشف عن السر الخطير الذي اكتشفه..

- أين أبوك؟! أليس لديكم رجل كبير يهتم بأمركم هنا؟!

- سيقودك إليه أيوب

- هل ستتركني أذهب وحدي مع ذلك الشخص المخيف؟!

- لا أستطيع مغادرة البيت فربما استيقظت أمي واحتاجت لمساعدتي في أي لحظة!!

كان الحكيم يريد أن يصرخ في وجهه قائلاً بأن والدته لن تستيقظ مجدداً، كان يريد أن يشرح له علمياً معنى الموت غير أنه فضل بالاً يكون هو الشخص الذي يوقظ الصبي من أحلامه..

أما أيوب الذي لم يكن يعلم بعد عن المصيبة التي حدثت بالداخل فإنه ما أن شاهد باب البيت يُفتح حتى هرول نحو الحكيم:

- هل سارت الأمور على ما يرام؟! هل أصبحت جوماناً بخيراً؟!

- تلك السيدة لم تكن مريضة منذ البداية بل كانت ميتة..

- ولكنه أخبرني بأنها....

- ذلك الصغير لا يعرف شيئاً، إنه يظن بأن قلب والدته نائم وقد يفيق في أي لحظة.

سأل والفاجرة تتسلق حباله الصوتية:

- وماذا يجب علينا أن نفعل؟!

- يجب أن تسارعوا في دفنها، ولكن قبل ذلك أريد مقابلة زوجها..

لم يشعر أيوب بالاطمئنان من ذلك الطلب فقال متسائلاً:

- تريد مقابلة بحر؟!

حرك الحكيم رأسه وأوضح:

- هناك شيء يجب أن يعرفه زوجها

- شيء؟! - تساءل بقلق بالغ - شيء مثل ماذا؟!

- لا أستطيع إخبارك إنها الأمانة وأخلاقيات المهنة كما تعلم

- كما تشاء، تعال آخذك إليه

- هل سنقطع مسافة طويلة تحت هذا المطر مجدداً؟!

- نعم فنحن لن نصل إليه قبل شروق الشمس..

- في هذه الحالة أستطيع التنازل عن الأمانة والأخلاقيات،

سأخبرك عن السر بشرط أن تنقله لزوجها لاحقاً.

أخبره الحكيم بأنه من خلال الفحص الذي أجراه على جثة جومانا

اكتشف أن سبب وفاتها لم يكن طبيعياً، بل كان بسبب تسمم حاد

أصاب وظائفها الحيوية، وما يجعل الأمر أكثر خطورة هو أنه يعتقد

بأنها لم تتسمم عن طريق الخطأ أو المصادفة، بل يعتقد أن هناك من

عمد لتسميمها، قال معلناً عن نتيجة الفحص النهائي:

- إننا نقف أمام حادثة قتل مُدبرة..

في تلك اللحظة عرف أيوب أن منظمة الجاثوم استطاعت بطريقة ما الوصول لجوماننا وقتلها، بعد أن وصلهم خبر زيارة بحر لعائلته ومحاولة اكتشاف زوجته للحقيقة.

تكلم الحكيم قاطعًا حبال أفكار أيوب:

- وهناك شيء آخر..

- ماذا؟!

- جوماننا

- ما بها؟!

- إنها ليست بشرية.

كان الطفل لا يزال يجلس بجوار والدته ينتظر بفارغ الصبر تحسن حالتها عندما سمع صوت تحطم باب البيت فذهب ليستطلع الأمر.. شاهد والده يقف صامئًا في منتصف الساحة الداخلية للمنزل، وبجواره يقف أيوب وقد عرف من خلال المنظر العام لهما بأن هناك شيئًا سيئًا قد وقع.. حاول كعادته منع والده من الدخول إلى الغرفة فما كان من بحر إلا أن ضربه بقوة على رأسه مستخدمًا حافة يده ليسقط الابن أرضًا في مكانه فاقداً الوعي.. وحين دخل بحر الغرفة وشاهد ملامح وجه زوجته الشاحبة المصطبغة بهالة زرقاء، عرف أن الحكيم كان محقًا بشأن السم، صاح مناديًا على صديقه:

- تعال يا أيوب..

حاول أيوب قدر الإمكان أن لا ينظر نحو جثة جومانا، وكأنه لم يكن يريد أن تحتفظ ذاكرته بمنظرها وهي ميتة، اقترب من صديقه أكثر وقال معزيًا:

- إن الحب شيء عظيم تعطيه لنا الحياة مرة واحدة، أعلم بأن خسارتك كبيرة ولكن الوقت وحده يا صديقي هو من سوف يخفف عنك مصائبك - ثم أضاف: ربما ترى كلامي صعبًا في البداية، ولكن الأيام ستأكد لك صحة ما أقول.

انحنى بحر ليضع قبلة وداع أخيرة على مفرق شعر جومانا ثم أغلق عينيها براحة يده برفق وقال: «ربما تقول ذلك لأنك لم تجرب الحب يا أيوب، لا شيء في الدنيا يخفف عنا مصائب الفراق إننا نحملهم في قلوبنا ونظل نتذكرهم حتى ونحن أموات في قبورنا - وأضاف وهو يغطي جسد زوجته باللحاف:

- دع النساء يقمن بغسلها، واطلب من رجال القرية دفنها

تساءل أيوب:

- ألن نشارك معهم في الدفن؟!

أمسك بحر مقبض سيفه وقال وهو يقف:

- لا، فنحن لدينا حساب يجب أن نصفيه مع ناب الفيل..

- هل تفكر بمحاربته؟!

- وهل لدينا خيار آخر؟!

- ولكنك تعرف أن الوقوف ضده انتحار!!

- ما زال في إمكانك الانسحاب يا أيوب.

- لقد أخبرتك من قبل بأن الرجل الأسود لا يتخلى عن صديقه..

- لماذا أقرأ في وجهك الخوف إذا؟!

- لست خائفًا ولكنني أريد أن أعرف ما تفكر به يا بحر..

- سنذهب غربًا نحو سلسلة الجبال المحرمة لطلب المساعدة

سأل بدهشة: تقصد قبائل الأشاوس؟!

- أميرتهم تدين لي ولك بمعروف كبير وهي الوحيدة التي تستطيع

الوقوف معنا..

وهكذا امتطى بحر وصديقه أيوب صهوتي جواديهما واتجها غربًا

لآخر حدود المملكة حيث سلسلة الجبال المحرمة والتي يغرب خلفها

نجم شمس أباييل، ذهبا ليطلبا المساعدة من آشاس - أميرة قبائل

الأشاوس - لتشارك معهما في الحرب القادمة، من غير أن يتوقع أحد

منهما نوع المفاجأة التي تنتظرهما بالطريق.

عندما زال أثر الضربة التي تلقاها الطفل على رأسه وفتح عينيه

وجد نفسه ممددًا في ساحة البيت، وكان أول شيء قد فعله هو أن

دخل الغرفة التي تنام فيها والدته، وعندما لم يجدها شعر بالفرح

معتقدًا أنها أصبحت بخير وأنها استطاعت أخيرًا أن تنهض من

فراشها:

- أمي - راح الطفل يناديها - أمي؟!

وعندما لم يعثر عليها عرف أنه كان مخطئًا في اعتقاده وأنها ليست بخير وأن هناك أمرًا كبيرًا قد حدث لكنه لا يعرف بالضبط ما هو.. فتح باب البيت وراح يفتش عنها في الخارج.. ورغم أن الوقت كان ظهرًا إلا أن قرية الجساسة بدت خالية من الناس على غير العادة.

ثم وبينما هو يفتش عنها إذ عثر عن طريق المصادفة على تلك العجوز التي يُطلق عليها أهالي القرية لقب ذات الطائر الأحمر، بدا صوتها حزينًا وهي تفتح له ذراعيها وتهمس:

- لا تقلق منذ هذا اليوم وصاعدًا سأكون معك.

ركض نحوها ولكن ليس ليحتضنها بل ليضربها بفردة حذائه.. ولكنه قبل أن يتمكن من الوصول إليها شعر بشيء حاد يشبه كماشة حديدية أمسكته من عند ظهره ورفعته عاليًا، لقد حمله طائر العنقاء بمخالبه وطار به متجهًا نحو المقابر.

عندما وصل به الطائر ل هناك تركه يسقط من بين مخالبه ثم استدار في الهواء وحلق بجناحيه مبتعدًا، لم يتألم الطفل كثيرًا عندما ارتطم بالأرض بل نهض بسرعة ليقذف الطائر بالحذاء ولكنه لم يفعل.. ليس لأن طائر العنقاء كان قد اختفى عن مجال الرؤية فقط، بل لأن الطفل شاهد أمامه منظرًا جعله يتجمد مكانه.. كان هناك عدد كبير من الرجال يسرون نحو مكان واحد، يحملون فوق أكتافهم شيئًا خشبيًا يشبه السرير، يتمدد عليه جسد لا يتحرك مغطى بقماش أسود وتفوح منه وبقوة رائحة الياسمين:

- أمي - قالها وهو يحدق نحو التابوت.

- أمي - قالها بصوت خافت كما لو أنه يوقظ شخصًا نائمًا.

- أمي - قالها للمرة الثالثة ثم بكى.

لم تترك له رائحة الياسمين مجالًا للشك في أن ذلك الشيء الذي كان أولئك الرجال يحملونه فوق أكتافهم ليس إلا جسد والدته جومانًا، لقد اعتقد للحظة أنهم يسرقونها منه لهذا فإنه راح مثل فارس من المغول يهاجم بكل شراسة: نطح أجسادهم الصلبة برأسه، عض بأسنانه سيقانهم المتعركة والتي كان لها طعم الخل والغبار والشعر، تمدد أمامهم ليعيق تقدمهم لكن شيئًا من تلك المحاولات لم ينجح.. لذلك فكر في طريقة أخرى لإيقافهم، وبينما هو يحاول إيجاد الطريقة المناسبة إذ ضرب بحذائه عن طريق المصادفة عانة أحد الرجال.. فسقط ذلك الرجل أمامه صريعًا لا يستطيع أخذ أنفاسه، وهذا ما جعل الطفل يمسح دموعه بكم ثيابه ويبتسم.. لقد عرف الطريقة!!

في وقت قصير جدًا استطاع أن يسقط خمسة عشر رجلًا بتكراره الضرب في تلك المنطقة الحساسة، وحين أصبح وجوده عائقًا حقيقيًا أمام موكب الدفن فإنهم وضعوا الجثة جانبًا وراحوا يطاردونه وكل واحد منهم يضع يده أسفل حزام بطنه حتى يحمي بها نفسه من الضربات الغادرة.. ألقوا عليه القبض بعد نصف ساعة من الملاحقة المتواصلة، ثم ولكي لا يثير وجوده عائقًا أمامهم مرة أخرى فقد تبرع خمسة من الرجال بتقييد أطرافه إلى أن ينتهي الباقيون من دفن الجثة.

وبينما هو مقيد الأطراف يراقب الرجال وهم يقومون بدفن أمه،

إذ حدث شيء غريب معه حيث اختفى ضجيج الأصوات فجأة من حوله، وسمع صوتًا واحدًا فقط يتردد في الأرجاء وكأنه قادم من خلف السحاب إنه صوت والدته جومانا وهي تقول:

«لا تبكي يا صغيري ربما سأغيب عنك الآن، لكننا سنلتقي في السماء يومًا.. اتفقنا؟!»

ثم اختفى صوتها وعاد ضجيج أصوات الرجال إلى أذنه.. كان يراقبهم بخيبة أمل وهم يهلّون التراب عليها، وكان يستطيع في تلك اللحظة أن يشعر بكل حبة رمل وهي تحط فوق جسدها كما لو أنهم كانوا يدفنونه هو حيًا.. ورغم الغبار المتطاير والذي يصل عينيه مع الهواء، إلا أن عينيه ظلتا مفتوحتين طوال الوقت ولم يرمش بهما ولو لمرة واحدة.

وحين أصبحت أمه تحت التراب تمامًا، ولم يعد الرجال يقلقون من إزعاجه لهم فإنهم حرروا أطرافه، لكنه لم يتحرك.. وكل ما فعله هو أن صرخ باتجاه القبر:

- لا، لم نتفق!!

الصدمة القاسية التي تلقاها والحزن والوحدة وسطوة الشمس الحارقة، ربما تلك هي الأشياء التي جعلته يسقط في مكانه مغشيًا عليه ذهبت جومانا إذا ولم يعد لديه ملجأ آمن يأوي إليه، لقد كبر ألف سنة في لحظة واحدة ذلك أن كل الأبناء يشيخون فجأة في اللحظة التي يفقدون فيها أمهاتهم..

غادر جميع الرجال أرض المقبرة وعاد كل واحد منهم لاستكمال عمله، ولم ينتبه أحد منهم إلى الطفل عندما سقط على وجهه فاقدًا الوعي متأثرًا بخسارته الفادحة.. وحدها تلك اليد الممتلئة بعروق كثيرة هي من امتدت نحوه ثم حملته وسارت به بعيدًا..

صعدت تاج إلى عربتها الخشبية بينما حفيدها فاقدًا الوعي بين يديها:

أعطت أمرًا لسابح: خذنا إلى القلعة..

سهل الحصان الأبيض بصوت عالٍ ثم انطلق يلاحق الريح مخلفًا وراءه عواصف من الغبار لا تنتهي، قالت تحدث طائرها الأحمر الذي كان يحلق قريبًا من العربة:

- سوف نهتم بهذا الولد لبعض الوقت يا إكليل، سوف نهتم به إلى أن يصبح قويًا، فهو لا يمكنه مواصلة الحياة من غير مساعدتنا.

أطلق طائر العنقاء إكليل زئيرًا عاليًا فقالت تاج:

- كنت أعرف أنك ستقول ذلك..

وهكذا أخذته إلى القلعة صعدت به للطابق الثاني حيث غرفتها، نزعته عنه ثيابه قطعة قطعة حتى أصبح عاريًا أمامها.. مددته فوق سريرها الواسع، وجعلت تتأمل لبعض الوقت ملامحه الحادة والناعمة والقريبة جدًا من ملامح وجه أمه، وحين فرغت من تأملاتها تلك قالت تكلم إكليل الذي كان يقف على إفريز النافذة وقد ثار حنينها:

- لم تستمع جوماننا إلى نصيحتي - وأضافت بخيبة أمل:

- كنت أعرف أن هذا ما سيحدث لها لو أنها بحثت عن الحقيقة.

لم يكن إكليل يعرف ما الذي يدور داخل عقل سيدته في تلك اللحظة، لم يكن يعرف ما هي الخطوة القادمة التي تخطط لها، هل هي تفكر بالانتقام من الأشخاص الذين قتلوا ابنتها، أم أن لديها خطة أخرى:

- ما الذي تخططين لفعله يا سيدتي؟!

تنهدت تاج بصوت مرتفع يبدو أنها هي نفسها لا تعرف:

- سأعد له بعضًا من سائل النسيان أولًا، يجب أن ينسى هذا الولد ولو مؤقتًا كل الأحداث الصعبة التي مر بها..

أيدها إكليل الذي يعرف حاجة الطفل للنسيان خصوصًا هذه الفترة:

- قرار صائب..

- من الجيد أنك توافقي على هذا القرار..

- لم أكن سأوافق لو أنك قررت محو ذاكرته إلى الأبد..

امتدت بينهما لحظات من الصمت شعر فيها إكليل بأن هناك كلامًا عند سيدته ولكنها لا تعرف كيف تقوله.. هو الذي عاش معها طيلة حياته مذ كان فرخًا صغيرًا وحتى اليوم، لن يصعب عليه قراءة التردد الواضح على ملامح وجهها:

- أشعر بأن هناك أمرًا ما تريد سيدتي قوله..

أخذت تاج نفسًا عميقًا ثم قالت:

- هذا الولد مهدد بالخطر كما تعلم....

- سنقوم بحمايته - قاطعها بأدب - سنكون في ظهره دائمًا

- لا تدع منظره الضعيف هذا يخدعك ربما يوحى لك شكله الآن

بأنه في حاجة للمساعدة ولكنه سيكبر غدًا وحينها لن تعجبه فكرة بقائنا الدائم معه.

- ما الذي تفكر سيدتي به؟!

- أفكر برماد العنقاء - قالت بحزم - أريده أن يكون قويًا جدًا.

الذي يعرف إكليل جيدًا يعلم بأنه يميل إلى الصمت في معظم الأحيان وبأنه لا يُصاب بالدهشة حتى من أكبر المفاجآت التي قد تطرأ عليه، ولكن الدهول هذه المرة كان واضحًا جدًا في نبرة صوته وهو يحاول التأكد مما سمعه للتو:

- هل قلت رماد العنقاء؟!

- أريد أن أحرك قوة النار بداخله..

- ولكن ربما تكون النار ليست بداخله أصلًا.

- لقد سمعتها تشتعل في قلبه عندما حملته بين يدي لأول مرة

- لماذا لا تنتظرين لبعض الوقت ريثما تتحسن حالته؟!

- لا أستطيع يا إكليل؛ فأنا أخاف أن يبلغ الولد وعندها تصبح فكرة تحريك النار بداخله مستحيلة - وأضافت بتوتر: يجب أن نشكر الحظ لأنه على الرغم من كونه في نهاية عامه الرابع عشر إلا أنه لم يتجاوز مرحلة البلوغ بعد.

- ولكن الولد فاقد للوعي يا سيدتي - قال بتوتر يشي بخوفه - وربما تقتله قوة النار لو أنها تحركت بداخله ولم يكن جسده مستعدًا لها!!

أجابت ببرود:

- لن أحزن عليه وقتها.. فلا حاجة لي به إن كان لن يصبح قويًا!!

إكليل يعلم بأن فكرة تحريك النار بداخل الطفل لن تكون سهلة أبدًا، إنها عملية خطيرة وحساسة وتتطلب تضحية كبيرة وجهذا شاقًا وبأن نسبة نجاحها ليست مضمونة؛ لذلك يجب عليه أن يحاول صرف نظر سيدته عن الموضوع بأي طريقة:

- لم تكن أمه لتوافقك الرأي لو أنها ما زالت على قيد الحياة.

وهنا انفجرت تاج وهي تقول بصوت غاضب:

- كان يجب عليها أن لا توافق منذ البداية عندما تقدم لها مخلوق الطين الأحمر ذاك للزواج، لكنها قالت بأنها وقعت في حبه.. انظر ماذا فعل بها الحب!! لماذا كان زوجها غائبًا عنها طوال تلك المدة؟! لماذا لم يحميها؟! لأنه ببساطة عاد للعمل مع المنظمة!!

ولأن إكليل يشاطر تاج وقتها كله فإنه يعرف السر - السر وراء اختفاء بحر - ذلك السر الذي خبأته تاج عن ابنتها وهو أن منظمة

الجاثوم هددت بحر بقتل زوجته وطفله في حال أنه لم يعد للعمل معهم؛ فكان مضطرًا للرحيل من أجل سلامة عائلته.

قال إكيليل معاتبًا:

- لماذا لم تخبريها عن الحقيقة؟! لقد كانت جوماننا تستحق أن تعرف بأن غياب زوجها المفاجئ عنها لم يكن إلا من أجل حمايتها وحماية وابتها.. أجابت تاج بندم: كنت أعتقد أنني أحميها بإخفائي الحقيقة عنها، لم أكن أريدها أن تعرف بأنه عاد للعمل رغما عنه مع المنظمة حتى لا يتعلق قلبها به أكثر وتحاول مساعدته، كنت أريد منها أن تهرب بعيدًا عن الخطر وتبدأ حياة جديدة ولكن يبدو أنني لم أفهم الحب جيدًا..

لم يسبق لتاج أن بكت أمام إكيليل في حياتها بل لم يسبق لها إطلاقًا أن بكت أمام أحد من قبل، ليس لأنها لا تملك قلبًا أو عاطفة بل لأنها لم تكن تحب أن ينظر إليها أحد بعين الشفقة.. ولكن هذه المرة لم تتمكن من كبت دموعها، وهي تستعد لرواية القصة التي جمعت جوماننا بزوجها بحر قبل أعوام طويلة جدًا، قالت:

- كانت الجاثوم تفرض على أهالي قرية الجساسة دفع إتاوة كبيرة....

- إتاوة؟! -

- إنها مبلغ ضخم كانوا يقومون بدفعه للمنظمة بداية كل عام جديد من أجل تفادي الوقوع في المشكلات معهم، ولكن الأهالي الذين ضاقوا ذرعًا من هذا الظلم قرروا في أحد الأيام أن يفعلوا شيء آخر

- ماذا فعلوا؟!

- قرروا إرسال وفد من أعيانهم لمقابلة «طاغين» ملك مملكة أبابيل كي يطلبوا منه أن يجد لهم حلاً في مشكلتهم تلك.. كان قصر الملك يقع في جزيرة الأرباب، وكانت الجزيرة ولدوافع أمنية مشددة تقع بعيداً جداً عن جميع المدن والقرى، وقد حصنها طاغين بجيوش جرارة من المقاتلين البشريين المدربين جيداً، ومن الشياطين والمردة والساحرات ضد أي هجوم محتمل فأصبح ذلك المكان حصناً منيعاً يصعب على الأعداء مهما بلغت قوتهم اختراقه.

ذهب أعيان قرية الجشاسة أولاً بقيادة شيخهم «همام» نحو قرية الساحرات حيث الميناء الوحيد الذي تستطيع القوارب الانطلاق منه نحو الجزيرة.. في ذلك اليوم تقدمت إليهم «شواهر» عميدة قرية الساحرات، وهي امرأة عجوز مسنة لديها فم صغير خالٍ من الأسنان كأنها هي بنفسها من قامت بشقه في وجهها بواسطة سكين، وكان لديها أسفل عيناها اليمنى ثؤلول أسود كبير تطل منه أربع حبات شعر طويلة، وتمتلك أنفاً واسع المنخرين للحد الذي كان في استطاعة المرء مع قليل من الإنارة أن يشاهد عقلها من خلاله..

سألتهم شواهر:

- ما هو الأمر الذي تريدون مقابلة جلالة الملك طاغين من أجله؟!

أجابها الشيخ همام بوقار:

- ليجد لنا حلاً مع منظمة الجاثوم

- لا بأس بطلبكم مُجاب تستطيعون الذهاب للقاءه ولكن يجب أن

تنزعوا ملابسكم عن أجسادكم، وتذهبوا لمقابله وأنتم عراة حتى نضمن أنكم لن تخبئوا سلاحاً تحت ثيابكم في الطريق.

رفض أعيان قرية الجساسة ذلك الشرط، خصوصاً أن شيخهم كان معهم فأصرت شواهر قائلة:

- لن تذهبوا لرؤية الملك طاغين إلا وأنتم عراة!!

وعندما رأى الشيخ همام أنه لا مناص من ذلك الشرط فإنه خلع ثيابه عن جسده الهزيل وهو يقول:

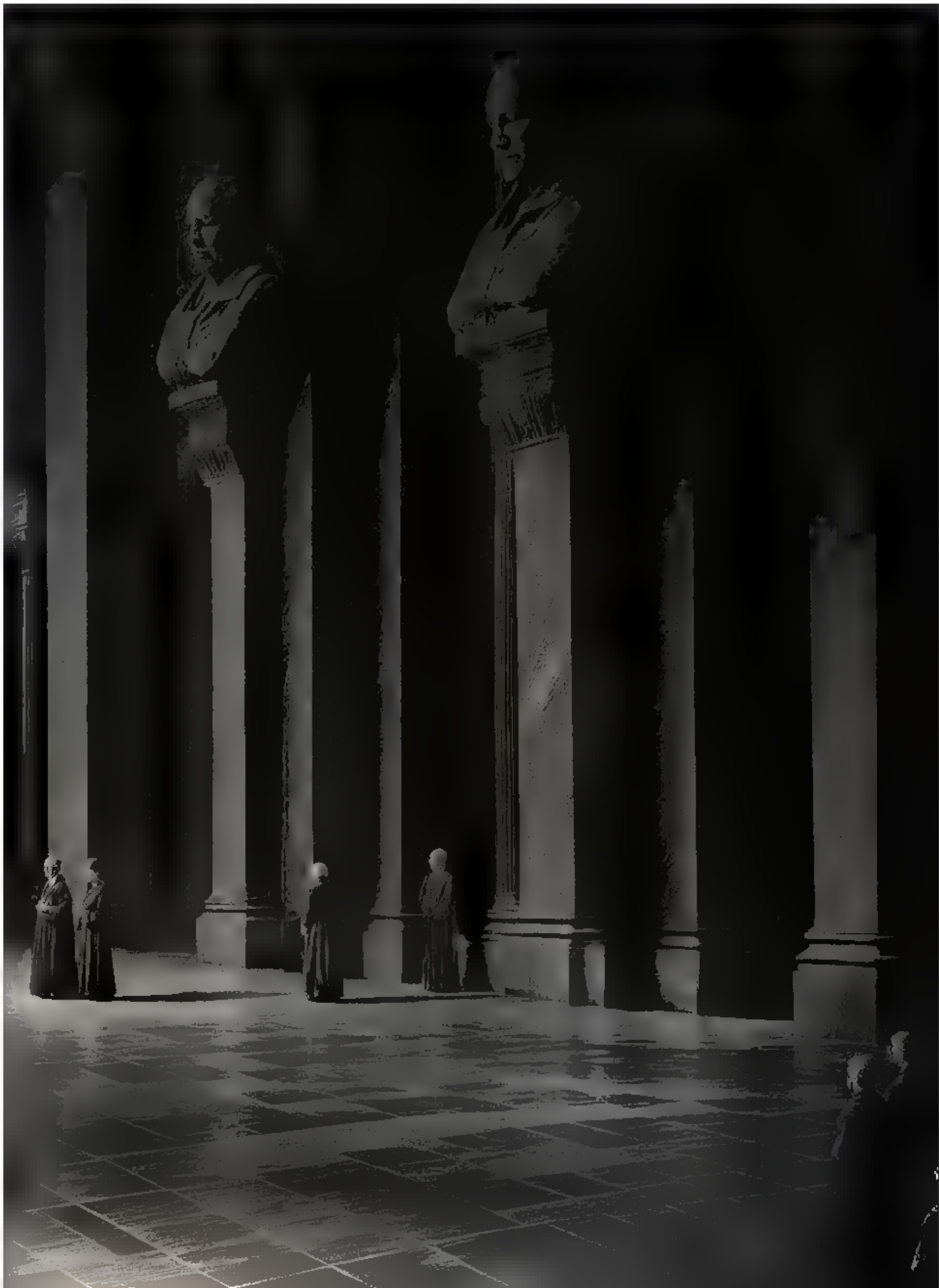
- إن كان هذا هو الثمن لحل موضوعنا فلا بأس في ذلك

ثم فعل الجميع مثله وصعدوا للقارب.

كان يتطلب السفر نحو جزيرة الأرباب ثلاث ليال كاملة على متن قارب خشبي يجلس فيه ستة من الرجال يجدفون بتواصل ومن غير توقف، وعندما وصلوا أخيراً هناك كان يجب عليهم أولاً قبل الوقوف بين يدي الملك، أن يتحمموا فوق الشاطئ من رائحة العرق والشمس والملح العالقة بأجسادهم وأن ينظفوا أفواههم العابقة برائحة القيء..

وما إن أصبحوا بين يدي الملك طاغين حتى ركع أعيان قرية الجساسة له احتراماً وتقديراً، وبعد قليل من الوقت هتف الحاجب عليهم:

- تستطيعون النظر إلى وجه جلالته!!





رفع الجميع رؤوسهم ينظرون نحوه بإجلال وإكبار، طلب الشيخ همام الإذن بالحديث وعندما شمح له قال:

- أيها الملك العظيم أنت تعرف الضائقة التي تمر بها البلاد وتعه....

قاطعته الملك: لم لا توفر على نفسك عناء المقدمات أيها الشيخ

- منظمة الجاثوم جلالتك..

- ما بها؟!

- إنها تضعنا كل بداية عام جديد أمام خيارين.. إما الموت بحد سيوفهم أو الموت بحد الفقر والجوع والعطش، أصبحنا يا مولاي نعمل طوال العام من أجل تأمين الإتاوة لهم، وهذا الأمر لو استمر طويلاً فسيؤدي بنا إلى الفناء!!

كان الملك طاغين ذو العيون الزرقاء الناعسة والوجه الوسيم يطيب له الجلوس فوق عرشه ومراقبة مواطني مملكته وهم يقفون أمامه ويشتكون من سوء حال حياتهم، كان يجد متعة كبيرة في تأمل أشكالهم الضعيفة والهزيلة وكأنه يزداد قوة بذلك الأمر:

- أنتم تعلمون بأن حراسنا منذ فترة طويلة وهم يحاولون الإطاحة بالجاثوم، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك بعد.. ولكنني أريد منك أن تعود لأهالي قريرتك وتخبرهم بأننا سنبدل في الأيام القادمة مزيداً من الجهد للإطاحة بهم!!

حينها تجرأ همام واقترب من العرش وقال:

- لو أنك تأمر ساحراتك لاستطعن الإمساك بهم..

بدأ الغضب يتسلل لقلب طاغين:

- إن الساحرات أيها الشيخ مسخرات لخدمتي أنا وحدي!!

- ولكن يا مولاي ما يضر شعبك يضرك..

وهنا وثب من فوق عرشه:

- لا تشبهني بأحد أنا الرب يا همام!!



انكمش الشيخ على نفسه والتزم الصمت.. هو لا يشعر بالخوف من أن يبطش به طاغين فقد عاش طويلاً ولم تعد فكرة الحياة تغريه مثل السابق كل ما يخشاه في تلك اللحظة هو أن يقرر الملك عدم مساعدة أهالي قريته، فتأتي منظمة الجاثوم بعد أيام ولا تجد معهم الإتاوة وحينها يحل بهم الخراب والدمار:

- أرجوك ساعدنا!!

- فلتساعدوا أنفسكم بأنفسكم

- كيف وقد منعت عنا السلاح؟!

- هذا ليس من شأني!!

- أنت المسؤول عن حماية شعبك.. أنت الملك!!

قال طاغين وقد اشتد به الغضب:

- بل أنا الرب الذي يتولى رعايتكم وأنا حر فيما أفعل!!

وبعد أن عرف همام بأن لا فائدة ثرجى منه فإنه صمت قليلاً ثم قال:

- كلانا يعرف أنك لست الرب

أجاب بعناد:

- استغفروني يا همام - وأضاف رافعاً صوته: أنا ربكم الأوحدا!!

- أنت لست إلا كومة من البراز - قال ذلك ثم استدار منصرفاً.

اشتد الغضب في قلب الملك بسبب الإهانة التي تلقاها من الشيخ

وقرر أن يرد عليه الصفحة بأخرى أشد منها.. فأمر الحرس أن يلقوا القبض عليه وعلى أعيان قريته ويقوموا بإعدامهم جميعًا .. ثم وفي الساحة الخارجية الفسيحة الممتدة أمام قصر مملكة أبايل قام الجلاد بقص رؤوس أعيان قرية الجشاسة واحدًا واحدًا، وعندما جاء الدور على همام فإن طاغين اقترب منه وقال له شيئًا في أذنه بصوت منخفض، ثم أمر الجلاد بقص رأسه، تدحرج رأس الشيخ همام أرضًا وقد بدت ملامح وجهه الميتة وكأنها مصابة بالذهول؛ بسبب ذلك السر الذي استمع إليه قبل أن يفصلوا رأسه عن جسده، وكان هذا ما قاله له طاغين:

- أنا لا أستطيع الوقوف ضد الجاثوم يا همام، ليس لأن حرس مملكة أبايل لم يتمكنوا من الإمساك بهم مثل ما أخبرتك سابقًا، بل لأنني أنا وناب الفيل شخص واحد، أنا هو رئيس منظمة الجاثوم!!

في اليوم التالي ولكي يُخمد الملك طاغين احتمال قيام أي ثورة قد يشنها رجال قرية الجشاسة عليه في المستقبل، فإنه قام بتجهيز سرية كاملة من فرسان المنظمة قوامها ثلاث مئة مقاتل مدججين حتى آخرهم بالدروع والسلاح وأدوات الحرب الثقيلة، وعين عليهم اثنين من أشد فرسانه رعبًا وبطشًا «بحر وأيوب» وأعطاهما أمرًا بقيادة السرية نحو قرية الجشاسة وقتل كل الذكور فيها.. كانت الساعات تمضي ثقيلة على أهالي القرية فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر الأخبار التي سيعود بها الأعيان من قصر الملك، غير أن وقتًا طويلًا كان قد انقضى بدون فائدة.. ثم فجأة وبطريقة غامضة انتشرت شائعات غريبة في كل مكان تقول بأن الملك طاغين قام بقص رؤوس كل أعيان قرية الجشاسة.. حاول عقلاء القرية تكذيب

تلك الشائعات واقترحوا أن ينتظروا لعدة أيام أخرى للتأكد أكثر من صحة الخبر.. ولكن عند فجر اليوم ذاته انقطع الشك باليقين عندما شن ثلاث مئة مقاتل يرفعون رايات الجاثوم، هجوماً ساحقاً ضد أهالي القرية.

حاول رجال الجشاسة الصمود وحماية أنفسهم من ذلك العدوان ولكن المعركة كانت غير متكافئة القوى أبداً.. فقد كان أولئك الثلاث مئة مقاتل يحاربون بالسيوف والرماح ويصدون بدروعهم الحديدية الصلبة، الهجمات المتواضعة التي يشنها عليهم رجال القرية من وقت لآخر بهراوات الخشب البالية.. كان النصر أكيداً للجاثوم وكان ذكور القرية في طريقهم نحو الفناء ولكن شيئاً ما وقع في تلك اللحظات غير سير المعركة تماماً.. حيث قام أحد فرسان المنظمة واسمه «غفران» باختطاف فتاة عزلاء كانت تحاول النجاة بنفسها من الخطر.. أثار صراخ الفتاة الحاد انتباه الجميع فالتفت القائد بحر نحوها، وحين شاهد الرعب في عينيها البندقيتي اللون شعر بالرحمة عليها، وهو الذي لم يكن قد شعر بالرحمة يوماً، قال القائد بحر: - غفران دع الفتاة تذهب

- إنها لي لقد وجدتها أولاً - رد غفران - وسأضمرها لبقية نسائي!!

كانت تلك الفتاة هي جومانا وكانت تستطيع استخدام قواها الخاصة في تلك اللحظة للتخلص من قبضة غفران، ولكن عائلة الأباطرة قد منعت سابقاً أفرادها من استخدام القوة أمام البشر تحت أي ظرف كان، لهذا واحتراماً لقانون العائلة فإن جومانا لم تفعل شيئاً من شأنه أن يلفت الانتباه لحقيقة كونها جنية.. قالت

تحدث القائد بحر:

- اطلب منه أن يتركني.. أرجوك!!

- دعها تذهب عُفران فنحن لم نأتِ لها من أجل سرقة النساء

أغلق عُفران فمها بيده المتسخة بالتراب والدم، حملها فوق ظهر حصانه كغنيمة حرب: «هذا لن يحدث يا بحر سوف أقوم بأخذها!!».. قال ذلك وهو يركل خاصرة حصانه بكعبي قدميه محاولاً الابتعاد بها ولكن بحر التف عليه بسرعة، وقام من غير أي مقدمات وبكل قوة بغرس سيفه في فتحة العين الصغيرة الموجودة بخوذة رأس عُفران الحديدية، لتتخرق ذؤابة السيف حدقة عينه وتخرج من الجهة الخلفية لجمجمته.

خافت جوماننا من منظر الدم وهو يتفجر من رأس ذلك الفارس: «لا تخافي» قال بحر لها ثم حملها بذراع واحدة وأجلسها خلفه على متن الحصان:

- تمسكي بي جيدًا سأخرجك من هنا.

عندما شاهد الفرسان قائدهم يقتل أحد زملائهم من أجل الفتاة، اعتبروها خيانة عظيمة وقرروا فوراً تنفيذ حكم القتل عليه، وهكذا انتقلت المعركة فجأة إلى داخل أعضاء الجاثوم، حيث حاصر الفرسان قائدهم شاهرين سيوفهم ضده قال أحدهم: «أسحرتك هذه الفتاة يا بحر، لتقتل عُفران من أجلها؟!».. بحر يعلم بأن ما فعله للتو يعتبر خيانة وبأنه مهما حاول تبرير فعلته لهم فإنهم لن يقتنعوا بكلامه، هو يدرك أن لا سبيل للفكاك من تلك الورطة التي أدخله فيها

تهوره غير الاشتباك المباشر معهم.

صاح مناديًا: أيوب أين أنت، أحتاج إليك!!

من خلف فرسان منظمة الجاثوم ظهر فارس أسود اللون مهيب أخذ يخرق الصفوف بسيفه ودرعه حتى وقف بجوار صديقه، قال وهو يرى الموت الذي يحيط بهما من جميع الاتجاهات: «المنظر مخيف من هنا»

رد عليه بحر:

- ما زال في إمكانك الانسحاب..

ابتسم أيوب كاشفًا عن أسنان بيضاء بينها سنة واحدة ذهبية اللون وقال:

- الرجل الأسود لا يتخلى عن صديقه..

بدأت المعركة وكان لأيوب وبحر البراعة الكافية والتي تضمن لهما الصمود، ولكنهما ومهما بلغا من الصبر والقوة فإنهما لن يستطيعا المواصلة لآخر المعركة.. حيث بدأ الصديقان بعد فترة طويلة من الكر والفر يشعران بالتعب والإرهاق:

قال بحر لاهثًا وهو يواصل القتال:

- يبدو أن نهايتنا اقتربت يا أيوب آسف ما كان يجب علي أن أشركك في هذا الأمر!!

- لا عليك.. سيكون من دواعي سروري أن أرافك نحو الجحيم..

وفي أثناء المعركة تعرض بحر لسهم غادر اخترق فخذه الأيمن

قاطعًا شريانہ الفخذي مما تسبب له في خسارة الكثير من الدماء؛ الأمر الذي جعل قوته الدفاعية تنهار بشكل سريع، فقال يحادث صديقه أيوب عندما بدأ يشعر باقتراب الهزيمة:

- خذ الفتاة واهرب بها وأنا سأعطي ظهرك ريثما تبتعد..

- بل سنبقى معًا حتى النهاية!!

- اسمع كلامي!!

- لا، لن أتركك!!

بدأ بحر تدريجيًا يفقد تركيزه ووعيه بالأشياء من حوله نتيجة لكمية الدم الكبيرة التي فقدها من جسده.. وعندما انتبهت جومانا إلى هذا وشاهدت بعينيها مقدار التضحية التي بذلها ذلك القائد من أجلها، فإنها قررت كسر قانون عائلة الأباطرة واستخدام قوتها الخاصة في إنقاذ الموقف.. توهجت عيناها بلون أحمر مُشع ثم أمسكت بيدها ثياب بحر الذي فقد أخيرًا وعيه، وصرخت تخاطب أيوب وهي تمد يدها الأخرى نحوه: «أنت أمسك يدي!!»..

لم يفهم أيوب ذلك الطلب الغريب الذي تطلبه منه تلك الفتاة وهو يجابه وحده الهجوم الشرس الذي يشنه فرسان منظمة الجاثوم عليه وعلى صديقه الفاقد للوعي.. كانت يد جومانا ممدودة نحو أيوب تنتظر منه فقط أن يمد يده لإمساكها، صرخت مرة أخرى في وجهه: «ثق بي أمسك يدي!!»

فعل أخيرًا مثل ما طلبت منه.. مد يده نحو يدها الممدودة وما أن أمسك بها حتى اختفى ثلاثتهم من وسط المعركة ليجد أيوب نفسه

بعد لحظات وقد انتقل مع صديقه وتلك الفتاة لمكان آخر.. سأل برعب:

- كيف فعلتِ ذلك؟!

- سأشرح لك لاحقًا - ثم صاحت بتوتر وهي تسد بيدها جرح بحر النازف - يجب أن ننقذه بسرعة لقد فقد الكثير من الدماء..

توقفت تاج عن الكلام كما لو أن الحديث عن الماضي بات يزعجها:
 - لقد قلت لها بأن الحب هو التوأم اللطيف للموت لكن الشباب
 كعادتهم لا يقتنعون إلا بعد فوات الأوان.

- هذا يعني أن أيوب كان يعرف سر جوماننا منذ البداية؟!
 - نعم وهي التي طلبت منه أن يحتفظ بالسر لنفسه، وأن لا يخبر به
 أحداً حتى صديقه بحر.

- وهل استطاع فرسان المنظمة لاحقاً قتل ذكور قرية الجساسة؟!
 أخذت تاج نفساً عميقاً ثم قالت:

- عندما عرفت عائلة الأباطرة أن ابنتهم تورطت في ذلك النزاع
 انطلقوا للمعركة لإنقاذها ولكن عندما وصلوا إلى هناك ولم يعثروا
 عليها ظنوا أنها ماتت أو أن مكروهاً قد أصابها؛ فقاموا بقتل جميع
 فرسان الجاثوم.. ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا لم تتجرأ المنظمة
 على إرسال قواتها لقرية الجساسة مرة أخرى.

- وكيف وقع بحر وجوماننا في الحب لاحقاً؟!

- ليس هذا هو المهم - قالت تتهرب من الإجابة - المهم هو أنني
 أريد أن أجعل هذا الولد أقوى.

- ولكنك تعرفين أننا قد...

ثم صمت إكليل كما لو أنه يفكر في انتقاء الكلمة المناسبة ليكمل

بها جملته، وعندما فكر لبعض الوقت وخانته كل التعابير ولم يعد يعرف ماذا يقول، حرك ذيله الطويل الأشبه بذيل طاووس وقال:

- أنت تعلمين ما الذي أريد قوله.

- أعرف ولكنني تقدمت في العمر - قالت - على كل حال ويجب أن يصبح لك سيد آخر - ثم أضافت مازحة: حتى لا تجد نفسك ميتًا معي في يوم من الأيام.

- شرف العنقاء أن يموت مع سيده.

لا تستطيع تاج تحضير رماد العنقاء إلا بطريقة واحدة وهي: أن تقوم بإحراق طائرها إكليل ثم تأخذ الرماد المتبقي من جسده المحترق وتغطي به جسد حفيدها - وهنا تكمن الخطورة - فإذا استطاع جسد الطفل أن يمتص ذلك الرماد تكون تاج قد نجحت في تحريك النار بداخله ...

وفي حال لم يتمكن جسده من امتصاص الرماد يكون ذلك معناه أن التجربة فشلت وأنه في طريقه للموت .. تتم طائر العنقاء إكليل قائلاً:

- لم يسبق أن رفضت لك أمراً، ولن أرفض لك هذا الطلب.

وكنوع من الوداع اقتربت منه سيدته، ففتح لها جناحيه وعانقها:

- لقد كانت أياماً رائعة أليس كذلك؟!

أجاب بمبات، ولكنها تعلم بأن داخله منكسر:

- بالتأكيد كانت كذلك - وأردف متسائلاً: أكان إكليل خادماً مطيعاً

يا سيدتي؟!

- بل صديقًا وفياً؛ وهذا ما يجعل فراقه أمراً صعباً.

- ماذا سوف تسمين الفرخ الجديد؟!

ابتسمت له بحنان وهي توشوشه في أذنه كأنها تخبره بسر:

- الفرخ الذي سوف يولد من رمادك سيكون اسمه إكليل؛ حتى أذكرك كل ما نظرت إليه أو ناداه أمامي أحد..

ثم لكي لا يجعل الوداع أكثر صعوبة مما هو عليه؛ فإنه لم يدع ذلك العناق يمتد طويلاً وحلّق من النافذة مبتعداً وهو يقول: سوف أجمع الحطب من الغابة وأنتظرك أمام القلعة يا سيدتي

- وأنا سأنتهي من إعداد سائل النسيان للولد ثم ألحق بك...

هبطت إلى المطبخ تناولت قدراً حديدياً متوسط الحجم وضعت في جوفه سائلاً لزج لونه أحمر وله كثافة العسل، ثم خلطت معه بعض الزهور السوداء.. أشعلت ناراً هادئة تحت القدر وانتظرت قليلاً إلى أن بدأ الدخان في التصاعد .. أخرجت بعد ذلك عصاً خشبية وبدأت تحرك بها السائل بشكل دائري وهي تردد تعويذة النسيان:

«ينسى ينسى يا نار يا زهرة سوداء يا سائل أحمر للنسيان..

اجعلوا ابن جوماننا ينسى فلا شيء يُشفى جروح القلب غير الموت
أو النسيان»..

ولم تتوقف عن التحريك إلا بعد أن أصبح لون السائل خمري داكن مثل لون نبيذ عنب معتق .. غمست طرف أصبعها في السائل

الساخن ثم لعقته بطرف لسانها كأم تختبر كمية الملح في الطعام:

- مُر - قالت - ولكنه سيجعل جروحه تفر.

في الطابق الثاني من القلعة وفي الغرفة الواسعة ذات الشبابيك الطويلة المفتوحة والتي ينفذ منها الهواء وأشعة الشمس، اقتربت تاج من السرير تحمل في يدها شراب النسيان.. جلست بالقرب من حفيدها الذي كان لا يزال فاقداً للوعي، أسندت بيدها ظهره ثم قربت الكأس من عند فمه باليد الأخرى:

- اشرب - تمتمت - هذا سيجعلك تنسى.

وحين انتهت من دفع سائل النسيان إلى جوفه مددته مرة أخرى فوق السرير بشكل مستقيم ثم أحكمت الغطاء على جسده، تحركت بعد ذلك نحو النافذة وألقت نظرة على الساحة الأمامية للقلعة، فوجدت إكليل ينتظرها في الخارج وقد جمع حوله الكثير من أحطاب الغابة.

لم تكن تاج تريد أن تكبد نفسها مزيداً من الحزن على فراق طائرهما، ربما لذلك لم تتكلم معه عندما هبطت إليه بل جعلت بصمت تشكل الأحطاب فوق الأرض بشكل هندسي استعداداً للمحرقة القادمة وعندما انتهت قالت:

- دعنا ننتهي من هذا الأمر سريعاً

حرك إكليل جناحيه ليقفز فوق الأحطاب .. ثم نظر نحوها فقالت بنبرة صارمة تعطيه إشارة البدء: «هيا.. ابدأ»

بدأ وجهه يصبح أكثر جدية من أي وقت مضى، اصطبغت عيناه باللون الأحمر ثم فجأة أطلق زئيرًا مخيفًا حتى إن تاج - وهي التي لا تخاف شيئًا - شعرت بالخوف في تلك اللحظة، ثم فتح إكليل منقاره فخرج منه لهب حارق أشعل به الأحطاب الكثيرة التي يقف فوقها .. ولم يمض الكثير من الوقت حتى قامت تلك النار بالتهامه كليًا.

من الصعب أن نصف مشاعر تاج وهي تشاهد صديقها الوفي يحترق أمام عينيها، ولكننا لا نستطيع أن نقول أبدًا بأنها شعرت بالندم لاتخاذها ذلك القرار إذ إنها تدرك بأن الهدف الذي ترغب في تحقيقه من وراء ذلك الفعل، يستحق منها كل تلك التضحية..

عندما انطفأ الحريق وتحول إكليل أخيرًا إلى رماد كان يجب عليها أن تتحرك سريعًا لتنفيذ الجزء الآخر من خطتها .. اتجهت نحو ذلك الرماد حركته بيديها وكأنها تفتش عن شيء ما تحته وعندما وجدت ما تبحث عنه ابتسمت .. كان فرخًا صغيرًا بحجم قبضة الكف له ريش كثيف برتقالي اللون ناعم، ويملك عيين مذعورتين تشبهان عيني أرنب خائف ولديه منقار صغير معقوف ويملك قدمين هزيلتين في كل واحدة منهما خمسة مخالب ضعيفة.. ومن كان سيشاهد فرخ طائر العنقاء الصغير ذاك والذي وُلد مرة أخرى من رماده لن يأتي في باله أبدًا أن ذلك المخلوق اللطيف سوف يصبح سلاحًا قاتلًا وفتاكًا عندما يكبر، قالت وهي تنظر إليه بحنو:

- مرحبًا يا أنت..

كان فرخ طائر العنقاء ينظر إليها بتعجب؛ إنه لا يعرف أي شيء عن

هذه المرأة العجوز ولا يعرف من تكون ولماذا هي تحقق فيه بهذه الطريقة الغريبة، أرادت تاج أن تربت على ريشه الناعم وتحمله بلطف بين يديها لكنها لم تفعل؛ لأنها كانت تخاف أن يتعلق بها الفرخ حينها معتقداً أنها سيده الجديدة .. جمعت بيديها كل الرماد ثم سارت به نحو القلعة، وعندما نظرت للوراء وجدت الفرخ باقياً في مكانه يحقق بها لا يعرف ماذا يصنع فصاحت عليه:

- اتبعني أيها الفرخ!!

صعدت إلى حيث كان حفيدها لا يزال ممدداً فوق السرير أزالته من عليه اللحاف وبدأت تغطيه بالرماد، وقد حرصت على أن لا تترك بوصة واحدة في جسده إلا وتتأكد من أن الرماد يغطيها باستثناء المنطقة الصغيرة عند فتحتي أنفه؛ وذلك حتى يكون في مقدوره أن يتنفس .. وعندما انتهت أخيراً من تغطية جسده غادرت الغرفة تاركة خلفها الفرخ وحده مع الطفل: إنها بتلك الطريقة تدرك بأن الرماد سوف يكون كفيلاً بأن يحرك قوة النار الراكدة داخل حفيدها، وأن المدة الطويلة التي سيقضيها الاثنان معا سوف تكون كافية لكي يتعرف فيها فرخ طائر العنقاء على سيده الجديد..

في اليوم التالي:

فتحت تاج باب الغرفة بقلق وهي تحبس أنفاسها من الخوف أطلت برأسها لتلقي نظرة على جسد الطفل وعندما لم تجد أثراً من الرماد عليه تنفست الصعداء ومسحت بإصبعها دمعتي فرح

هبطتا على خديها، لقد استجاب جسده لرماد العنقاء وأصبحت قوة النار في طريقها للتحرك بداخله وما هي إلا أيام قليلة ويكون بعدها مستعدًا لتلقي التدريبات التي ستجعل منه جنيا قويا .. ولكن سعادتها لم تكتمل إذ إنها تنبعت للتو إلى أن هناك مشكلة كبيرة تواجهها، وهي أن حفيدها لا يزال نائما منذ اللحظة التي أخذته فيها من المقبرة وإلى هذه اللحظة؛ لذلك كان يجب عليها أن تأخذه لحكيم القرية حتى يرى ما به ويحاول معالجته.. مدت يدها نحوه لتحمله ولكنها ما كادت أن تفعل ذلك حتى وقعت لها مشكلة أخرى .. لقد ظهر لها فجأة فرخ طائر العنقاء من أسفل السرير وقام بالهجوم عليها .. عضها في يدها مستخدما منقاره الصغير وحاول أن ينشب مخالبه في جسدها حتى يمنعها من لمس الطفل، وبسبب هجومه المتهور ذاك كسر عن طريق الخطأ أحد مخالبه؛ إنه الآن يقوم بالدفاع عن الطفل .. كيف غاب ذلك عن بالها؟! لن يكون من السهل عليها إقناع ذلك الفرخ العنيد بأنها لا تريد أن تؤذي سيده الجديد.

هي تعلم بأنه لا يزال ضعيفا وبأنها تستطيع التغلب عليه بكل سهولة، لكنها تعلم أيضا أن العنقاء لا تنسى ولا تغفر وبأن لها من الكرامة ما يجعلها تعود مهما طال الزمان للانتقام من كل شخص حاول في يوم ما أذيتها؛ لذلك قالت تقنعه:

- سيدك بحاجة لرعاية طبية.

لم يثق الفرخ بها؛ فواصلت اقناعه:

- انظر إليه إنه لا يتحرك، سأخذه فقط إلى الحكيم...

وعندما بدا شكله أنه لا يزال غير مقتنع بكلامها فإنها قالت:

- تستطيع أن تأتي معنا لتتأكد بنفسك - وأضافت بصوت جاد:

- ثق بي لن أسمح لأحد بالقيام بأذيته، أعدك.

أمام منزل صغير يقف عند زاوية الطريق، توقفت العربة الخشبية التي يجرها سابع بعد رحلة استغرقت الكثير من الوقت .. هبطت تاج من العربة تحمل حفيدها بين يديها بسهولة رغم ثقل وزنه، يتبعها فرخ طائر العنقاء الذي بدا قلقًا ومتوترًا من أمر هذه الزيارة، وما كادت أن تطرق باب المنزل حتى جاءها الصوت الساخط من الداخل:

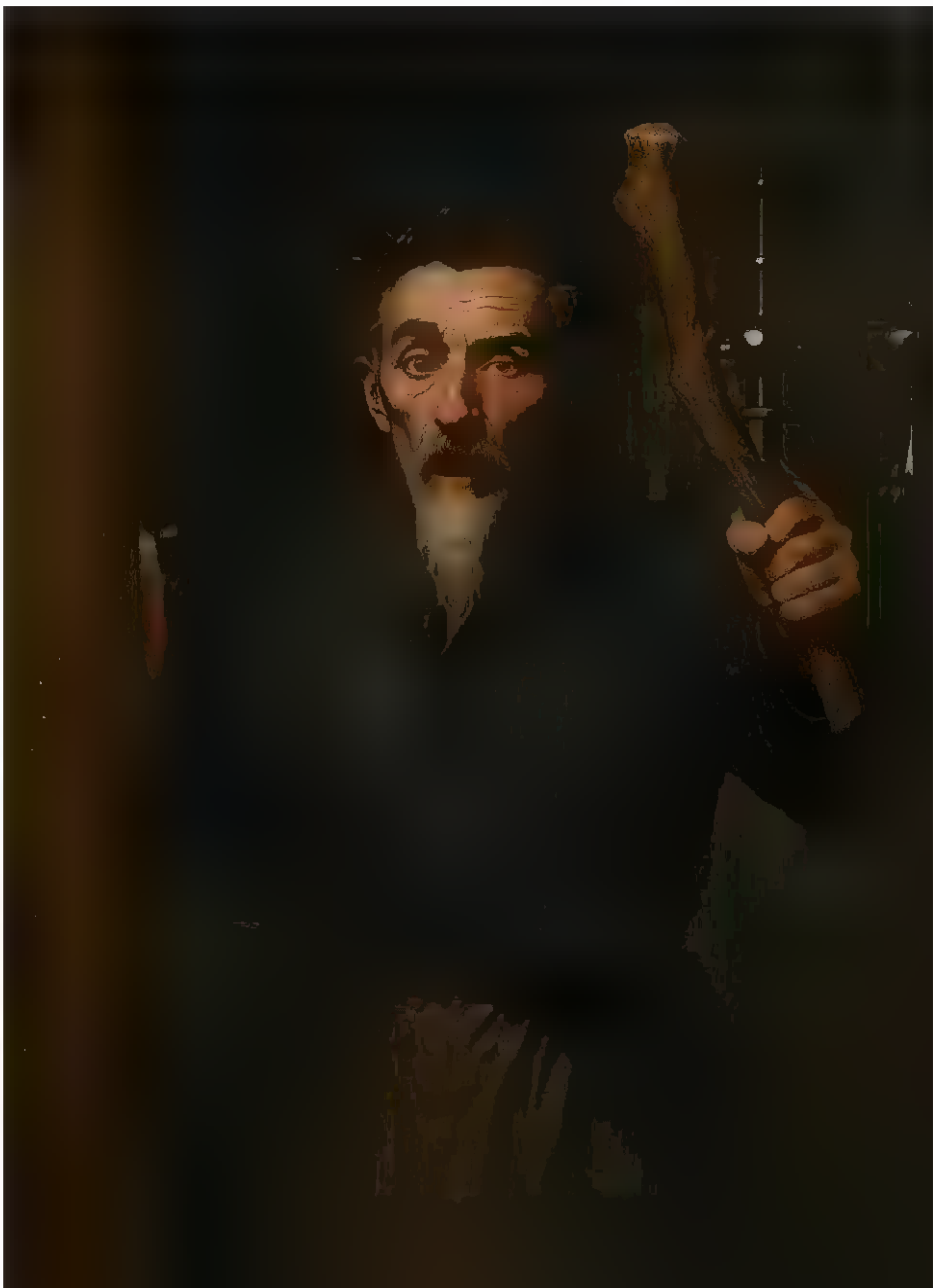
- من هذا الحيوان الذي يطرق الباب بهذا الوقت؟! ألا يستطيع الإنسان أن يرتاح قليلًا في هذه القرية الغريبة!!

عندما فتح الحكيم الباب وشاهد من كان يقف أمامه شعر بفداحة الورطة التي أوقعه فيها لسانه الطويل:

- ذات الطائر الأحمر - قال مرتبًا - أعتذر لم أكن أعرف أنه أنتِ

لم تتكلم وظلت تحقق فيه لبعض الوقت باستياء فقال:

- إن كان هناك حيوان فإنه أنا، كيف أخدمك؟!



قالت تاج: هذا الولد...

- ما به؟!

- اجعله يستيقظ!!

اقترب الحكيم ليلقي عليه نظرة فاستطاع أنفه أن يلتقط رائحة
الرماد:

- يا للسماء ما هو سر هذه الرائحة الكريهة في جسده؟!

- لقد دهنته بشيء خاص

ما اسم هذا الشيء الخاص - قال الحكيم بتقزز - براز؟!

- سأقص لسانك الطويل هذا يا حكيم النحس!!

متجاهلاً ذلك التهديد ألقى الحكيم عليه نظرة ثانية وقال بخبث:

- هل أنت مهتمة بسلامته كثيراً؟!

- نعم

- دعينا إذا نعقد صفقة

- أي نوع من الصفقات؟!

- لقد بذلت في السابق جهدًا كبيرًا مع هذا المتهور دون مقابل.

سألت بنفاد صبر: كم تريد من المال؟!

- سأكون أبلها لو أنني أطلب مالا من جنية مثلك

- أنت أبله في كل حالاتك، ما الذي تريده؟

- أخبريني أنت ما الذي تستطيعين دفعه لي؟!

- سأحقق لك أمنية واحدة - ثم أردفت: هل هذا يكفيك؟!

ابتسم وهو يفسح لها مجالاً للعبور: أدخليه دعينا نرى ما به

صاح فرخ طائر العنقاء محتجاً فسأل الحكيم وقد انتبه إليه للتو:

- ما خطب طائر البرتقالة هذا؟!

- إنه غاضب لأنك دعوتني للدخول ولم تقم بدعوته

- أوه آسف لم أنتبه، تفضل بالدخول أنت أيضاً...

كان فرخ طائر العنقاء يقف قريباً منهما يراقب بتركيز كل حركة يقوم بها الحكيم أما تاج فقد كانت تشعر بالقلق؛ إنها ليست واثقة مما فعلته بحفيدها تخاف من أن تكون قد استعجلت في إعطائه سائل النسيان، أو أن رماد العنقاء قد تسبب في إلحاق الضرر بوظائف جسده الحيوية، قام الحكيم بتمديده على السرير الذي يعالج فيه مرضاه:

- سأبدأ بفحص العين أولاً ، إنها نافذة الجسد الرئيسة وم....

- تباً لك ولكلامك الكثير الذي لا ينتهي يا حكيم النحس - قاطعته

بغضب، ثم أمرته قائلة:

- ابدأ بفحص الصغير بسرعة!!

رفع الحكيم إصبعاً مرتجفاً في وجهها وقال بنبرة باكية:

- بهذا الأسلوب لن أستطيع الكشف عن حالة الصبي بطريقة صحيحة وهذا سوف يكون بسببك أنتِ - ثم ولأنه كان يريد أن يشتم أحداً وهو يعرف أنه لا يتجرأ على توجيه الشتيمة لتاج فإنه حوّل إشارة إصبعه نحو الفرخ وقال:

- وبسبب تلك النظرات الغريبة لهذا الطائر المعتوه!!

اعترض فرخ طائر العنقاء بإطلاقه صوتاً يحمل نبرة استفهامية كما لو كان يريد أن يقول بأنه لم يفعل شيئاً سيئاً ليستحق ذلك التوبيخ.. ف قالت له تاج تعتذر:

- لا لم يكن يقصد أن يسيء إليك، كل ما في الأمر هو أن هذا الحكيم يمتلك لساناً طويلاً وهو يحتاج من وقت لآخر أن يمدّه قليلاً خارج فمه...

كاد الحكيم أن يقول شيئاً سيئاً، أدركت تاج - الكلام القبيح الذي كان سينطق به - فأمسكت لسانه بيدها وقالت بغضب

- واصل فحص الولد حتى لا أقصه لك!!

- حننا ، لا بأث.. تأفعل، تأفعل...

- جيد - قالت تاج ثم أضافت وهي تبعد يدها عنه - ابدأ.

بدأ بفحص العين اليمنى أولاً ثم انتقل لفحص العين الأخرى، ولكنه ما كاد أن يفتح الجفن الأيسر لعين الطفل حتى أصابته الدهشة:

- يا للسماء!!

- ما الأمر؟!

- عينه اليسرى تصدر وهجاً لونه أحمر!!

لم تكثرث لما قاله الحكيم لأنها تعلم بأن السبب الحقيقي وراء الوهج الأحمر في عينه هو إشارة للنار التي بدأت تتحرك داخله، قالت:

- دعك من هذا الأمر وابدأ في علاجه...

رد الحكيم مازحاً وهو يحاول التقرب منها بالدعابة:

- لم لا تنفذين عليه بعضاً من تعاويذك؟! أم أنك أصبحت كبيرة في السن على مثل هذه الأشياء؟!

- أتريد مني أن أقوم بتحويلك إلى ضفدع حتى ترى بعينيك مدى قوتي يا حكيم النحس؟!

- أمزح!!

- هذا ليس وقتاً مناسباً للمزاح أيها الأحمق!!

نظر الحكيم نحو الفرخ ليشتمه ولكن تاج حدست ذلك فمنعته:

- إياك أن تشتمه - ثم أشارت نحو حفيدها وقالت:

- افحص الولد بسرعة

جلب الحكيم ربطة أعشاب مقوية وأخرج من أحد الجوارير ورقة صفراء صغيرة الحجم مطوية كان مكتوباً عليها بالزعفران وبخط دقيق جدًا بعض الآيات التي جاء ذكرها في أحد الكتب السماوية.. وضع تلك الورقة مع الأعشاب داخل طبق فخار، أضاف القليل من الماء المغلي ثم قام بخلطها مستخدماً يد نجر خشبية...

تمتم وهو يسقيه من الوصفة: هذا الدواء سوف يجعله يفيق

تساءلت تاج:

- هل هناك احتمال في أن يظل نائمًا لفترة طويلة أيها الحكيم؟!

- لا أعلم - وأضاف: لا بد أن خسارته لأمه كانت أكبر بكثير من أن يستطيع عقله تحملها.

- وماذا في إمكاننا أن نفعل حيال ذلك؟!

- لا شيء غير أن نصلي للسماء من أجله - وأضاف: إنه الآن في عالم آخر ويجب علينا أن ننتظر حتى يجد بنفسه الطريق الصحيح للعودة لعالمنا هذا.

- هل سيطول انتظارنا؟!

- قد يستيقظ بعد لحظات، وقد لا يستيقظ أبدًا ...

بعد ساعات طويلة من الصمت تجرأ الحكيم قائلاً:

- هل هذا الصغير مثل والدته؟!

قالت تاج بتوتر: ماذا تعني بقولك هذا؟!

- أنا أعرف الحقيقة يا ذات الطائر الأحمر، جوماننا لم تكن بشرية

- ما الذي يجعلك تقول كلامًا مثل هذا أيها الحكيم؟!

- لقد أفنيت عمري في هذه المهنة - قال بثقة - كنت هناك حين

مات الكثير من البشر ولم أشاهد في حياتي شيئًا يشبه موت جومانا من قبل لقد كان قلبها متوقفًا عن النبض بينما يشع من عينيها وهج غريب لونه أحمر، يشبه بالضبط الوهج الأحمر الذي يصدر من العين اليسرى لهذا الولد...

- وهل هذا ما جعلك تفترض أنها ليست بشرية؟!

- لقد قرأت عن هذه الظاهرة ذات مرة في أحد الكتب

- ماذا قرأت؟!

- حين يموت الجن تظل أعينهم متوهجة لبعض الوقت بلون أحمر قائم ثم تنطفئ نهائيًا، ولكن الشيء الوحيد الذي لم أفهمه هو أنه كيف لجنية أن تموت بسم بشري؟! صمتت تاج قليلًا تفكر في الخروج من هذه الورطة ولكنها أدركت أخيرًا أنها محاصرة من جميع الاتجاهات وأنها لن تستطيع الكذب على الحكيم الذي كان يبدو بأنه مطلع جيدًا على تلك الأمور فقالت:

- لقد تخلت عن قوتها منذ وقت طويل، منذ اللحظة التي وافقت فيها على الزواج من بحر.

- حتى لو أنها تخلت عن قوتها فإن جسدها لا يزال مكونًا من النار، والجن لا يموتون بسم بشري..

التفتت تاج إليه وقالت بتوتر لم تستطع إخفاءه:

- ما الذي تقصد قوله؟!

- أقصد أن أقول بأن هناك أحدًا من الجن كان له يد في مقتل

جوماننا!!

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تقول بخيبة أمل:

- وبماذا يفيد هذا الكلام؟! لقد ماتت ولن تعود.

- هل هي ابنتك؟!

في لحظة ضعف حركت رأسها معترفة بالسرفسأل الحكيم:

- وهل هذا الولد ينتمي للجن؟!

- إنه مختلف - توقفت عن الكلام قليلًا ثم استطردت قائلة:

- هو ليس بشريًا تمامًا وليس جنئيًا أيضًا، إنه كلاهما في الوقت

نفسه.

- تقصدين أنه هجين؟!

- بالضبط - أجابت - هجين ...

امتدت بينهما لحظة صمت طويلة حتى سأله تاج:

- هل جربت الحب يومًا أيها الحكيم؟!

- مرة واحدة عندما كنت شابًا - وأضاف مداعبًا:

- ولكنني الآن لست مرتبطًا إن كنت تفكرين بالارتباط بي

ابتسمت وهي تقول:

- لا، أنا لست حمقاء لهذا الحد.

- لست حمقاء للوقوع في الحب أم للارتباط بي؟!

- كلاهما - قالت ذلك ثم سألت: لماذا لم تجرب الحب مرة ثانية؟!

- لأن القلوب تصبح فاسدة بعد الفراق ولا تصلح للحب مرة أخرى

تنهدت وهي تحرك رأسها وتقول:

- ربما تكون محقًا ..

- ولكن لماذا سألت إن كنت قد وقعت في الحب من قبل؟!

- كنت أريد أن أعرف هل كان الحب يستحق من جوماننا كل هذه

التضحية أم لا؟!

- نحن الرجال لا نستحق أن يضحي أحد بحياته لأجلنا.

قال ذلك ثم نهض من مكانه ليتفحص الطفل وحين عاد سأل:

- وأنت؟!

- وأنا ماذا؟!

- ألم تجربي الحب يوما؟!

لم تجب عن ذلك السؤال وصمتت طويلاً للحد الذي اعتقد معه

الحكيم أن صمتها ذاك إشارة منها إلى رغبتها بعدم الإجابة، غير أنها

في نهاية المطاف باعدت بين شفيتها وقالت بحياء:

- مرة واحدة وكان منذ زمن طويل.

ولماذا لم تجربي الحب مرة أخرى؟!

- لأن القلوب تصبح فاسدة بعد الفراق ولا تصلح للحب مرة أخرى

ابتسم الحكيم بشرود وقال يسألها:

- ولكن أخبريني من هو سيئ الحظ ذاك الذي وقعت في حبه؟!

- جبار الأباطرة.

فقال الحكيم مدهوشًا:

- ملك أبايل السابق؟!

أومأت له برأسها فقال الحكيم مصعوقًا بذلك الخبر:

- متى؟! أقصد كيف حدث ذلك؟!

قالت وكأن هناك قصة تختبئ خلف نبذة صوتها:

- كان زوجي - ثم أردفت بحزن عميق ولكننا لم نعد مثل الأول...

- لحظة واحدة.. لحظة لكي أستوعب الأمر، هل أنت تاج؟!

همست تاج والتي كان جميع من في القرية لا يعرفون إلا أن اسمها
ذات الطائر الأحمر: نعم أنا هي.

- إذا أنت التي تزوجها الملك جبار قبل زوال حكمه بسنين

قصيرة؟!

انعطف الحديث بينهما لمناطق وعرة لم تكن ترغب الجنية العجوز

في الحديث عنها لذلك قالت بصراحة:

- لا أريد الكلام بهذا الشأن.

صمت الاثنان لبعض الوقت حتى ابتسم الحكيم أخيرًا وهو يشير بإصبعه نحو السرير:

- انظري لقد بدأ يستعيد وعيه.

فتح الطفل عينيه ووجد نفسه في غرفة كثيفة عابقة برائحة الأعشاب وبقايا حطب محترق، مضاءة بواسطة شعاع الشمس العابر من خلال الزجاج المتسخ للنافذة، وأول ما شعر به هو ذلك الشيء الدافئ الذي يتحرك عند يده:

- أين أنا - سأل متعجبا ثم نظر نحو الفرخ: وما هذا الشيء؟!

قالت تاج وهي تبتسم وتقترب منه:

- هذا الشيء هو خادمك الخاص واسمه إكليل.

ردد الطفل بهمس خافت: إكليل؟!

حرك الفرخ جناحيه وذيله الصغير ورأسه في آن واحد وبدأ كما لو أنه يريد أن يطير من شدة الفرح، فقالت تاج: إنه سعيد بعودتك...

- عودتي؟!

تدخل الحكيم بصوت مرح يشبه صوت رجل يلقي نخبًا:

- لقد أقلقتنا عليك أيها الولد الأبله، هل عرفتني؟! أنا الذي جاء معك في الليلة الماطرة تلك من أجل

- أيها الحكيم - قالت تاج وهي تلكزه بكوعها كما لو أنها تخاف أن تدعه يتكلم فيتذكر حفيدها كل شيء - نحن لا نريد أن نتعبه بأشياء لن تفيده ...

نظر الطفل بغرابة نحو الحكيم لبعض الوقت ثم قال:

لا لم أعرفك.. من أنت؟!

صعد الطفل إلى العربة أولاً وفوق كتفه يستريح فرخ طائر العنقاء
أما تاج فإنها تأخرت عمداً داخل منزل الحكيم لأنها تريد الحديث
معه في أمر هام:

- هل أخبرت أحداً بسر جوماننا ذاك؟!

- أخبرت أيوب وطلبت منه أن يخبر زوجها بالأمر.

لم تقلق تاج فهي تعرف أن أيوب سيحافظ على الوعد الذي قطعه
لجوماننا قديماً ولن يُخبر صديقه بحر بالحقيقة، ولكنها تشك في أن
يستطيع هذا الحكيم العرثار الحفاظ على السر؛ لذلك فإنها فكرت
بجدية في قتله لكي تدفن السر معه:

- أنا أفكر جدياً بقتلك أيها الحكيم.

- وهل بهذه الطريقة تشكرين الذي يقدم لك المساعدة؟!

- هذا هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الإقدام على قتلك - قالت
تاج ذلك ثم أضافت:

- اسمع دعني أتفق معك على أمر ، سأدعك تعيش مقابل أن تحفظ
سر هذا الولد وأن لا تخبر بقصته أحداً هل أنت موافق؟!

قال الحكيم الذي لم يكن يريد أن يموت:

- أعدك بأن لا أخبر أحدا

ثم ولأنها أيضًا لم تكن تريد لبحر أن يعرف بأن ابنه معها فيأتي للمطالبة به قالت:

- ولن تخبر أحداً بأنك رأيت هذا الولد معي - ثم أكدت عليه:

- أي أحد حتى لو كان أبوه.

- ولن أخبر أحداً بأنني رأيته معك، حتى لو كان أبوه.

وقبل أن تنصرف من أمامه أوقفها متسائلاً:

- متى تحققين لي الأمنية؟!

- هل فكرت بواحدة؟!

- بالطبع!!

- ما هي أمنتيك؟!

- أمنيّتي هي أن تحققي لي الكثير من الأمناني!!

قالت قبل أن تغادر: لا تكن سخيّاً لا تستطيع أن تتمنى بهذه الطريقة .. فكر بأمنية واحدة فقط وسأحققها لك

حين وصلوا إلى القلعة ونزلوا من العربة التفت الحصان الأبيض نحو الطفل وهتف:

- أيها الولد حمداً للحظ على سلامتك!!

أما الطفل فإنه التفت لتاج مندهشا:

- إنه يتكلم مثلنا!!

- هو لا يتكلم مثلنا ولكن أنت بطبيعتك تستطيع فهم لغة الحيوانات والتخاطب معهم بها ...

أكثر ما كان يورقه في تلك الفترة هو أنه لا يتذكر شيئاً عن ماضيه أبداً، كانت جميع ذكرياته تبدأ منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه ووجد نفسه فيها ممدداً فوق سرير الحكيم، إنه يعرف بأنه لم يأت للحياة في تلك اللحظة وأنه لا بد من أن تكون لديه حياة أخرى عاشها من قبل .. ولكن الغريب في الأمر هو أنه كلما حاول أن يتذكر شيئاً من ماضيه كان رأسه يؤلمه:

قال وهو يشير بإصبعه نحو جدته: ما اسمك؟!

- اسمي تاج ..

ثم أشار نحو نفسه وسأل: وأنا؟!

انتبهت تاج إلى أن حفيدها قد بلغ الخامسة عشرة من عمره دون أن يكون له اسم،

قالت:

- سأفتش لك عن اسم في أقرب وقت أيها الولد

- وهذا الطائر الصغير لماذا يلاحقني أينما ذهبت؟!

- إنه خادمك وهو الذي ساعد في تحريك النار بداخلك

- ماذا تقصدين بأنه ساعد في تحريك النار بداخلي؟!

كانت تاج تؤمن بأن من حق حفيدها على الأقل إدراك طبيعة تكوينه لذلك أجابت:

- أنت مخلوق هجين كانت لك أم جنية وأب من الإنس...

ودت لو أنها تستطيع إخباره عن والدته ولكنها خافت من أن يستعيد ذاكرته إن فعلت ويتذكر كل شيء قبل أن تنتهي من تدريبه..
التفتت نحو الفرخ وأمرته بأن يقترب ولكن الفرخ صاح في وجهها دليلاً على أنه يرفض الانصياع لأوامرها؛ فقالت تاج لحفيدها:

- مُره بأن يقترب.. أريدكما في أمر مهم..

- ماذا أقول له؟!

- قل له إكليل تعال إلى هنا ..

تمتم بتردد:

- إكليل تعال إلى هنا ...

أخفض الفرخ العنيد رأسه وحرك جناحيه وذيله دليلاً على الطاعة الكاملة واقترب...

فقالت تاج وهي توزع نظرها بينهما:

- بعد أن نجح جسدك في امتصاص رماد العنقاء أيها الولد وأصبحت سيداً لإكليل فإنه يتوجب علي أن أحذركما من شيء مهم، وهو أنه يجب على كل واحد منكما أن يهتم بالآخر جيداً؛ وذلك لأن مصيركما بات مُرتبطاً .. فإن مات أحدكما فسيموت الآخر.

في الأسبوع التالي كان يجب على تاج أن تبدأ في تدريب حفيدها للقيام باستخدام قواه الخفية؛ ليصبح قادرًا على إخراجها والتحكم بها .. لذلك سارعت بإدخاله إحدى غرف القلعة الفسيحة ثم أغلقت الباب خلفهما دون السماح لإكليل بالدخول رغم إصراره على مرافقتهما

- لماذا لا تسمحين له بالدخول؟!

- لأنني أريدك اليوم بكامل انتباهك...

ثم ولأنها تعلم بأن الخوف هو العائق الأكبر الذي قد يواجهه في بدايات التعلم والعقبة الوحيدة التي لن ينجح في استخدام قوته الخاصة إلا بعد أن يحطمها؛ فإنها تربعت أرضًا وأمرته بالجلوس أمامها وقد حرصت على أن تجعل بينهما مسافة فاصلة قدرها سبعة أمتار:

- اجلس هناك.

جلس حيث ظُلب منه .. ثم مدت تاج يدها إلى قفص كبير مغطًا بستارة بيضاء، كان الطفل في البداية يحسبه حائظًا من كبر حجمه .. لهذا فإنه لم ينتبه إلى وجوده إلا في هذه اللحظة، قالت له قبل أن تكشف الغطاء عما بداخل القفص:

- القوة تنبع من القلب يا صغيري لذلك استحق الأسد أن يكون ملكًا للغابة...

- ملكًا للغابة؟!

- إنه لا يخاف شيئًا يذهب نحو الموت كما لو أنه ذاهب لنزهة،
يجب عليك أن تهزم خوفك إن كنت تريد أن تصبح حرا - ثم أضافت:
يجب عليك أن لا تدع الخوف يأسرك فأنت لم تأتِ إلى هذه الحياة
لتكون عبدًا ...

حرك رأسه دليلا على الفهم والطاعة؛ فقالت تاج « جيد » ثم رفعت
الستار الأبيض عن القفص فشاهد أفعى سوداء طويلة ضخمة من
فصيلة كوبرا الجن:

- أتعلم ما الذي قد تفعله هذه الأفعى بك لو أنها هجمت عليك؟!

كان الخوف مسيطرًا عليه فلا يستطيع أن ينطق، أكملت تاج تقول:
سوف تنفث سمها عليك فتقوم بشل حركتك نهائيًا لتجد نفسك بعد
قليل في بطنها تعاني من الشلل والضيقة ونقص الهواء، بالإضافة
للجروح القاتلة التي ستخلفها أنيابها الحادة على جسدك.

كان منظر الأفعى السوداء مرعبًا للغاية: لها رأس مسطح مثل
صفيحة درع اغريقية و عینان باردتان يشع منهما بريق الموت،
ولسان نحيل مُتشعب أسود اللون تقوم بإخراجه من وقت لآخر بينما
تصدر فحيحًا مُرعبًا، ابتلع الطفل ريقه بصعوبة:

- لا تدعيها تخرج من قفصها أرجوك!!

مدت تاج يدها نحو باب القفص وكأنها لم تستمع لرجائه

- قاطعها صارخًا: لحظة.. ماذا ستفعلين؟!

- لا شيء - قالت ببرود - فقط سأسمح لها بالخروج.

- ولكنها خطيرة!!

- اطمئن الأفاعي تسير خلف حدسها وتتغذى على الأشياء التي تشعر بالخوف - ثم أضافت:

- لذلك لا تخف أنت، وأعدك بأن لا تقوم بأذيتك ..

- ولكن أنا خائف!!

- استعد إذا؛ لأنك ستكون وجبتها اللذيذة...

فتحت باب القفص وما أن فعلت ذلك حتى خرجت الأفعى تزحف على بطنها تتلمس طريقها باتجاهه مستعينة بلسانها الأسود الطويل المتشعب والذي يخرج ويدخل باستمرار من فمها .. قرأت تاج في عينيه محاولة للهرب فصاحت عليه تحذره

- إياك أن تفعل!!

وبعد لحظات كان في استطاعته أن يشعر بحرارة لسانها السام وهي تتلمس به جسده مثل عجوز عمياء تتلمس الأشياء بيدها، طرأت في رأسه فكرة الهروب مرة أخرى ولكن جاءه التحذير الثاني:

- لا تتحرك - ثم أردفت تاج:

- هذا إذا كنت لا تريد أن ينتهي بك الحال في بطنها!!

- لماذا تفعلين هذا بي؟! - قال بصوت باك - أنا لم أفعل لك شيئاً

سيئاً!!

وبدلاً من أن تحاول تهدئته وبعث الطمأنينة في قلبه حتى ينجح
في هزيمة خوفه
سألته:

- هل تعرف ما الذي ستفعله بك هذه الأفعى بعد التهامك؟!
لم تدع له فرصة التفكير بالإجابة وقالت:

- ستأخذك لأقرب جذع شجرة متين لتقوم بالالتفاف عليه وأنت
في بطنها؛ حتى تحطم عظام جسدك عظمة عظمة وذلك لكي يسهل
عليها هضمك.
- تاج أنا أشعر بالخ.....

- لا تفكر بقولها حتى - قاطعته - كن قويا أيها الأحمق لا مكان
للضعفاء في هذا العالم المتوحش، مت الآن ولن يذكرك أحد.. كن
شجاعاً وسيروي الجميع قصتك!! لم يكن يعرف ما الذي عليه أن
يفعله ولكن ربما وقوفه أمام الموت كان هو الشيء الذي جعله
يحاول أن يكون قوياً، إنه لا يريد أن يموت الآن إنه ممتلئ بالحياة؛
لذلك بدأ عقله يفكر بهذه الطريقة:

« الخوف يعني: أن تقوم تلك الأفعى بالقضاء علي... »

عدم الخوف يعني: النجاة »

أبقى أعضائه ساكنة .. أغمض عينيه وغاص عميقاً داخل نفسه
مثل غواص يفتش عن صندوق مفقود في أحد قيعان البحار
البعيدة.. وبينما كان منهمكاً بالتفتيش عن الخوف بداخله إذ لمح

شخصًا بشقًا له وجه ضخم تغطيه البثور الكبيرة، يصنع ابتسامة تكشف أسنانًا صفراء متسوسة.

وقف الطفل أمامه وقال:

- أنت الخوف أليس كذلك؟!

- ما الذي تريده - قال الخوف - نعم أنا هو ...

- أريدك أن ترحل من هنا ...

- اسمع أيها الطفل أنا لا أستطيع أن أعصي لك أمرًا - قال الخوف
ثم أضاف:

- فأنت في آخر المطاف سيد مشاعرك وتستطيع أن تأمرني فأطيع
أمرك ولكن دعني أخبرك بشيء قبل أن تأخذ قرارك الأخير، هذه
الأفعى السوداء التي أمامك ستمزقك بأنيابها الطويلة قطعة قطعة،
انظر إلى عينيها وإلى الطريقة التي تحرق فيها بك، إنها جائعة وأنت
وليمة سهلة لها ...

انتصر الخوف عليه في الجولة الأولى وكاد الطفل أن يرفع رايته
البيضاء مستسلمًا، ولكن في اللحظة الأخيرة جاء الصوت من
الخارج:

- لا تستمع إليه - قالت تاج - لا يوجد شيء يستحق أن نخاف من
أجله هذه الحياة لا تُغري إلا الجبناء!!

بدا أن كلمات تاج تلك جاءت للطفل في التوقيت الصحيح، الأمر
الذي دفعه ليصرخ قائلًا:

- إن كان لا بد من الموت فسأموت بشجاعة، ارحل أيها الخوف لا مكان لك هنا.

- هه، كما تشاء...

هذا ما قاله الخوف باستخفاف قبل أن يستدير ويغادر.

- هيه أنت - صاح الطفل عليه - خذ حقائبك معك فليست لك عودة إلى هنا مرة أخرى!!

- لا تكن مغرورا - قال الخوف ببرود ومن غير أن يلتفت - ستقع في الحب يوما وحينها سأعود إليك...

طوقت كوبرا الجن جسده وكان في استطاعته أن يشعر بعضلاتها الصلبة وبخشونة الحراشف الدقيقة في جلدها وهي تحتك بجسده الهزيل، قربت فمها من عند أذنه ثم أطلقت فحيحا منخفضا كما لو أنها في تلك اللحظة كانت تقول له:

- قل مرحبا للموت أيها الصغير ...

لقد كان بين أحضان الموت ورغم ذلك إلا أنه لم يشعر بالخوف قالت تاج: تعلم أن تضبط نفسك، كل الأخطار ستمضي إذا ما كان الصبر معك.

استمرت كوبرا الأفعى تلف نفسها حول جسده ساعة من الزمن كما لو أنها تأخذ غفوتها هناك، أما الطفل فإنه خلال ذلك الوقت كان قد أبدى انضباطا عاليا في التركيز وهدوء الأعصاب والحفاظ على مشاعره، وحين نجح في تدريبه الأول قالت له تاج:

- اطلب منها أن تحرر جسدك الآن...

- أيتها الأفعى - قال بثقة - حرري جسدي.

- بشرط أن تعيدني إلى الغابة...

- هل تسكنين هناك؟!

- نعم وأنا حارسة الغابة المظلمة - ثم أضافت: واسمي تارا.

عندما قالت كوبرا الأفعى بأن اسمها تارا، أحس الطفل بأنه قد سمع ذلك الاسم من قبل ولكنه عندما فتش في أدراج ذاكرته شعر بالألم في رأسه فأوقف عملية التذكر وقال متناسيا الأمر:

- تحرسينها من ماذا؟!

- من المتطفلين؛ فهذه الغابة لا يُسمح لبني البشر والغرباء بالدخول إليها.

قالت ذلك وهي تحرر جسده ثم تابعت موضحة: إنها منطقة خاصة كانت تسكنها قديماً عائلة الأباطرة، وظل محرقاً دخول البشر إليها حتى بعد رحيلهم، تساءل الطفل بينه وبين نفسه وكأنه أيضاً سمع باسم تلك العائلة من قبل ولكنه لا يذكر أين أو متى.

- الأباطرة؟!

قالت تارا:

- نعم، إنها العائلة التي كانت تحكم مملكة أباييل قديماً

- وما الذي حدث لهم؟!

- زال حكمهم

- زال؟!

لم تكن تاج تريده أن يعرف أكثر فقاطعت حديثهما:

- يُستحسن أن تسرع أيها الولد في إخراج تارا من القلعة.

قال معترضا:

- ولكنني أريد أن أعرف كيف زال حكمهم!!

- سوف أخبرك لاحقًا

- وقت النوم؟!

- أخبرتك أكثر من مرة بأنك كبرت على قصص النوم!!

- ولكنني أحبها!!

- افعل كما أمرتك وخذ تارا إلى الغابة، هيا بسرعة!!

فتح الطفل باب الغرفة فسقط إكليل الذي كان يجلس متكئا على
الجهة الأخرى من الباب في انتظار أن يفتحوا له.. حمله من على
الأرض وأجلسه فوق كتفه ثم التفت نحو تارا وقال قبل أن يهرول
مبتعدا:

- اتبعيني..

قالت تاج تحدث تارا:

- شكرا لأنك وافقت على مشاركتي في تدريبه اليوم، لم أكن أعتقد

بأنك قد...

قاطعتها بحزم:

- لماذا تقومين بتدريب الصغير يا تاج؟! ما الذي تخططين له؟!

- أريده أن يصبح أقوى.

تارا تعرف أن تلك الجنية لا تقول الحقيقة لذلك قالت:

- قد يكون في مقدورك فعل أشياء كثيرة يا تاج، ولكن الكذب علي

ليس واحدًا من الأشياء التي تستطيعين فعلها

- أنا لا أكذب يا تارا

- ربما لا تكذبين ولكنك أيضًا لا تقولين الحقيقة كاملة ...



أخذت تاج نفسًا عميقًا إنها تعرف بأنها لا تستطيع الكذب عليها:
- حسنا معك حق هناك سبب آخر .. ولكنني أرغب في الاحتفاظ به
لنفسي - ثم أضافت بتحدٍ: هل لديك اعتراض على ذلك؟!
زحفت تارا مغادرة وهي تقول:
- لا ولكن تذكرني أنني سأكون دائمًا هناك، ولن أسمح لك بأذيته.

في إحدى الساحات الشاسعة للغابة المظلمة وأمام صخرة كبيرة
كانت تنتصب هناك قالت تاج تحدث حفيدها:
- تستطيع فعلها بالتأكيد...
- ولكن ليست هناك فتحة في تلك الصخرة لكي أستطيع العبور من
خلالها للجهة الأخرى يا تاج!!
- أنت لست في حاجة لوجود فتحة لكي تستطيع العبور
- ولكن كيف؟!
افعل كما أخبرتك وكفاك تدمرًا.

هذا ما دار بينهما وهي تحاول تعليمه استخدام مهارة العبور
«النفاد من خلال الأجسام الصلبة».. غير أنه لم يكن واثقًا من قدرته
على استخدام تلك المهارة، ورغم ذلك إلا أنه سوف ينفذ ما هو
مطلوب منه .. تراجع عشر خطوات إلى الوراء ثم راح يركض باتجاه
الصخرة بكل سرعته، وبدلاً عن العبور من خلالها للجهة الأخرى
اصطدم بها ووقع أرضًا .. تسبب ذلك الاصطدام بفتح جرح عميق

في منتصف جبينه جعل الدماء تتسرب من خلاله بغزارة إلى عينيه وأنفه.. التفت نحوها وقال بشيء من العتاب:

- ألم أقل لك بأنني لن أستطيع؟!

ركض إكليل نحوه ليطمئن عليه وما أن شاهد عمق الجرح حتى صاح بصوته الناعم .. قال الطفل ليطمئنه:

- لا تقلق، أنا بخير

سدت تاج بيدها فتحة الجرح ومسحت بيدها الأخرى آثار الدم من على وجهه، نظرت إلى عينيه البندقيتي اللون بصرامة كما لو أنها بنظرتها تلك كانت تعاتبه على اصطدامه بالصخرة وسألت:

- من أنت؟!

أجاب ببراعة: أنا الطفل

- لم أقصد اسمك أقصد من تكون

رغم بساطة السؤال إلا أنه لم يعرف بماذا يجيب فقالت تاج:

- إذا كنت فعلا تريد النجاح في تحقيق أهدافك يجب عليك أولاً أن تعرف نفسك جيداً .. لهذا دعني أسألك مرة أخرى، من أنت؟!

فكر قليلاً وعندما فشل في التوصل الإجابة قال: لا أعرف.

- آآ- قالت تاج ببطء وهي تشير بيدها نحو نفسها - برآكآ داا برآ

ثم كررت مرة ثانية حتى يتعلم طريقة نطقها:

- آآبرآ.. كآ داا برآ، وتعني أنا الذي يصنع ما يقول...

حرك رأسه دليلا على الفهم والطاعة

- والآن أخبرني من أنت؟!

- قال وهو يشير بيده نحو نفسه مقلدا طريقته - برآ كآ داا برآ..

- هل تستطيع اختراق تلك الصخرة؟!

- نعم، أستطيع!!

- إذا - صاحت وهي تصفعه على مؤخرته - اذهب واصنع ما تقول!!.

متناسيا الألم الحارق والذي يسببه له الجرح المفتوح في جبينه، تراجع عدة خطوات إلى الخلف ثم وقبل أن ينطلق لتحقيق هدفه وقف إكليل أمامه فاردًا جناحيه راسمًا بهما علامة قف، كما لو أنه يريد بذلك منع سيده من أذية نفسه، فصاح عليه الطفل قائلاً: إن كنت تؤمن بي فابتعد...

رغم عدم ثقة إكليل التامة به إلا أنه أخفض جناحيه وابتعد عن الطريق، فنظر الطفل نحو الصخرة الكبيرة بإصرار وهو يستقبل كلمات تاج: « تنفس عبر فتحتي أنفك .. اشعر بالهواء وهو يغذي داخلك وعندما تشعر بأنك مستعد انطلق!! »

تراجع خطوات إضافية للخلف أغمض عينيه أخذ نفسًا عميقًا عبر فتحتي أنفه وأحس بالأكسجين وهو يجري عبر قصبته الهوائية مستقرًا في رئتيه مغذيًا بعد ذلك كل خلايا جسده.. وعندما شعر بأنه مستعد فتح عينيه وقد اصطبغت عينه اليسرى باللون الأحمر القاتم، ثم سمح لقدميه بأن تدفعانه نحو الصخرة .. أما إكليل فإنه أشاح بنظره نحو الجهة الأخرى؛ إنه لا يرغب في أن يكون شاهدا على

تحطم رأس سيده. بينما حبست تاج أنفاسها وهي تراقب انطلاقة حفيدها نحو الصخرة..

كانت تاج قلقة .. فرغم تحفيزها المتواصل له إلا أنها لم تكن متأكدة تماما من أنه سوف يكون قادرًا على استخدام مهارة العبور خاصته بهذه السرعة .. وعندما جاءت اللحظة التي كان من المفترض أن يصطدم بها الطفل في الصخرة ويسقط أرضًا كما حدث في المرة الماضية، استطاع أن يخترقها ويعبر من خلالها للجهة الأخرى، فتح إكليل عينيه وعاد ينظر باتجاه الصخرة حتى يرى ما الذي حدث وعندما لم يجد لسيده أثرًا أطلق صوتًا ناعمًا يحمل نبرة استفهامية كأنه يسأل به تاج عن المكان الذي ذهب إليه سيده.

فتحت تاج فمها لتخبره بالجواب ولكنها قبل أن تتكلم صاح الطفل بكل صوته وهو يكمل طريقه ركضًا بين الأشجار العالية المتشابكة للغابة المظلمة:

- آبرآ كآ دآآبرآ، أنا الذي يصنع ما يقول!!

تعلم خلال الثلاث السنوات التي قضاها هو وإكليل عند جدته الكثير من الأشياء المهمة، وكان في استطاعته تعلم المزيد لو لم يطرق ذلك الشخص بوابة القلعة في مساء ذلك اليوم.. حدث هذا عندما كانت تاج تحاول القيام بتعليمه كيفية التأثير في الأشياء المادية عن بعد ومن غير الاحتكاك المباشر بها .. الأمر الذي كان سيضاعف من قوته كثيرًا لو أنه استطاع إتقان هذه المهارة بشكل كامل .. أحضرت له شمعة جعلتها بعيدة عنه بحيث لا تستطيع يديه الوصول إليها وقالت:

- أشعل النار بفتيلها دون أن تتحرك من مكانك.

نظر بغرابة نحو فتيل الشمعة المطفأة وقال مستسلفًا: لا أستطيع.

- توقف عن القول بأنك لا تستطيع .. قل بأنك لا تعرف

- ما الفرق؟!

عندما تقول بأنك لا تستطيع فهذا يعني اعترافك بالعجز ، ولكن عندما تقول لا أعرف فهذا يعني أنك تحتاج إلى القليل من العلم حتى تحقق هدفك، يجب عليك أن تراقب كلماتك جيدًا إنها من تحدد مصيرك!!

- حسنا أنا لا أعرف وأريد أن أتعلم...

- كل ما تفكر به قابل لأن يتحقق - قالت بحصافة - فعقلك لا يستطيع التفكير بالأشياء المستحيلة، كل ما ينقصك فقط هو الإيمان

بنفسك.

قال متسائلًا:

- الإيمان بنفسي؟!

- كل ما ينقصك هو الإيمان بنفسك وسترى كيف ينحني لك العالم كله من أجل أن يحقق لك ما تريد.

حرك رأسه دليلًا على الفهم والطاعة.

- والآن حتى تشعل فتيل الشمعة يجب عليك أن تستعين بخيالك

- بخيالي - سأل متعجبًا من ذلك الكلام - كيف؟!

- الأهداف تولد أولًا في المخيلة ثم تتحقق في الواقع ...

- لم أفهم

- حسنًا دعنا نسير خطوة خطوة - ثم أضافت بصبر: ما الذي تريده

الآن؟!

أشار نحو الأمام بإصبعه:

- أن أشعل فتيل تلك الشمعة

- الأمر بسيط جدًا، تخيله في رأسك يشتعل وسيحدث ذلك.

- هذا كل ما في الأمر؟!

أومأت تاج له برأسها .

أغمض عينيه وراح يتخيل بأن فتيل تلك الشمعة يشتعل ولكنه

حين فتح عينيه بعد قليل وجد أن خياله ذاك لم يتحقق في الواقع
فأعلن استسلامه: لقد فعلت كما قلت لي ولم يشتعل الفتيل ...

ضربته على رأسه بقوة وصاحت عليه:

- هل كنت تعتقد أن الأمر سيكون بهذه التفاهة؟!

وهو يمسك رأسه بيديه من شدة ألم الضربة ويقول:

- لماذا ضربتني؟!

- عليك أن تكون أكثر جدية وأنت تتخيل الأشياء إذا كنت تريدها
أن تتحقق فعلاً

- لماذا تصرخين؟!

- لأنك أحمق!!

- لقد فعلت كما طلبت مني!!

- لقد كانت خيالاتك سخيقة - ثم شرحت: يجب أن تشاهد في
خيالك خيط الدخان الخفيف وهو يتصاعد من الفتيل، وتشاهد
الضوء المتراقص الذي تبعته إضاءة الشمعة، يجب عليك أن تسمع
الصوت الصامت للنار وهي تشتعل وأن تستنشق بأنفك رائحة الشمع
الذائب، هل فهمت؟!

أوما الحفيد برأسه ثم راح يتخيل فتيل الشمعة يشتعل، ولكن
بالطريقة التي أخبرته بها الجدة .. فاستطاع في خياله مشاهدة
خيط الدخان الخفيف المتصاعد من الفتيل والضوء الناعس
المتراقص المنبعث من الشمعة، واستطاع أن يستنشق رائحة الشمع

الذائب .. وفي المقابل كانت تاج وإكليل يراقبان رأس الفتيل وقد بدأ خيط الدخان الخفيف يتصاعد منه.. «سينجح» همست تاج بصوت منخفض كي لا تقطع تركيزه .. ولكن وقبل أن يتمكن الطفل من إشعال الفتيل حدث شيء قطع عليه التركيز - كان هناك من يطرق الباب - شعرت تاج بأن ثمة أمرًا سيئًا على وشك الوقوع فقالت:

- سارى من الطارق، وأنت واصل تدريبك.

عندما فتحت بوابة القلعة رأت أمامها الشخص الذي كانت تخاف قدومه، لقد كان بحر وقد ثار بوجهها منفعلًا حين رآها:

- هل أستطيع أن أفهم ما الذي يفعله ابني عند امرأة مثلك؟؟

- لقد اعتنيث به في الوقت الذي تخلى عنه الجميع بمن فيهم أنت!!

- لم أتخل عنه لقد ذهبت لمطاردة من قتل زوجتي!!

وأين كنت في تلك الأيام التي كانت زوجتك فيها تموت في اليوم ألف مرة بسبب التفكير بك وبغيابك عنها؟!

أصابك بكلماتها تلك جرحًا عميقًا في قلبه مما دفعه لأن يواجه صعوبة شديدة في ضبط أعصابه:

- لم آتٍ لأشرح لك أسبابًا لا تعنيك، جئت لأخذ ابني وأذهب.

- ومن سيعتني به؟! .. أنت؟!

- أظن أن هذا ليس من شأنك يا ذات الطائر الأحمر ...

- لن يخرج الولد من هنا قبل أن تخبرني

- أريد أن أعرف لماذا تبدي جنية قذرة مملك اهتمامًا بولدي؟!

- راقب لسانك إن كنت تريد أن يبقى داخل فمك ...

متجاهلاً ذلك التحذير:

- هل ستعطيني إياه أم أخذه باستخدام القوة؟!

بهدوء يدل على ثقة عالية بالنفس ردت عليه:

- لن يخرج من هنا قبل أن تخبرني عن الشخص الذي سيعتني به...

صحيح أن بحر كان فارسًا لا يُشق له غبار ولكن رغم قوته إلا أنه يجهل تمامًا ما الذي قد تفعله به تلك الجنية لو أنها قررت فعلاً استخدام قوتها ضده، لهذا رد عليها قائلاً:

- ومن سيقوم بمنعي؟! أنت؟!

تجاهلت تاج تلك الاستهانة الواضحة في نبرة صوته وكررت:

- أجب عن سؤالِي يا بحر من سيقوم بالاعتناء بالولد؟!

- ستقوم أيار بالاعتناء به...

- ستدع تلك المرأة المعوقة تعتني بحف... - كادت أن تقول بحفيدي

ولكنها تداركت نفسها بآخر لحظة وقالت: بالولد؟!

- هذا ليس من شأنك ...

أخذت تاج نفسًا عميقًا واستطاعت ضبط أعصابها؛ إنها تعلم مدى

العناد الذي يتمتع به بحر وبأنها إن كانت تريد الاحتفاظ بحفيدها

فإنه يجب عليها أن تكون أكثر هدوءًا معه:

- أعلم بأن فقدانك لزوجتك لم يكن بالأمر الهين، ولكن هذا الولد يا بحر.. لقد أصبح في الثامنة عشرة من عمره وهو يستحق الكثير من الاهتمام والرعاية، دعه يبقى هنا وأعدك بأنني سأقوم برعايته وتعليمه حتى يكبر أكثر.

- جنية مملك ما الذي سوف تقوم بتعليمه لابني؟!

قالت وقد فقدت أعصابها:

- وأيار تلك أليست ساحرة؟!

- بلى ولكنني أثق بها، أما أنتِ فأنا لا أعرف عنك شيئًا ...

- أعدك بأنني سأعتني به، وسيكون بمقدورك المجيء لرؤيته بأي وقت .

- آسف لا أقبل وعودًا من الغرباء.

- ربما تكون محقا في عدم قبولك وعدًا من شخص غريب، ولكن أخبرني على الأقل هل ستكون أنت معه؟!

- لا، فقد عدت للعمل مع منظمة الجاثوم مرة أخرى

اتسعت عينا تاج عندما سمعت ذلك الخبر وقالت غير مصدقة:

- بعد أن قتلوا زوجتك؟!

لم يُجب وكأنه لم يكن يريد أن يشرح أشياء يرى بأنها لا تعني أحدًا غيره، قالت تاج غاضبة:

- قلت لي قبل قليل بأنك ذهبت لمطاردة الذين قتلوا جوماننا كنت

أعتقد أنك ذهبت لتتأر لها، وليس لتجدد ولاءك لهم.. هل حدث
لرأسك شيء يا بحر؟!

وبنبرة حزينة كما لو أنه يعترف بأخطائه أمام قديسة:

- لقد قتلوها بسبب تهوري.. كان يجب علي أن أصغي لكلام
صديقي أيوب عندما نصحني بأن لا أزور عائلتي، ولكنني أحقق لم
أستمع لنصيحته ومن أجل ذلك قتلوها ..

- وهل وعدوك بأنهم سيعيدونها للحياة إن عدت للعمل معهم؟!

- بل قالوا بأنهم سيدعون ابني يعيش

- وما هي شروطهم هذه المرة؟!

- أن أترك الولد عند أيار تهتم به وأعود للعمل معهم

- فيهددونك به عند الحاجة !

- المهم أن يكون بخير

- هل صديقك أيوب موافق على هذا الكلام؟!

- لا أعرف عنه شيئًا

- لماذا أين هو؟!

قال بحر وهو يبتلع رغبة في البكاء:

- إن كان قد تمكن من النجاة فأظنه عند قبائل الأشاوس

- ما الذي حدث ألم تكن معه؟!

- بل كنت ضده - قال بندم ثم أضاف يروي القصة: بعد أن قتلوا جوماننا اتجهت أنا وأيوب غربا نحو سلسلة الجبال المحرمة، كنا نريد طلب العون من الأميرة آشاس أميرة قبائل الأشاوس لكي تساعدنا في حرب الثار، ولكن جنود ناب الفيل اعترضوا طريقنا قبل أن نصل هناك.

- ماذا كانوا يريدون؟!

- أخبروني أن ناب الفيل يتوعد بقتل ابني إن قمت بأي حركة ضده.

- وما دخل أيوب في الأمر - قالت تاج بشك - ما الذي فعلته يا بحر؟!

- بعد موافقتي على العودة للعمل معهم وتعهدي لهم بالطاعة الكاملة كان أول أمر أتلقيه منهم هو قتل صديقي أيوب...

- وهل وافقت؟!

لم يجب عليها، فكررت تاج بنفاد صبر:

- هل وافقت؟!

- لم يكن لدي خيار آخر - ثم أضاف: حاولت قتله ولكنه هرب فطارده جنود ناب الفيل وحين عادوا قالوا بأنهم قتلوه.

صمتت تاج من الصدمة بينما تابع بنبرة صوت يائسة تشي بعجزه:

- لا أحد يستطيع النجاة من بطش ناب الفيل حتى أنت يا ذات

الطائر الأحمر لا تستطيعين الوقوف في وجهه ، إنه لا يغيب عن

علمه شيء حتى إنني بدأت أقتنع فعلا بأنه الرب كما يدعي، فهو قوي لا يستطيع أحد التغلب عليه ولديه في كل مكان جواسيس ينقلون إليه الأخبار، ولو أنني فكرت مجرد التفكير فقط بتكوين قوة ضده فسيعرف بذلك فورًا ويأمر بقتل ابني، ولن يستطيع أحد أن يمنعه حينها من فعل ذلك.. لهذا كان يجب علي أن أوافق!!

لم تعلق تاج ولكنها شتمته بنظرتها، فقال يدافع عن نفسه:

- هذا الولد هو آخر ما تبقى لي من زوجتي .. وأنا لا أريد لشيء أن يمسه بمكروه؛ لذلك وافقت على العودة للعمل معهم.. وهذه المرة لن أخالف الاتفاق .. سأطمئن فقط بأن الولد أصبح عند أيار وأعود للجاثوم ولن أرجع لرؤيته مهما وسوس الحنين - ثم نظر نحو السماء وهتف: هل تسمع يا ناب الفيل، أعدك ألا أخالف الاتفاق هذه المرة!!
أمسكته من تلايب ثيابه ثم قربته إليها حتى كاد أنفها يلامس أنفه:

- اخفض صوتك أيها الأحمق أنت تقف أمام قلعة جبار الأباطرة، ولن يتجرأ ناب الفيل بمجرد التفكير بالاقتراب من هنا!!

قال بنبرة صوت تشي بعمق جرحه: ماتت جومانا .. تلك التي من أجلها كنت أتنفس وأظن أنني خسرت صديقي أيوب .. ولم يتبق لي عزيز إلى قلبي غير هذا الولد، أرجوك دعيني أحافظ عليه بالطريقة التي أراها مناسبة أرجوك يا ذات الطائر الأحمر!!

مضت بضع لحظات أخرى قبل أن تقوم تاج بإفلات بحر من قبضتها، والعودة لداخل القلعة دون أن تعلق على كلامه أو تقول

شيئا.

- لحظة، إلى أين تذهبين؟!

- سأحضر لك الولد.

ذهبت إلى حيث الغرفة التي يجلس فيها حفيدها برفقة إكليل،
ورغم أنها شاهدت فتيل الشمعة يشتعل إلا أنها لم تكن مسرورة
كثيرًا بنجاحه في اكتساب تلك المهارة الجديدة.. نظرت مباشرة إليه
وكان من الصعب عليها أن تخبره بأنه سيكون مضطرًا للرحيل ولكن
لم يكن أمامها خيار آخر

- والدك هنا

- والدي؟!

- نعم وقد جاء ليأخذك

- يأخذني؟!

- نعم إلى امرأة ستقوم بالاعتناء بك...

قال وهو يتمسك بها:

- ولكنني أريد البقاء معك

- أرجوك لا تجعل هذا الوداع يكون صعبا اسمع الكلام واذهب

معه...

- وأنت؟!

- لا تقلق سأكون بخير - ثم أضافت: وسأتي لزيارتك من وقت لآخر، اتفقنا؟!

عندما قالت «اتفقنا» دق قلبه بقوة وشعر بإحساس لم يستطع في تلك اللحظة تفسيره، لم تكن تلك الكلمة غريبة عليه لقد كان يسمعها دائمًا ولكنه الآن وبطريقة غامضة لا يستطيع أن يتذكر ...

- ما بك - سألت - لماذا أصبح وجهك أصفرًا هكذا؟!

تجاهل سؤالها وقال بتردد: اتفقنا ...

سار خلفها وفوق كتفه يجلس فرخ طائر العنقاء والذي بدا هادئًا غير مبال بالأحداث التي تدور من حوله..

لم يُبدِ الطفل أي ردة فعل عندما شاهد والده وربما يكون ذلك بسبب ذاكرته المعطلة إنه يقف الآن أمام رجل غريب بالنسبة إليه لم يسبق له في حياته أن رآه قبل هذه المرة..

قال بحر وهو يتفادى النظر لعيني ابنه.. تلك العينان اللتان تشبهان كثيرًا عيني جوماننا: هيا يا بني.. سوف نذهب لمكان آخر.

التفت الطفل نحو تاج إنه لا يعرف ماذا يفعل، قالت له:

- اذهب معه، ليس هنالك ما يخيف.

هز رأسه موافقًا وقبل أن يبتعد قال بحر مستغربًا كما لو أنه للتو ينتبه للطائر:

- ما نوع هذا الطائر؟!

كاد أن يُجيبه ولكن قبل أن يفعل أوقفته تاج مستخدمة مهارة

التخاطر خاصتها تحذره

« يجب ألا يعرف أبوك شيئًا عن هذا الأمر ».

صمت الطفل ولم يكمل فقال والده

- لماذا لا تتكلم؟!..

واصل الحفاظ على صمته فلم يشعر بحر بالاطمئنان.. خصوصًا وأن ذلك الطائر البرتقالي اللون لم يكن يشبه أي نوع من أنواع الطيور التي كان يعرفها، قال حاسما الأمر:

- هذا الطائر لن يأتي معنا.

تحدث مع جدته مستخدمًا مهارة التخاطر:

« ماذا أفعل يا تاج؟! »

« يجب عليك أن تجد طريقة تأخذ فيها إكليل معك »

التفت الطفل نحو والده وقال:

- أريد الاحتفاظ بهذا الطائر - صمت قليلًا ثم تابع كما لو أن غريزته أخبرته بأن يستخدم هذه الحيلة: أرجوك يا أبي!!

نظر بحر نحو الطائر بشيء من الشك هو ليس مرتاحًا للأمر ولكنه في الأخير كان تحت تأثير كلمة «أبي».. إنها المرة الأولى التي يناديه فيها بتلك الكلمة.

قال بعد تردد:

- لا بأس تستطيع الاحتفاظ به.

بعد أن غادر ثلاثتهم المكان تمتمت تاج بصوت غاضب خرج من تحت أسنانها:

- لقد حكمت على نفسك بالموت يا حكيم النحس - ثم أردفت:
- ولكن قبل أن أصفى حساباتي معك هناك من يجب علي رؤيته أولاً.

كان من المفترض أن تقوم حارسة الغابة المظلمة بقتل بحر في اللحظة التي وطئت فيها أقدامه أرض الغابة فهو كائن بشري في نهاية المطاف ولا يحق له دخولها؛ لذلك أرادت تاج التحقيق معها بشأن هذا التقصير الذي لا يغتفر، وقبل أن تذهب للتفتيش عنها سمعت حفيف جسد يزحف مقترباً منها، وقبل أن تلتف تاج نحو الصوت همست تاراً قائلة:

- لقد أتيت إليك بنفسك
- لماذا لم تقومي بقتله عندما دخل حدود الغابة؟!
- لم أستطع
- لماذا؟!
- من أجل روح جومانا ...

نشأت كوبر الجن تلك منذ صغرها مع جومانا في قلعة الأباطرة وعلى الرغم من اختلاف جنسيهما، إلا أنهما لفرط تعلق بعضهما ببعض عاشا طوال حياتهما كما لو أنهما أختان، ولم يحدث أبداً أن افترقتا إلا عندما قررت جومانا الارتباط ببحر والزواج منه، ورغم

تعلق تارا الشديد بها إلا أنها احترمت قرارها وابتعدت عنها نهائيا ...
كان الغضب الذي في تاج يجعلها تتمنى القيام بقتل تارا ولكن في
الوقت نفسه تعلم بأن الدخول في معركة ضدها لن يكون سهلا ؛ فقد
تلقت تلك الأفعى تدريباتها على يد جبار الأباطرة نفسه الأمر الذي
يجعلها غير قابلة للهزيمة بسهولة .. اختفت تاج من أمامها دون أن
تفعل لها شيئا واتجهت نحو مكان آخر...

كان الحكيم وقتها يجلس فوق كرسيه الأثير يقرأ في أحد الكتب
القديمة على ضوء شمعة خافتة، عندما سمع فجأة صوتا من الفراغ
يقول:

- ألم أقل لك بأن لا تخبر أحدا؟!

- يا للسموات هل هناك من يتكلم معي، أم أنني أتوهم؟!

- ألم أحذرك بالقتل لو أنك فتحت فمك يا حكيم النحس؟!

- ذئب.. ذات الطائر الأحمر؟!

ظهرت تاج أمامه فجأة وقد كان الانزعاج باديا عليها وهي تحقق
نحوه بغضب... راحت تتقدم باتجاهه وقد اصطبغت كلتا عينيها
باللون الأسود وكان شعرها الطويل يتحرك من تلقاء نفسه كما لو
أنها في تلك اللحظة كانت تقف وجها لوجه ضد تيار هوائي شديد
السرعة.

- دعيني أشرح لك..

ظلت تقترب دون أن تعطيه فرصة للحديث فقال مدافعًا عن نفسه:
- لم يكن أمامي خيار كنت مضطرًا لقد هددني بالقتل إن لم أخبره!!
وعندما بات موته وشيكًا قرر الحكيم أن يستخدم آخر ورقة لديه:
- الحياة - ثم أضاف برعب:

- الحياة هي أمنيّتي لقد عقدت معك اتفاقًا ولا أظن أنك ستنكثين
وعدك لي!!

- تبا لك - صرخت تاج - لقد نجوت من الموت!!

ولكنها قبل أن تغادر من أمامه تمت له بكلمات لم يفهم معناها ثم
مسحت بيدها على وجهه.. وعندها شعر الحكيم بأن كل شيء في
جسده يتقلص وبات جسده يصغر شيئًا فشيئًا حتى اختفى تمامًا
ولم يبق منه سوى ثيابه التي سقطت أرضًا.

وبعد قليل من الوقت كان هناك فأر لديه لحية طويلة نسبيًا تشبه
لحية عنز فحل خرج من كم ثياب الحكيم.. وقف الفأر على قائمته
الخلفيتين ينظر نحو تاج لبعض الوقت ثم راح يركض بقدميه ويديه
مبتعدًا.

في غرفة ضيقة تضج أركانها بشباك العناكب وجد الطفل نفسه وحيدا برفقة فرخ طائر العنقاء بعد أن تركه والده تحت رعاية الساحرة أيار وذهب للعمل مع منظمة الجاثوم .. وبسبب الوحدة أو ربما الحنين والفراغ، كان الطفل طوال الوقت يغمض عينيه ويحاول التواصل مع جدته عن طريق مهارة التخاطر: «أنا وإكيليل نشعر بالحزن على فراقك ونفتقدك طوال الوقت هل تسمعينني يا تاج؟!» ولأنه لم يكن يتلقى منها أي إشارة تدل على الاستجابة فإنه كان يكرر عملية التخاطر تلك لأكثر من مرة ولا يتوقف أخيرًا إلا عندما ينام على نفسه من فرط المحاولات والتعب، ثم وفي محاولة أخرى للتواصل مع جدته فإنه لجأ ذات مرة لطريقة أخرى حيث قام بالتحدث مع عصفورة حطت على إفريز النافذة الصغيرة للغرفة

- أيتها العصفورة سأعطيك شيئًا تأكلينه مقابل أن تذهبي للغابة المظلمة وتخبري تاج بأنني أريد الحديث معها!

غير أن تلك العصفورة نظرت نحوه بغرابة دون أن تفهم منه حرفًا واحدًا ثم طارت مبتعدة .. كان الفشل الذي يحصل عليه من وراء تلك المحاولات يضاعف في داخله الشعور بالوحدة والحزن؛ لقد فقد نهائيًا مهاراته التي تعلمها من تاج وانطفأت قوته...



مضت أيام كثيرة وهو على تلك الحالة من البؤس والضعف قبل أن يستيقظ من نومه في منتصف إحدى الليالي الباردة بسبب إكليل الذي كان ينظر إلى نقطة محددة في ظلام الغرفة ويزمجر بصوت مرتفع مثل كلب حراسة يستشعر قدوم شخص غريب، قال الطفل بكسل:

- لماذا توقظني في هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

لم يتوقف إكليل عن الزمجرة فعرف أنه كان يحاول إخباره بأن ثمة شخصا آخر معها في الغرفة، قال وهو يزيل اللحاف عن جسده:

- من هنا؟!

- لم أتوقع أن يستطيع إكليل اكتشافني وأنا متخفية.

قالت تاج ذلك ثم تابعت وهي تظهر نفسها يبدو أن مهاراته بدأت تتطور بشكل جيد

هتف الطفل وهو يعانقها: كنت أعلم بأنك ستأتين!!

صاح طائر العنقاء سعيدًا وهو يحرك جناحيه وذيله عندما شاهد سيده يحتضن تاج وراح يحشر نفسه بالقوة بينها وبينه.. كان ضوء القمر الناعم والذي يتسلل من خلال النافذة الصغيرة يسمح للجدة برؤية ملامح الحفيد والطائر:

- يبدو أن أيار تسيء معاملتكما أيها الصغيران؟!

- بعض الشيء - قال بغصة - كما أن مذاق الطعام هنا سيئ للغاية وإكليل لم يأكل شيئًا طوال الأيام الماضية.

قالت وهي تمد لهما زنبيلًا مليئًا بالطعام:

- عرفت أن هذا سيحدث

كان منظرهما وهما يأكلان الطعام بكل تلك الشراهة يدل على أنهما قد وصلا لآخر حدود الجوع، وشعرت تاج بينما تنظر لوجه حفيدها وهو يأكل بأن هناك أمرًا ما يشغل باله وهذا ما تأكدت منه فعلا بعد قليل وذلك عندما سألتها:

- هل أيار هذه أمي؟!

بانفعال أجابت:

- هذه المرأة المعوقة أمك؟! من أوحى لك بهذه الفكرة السخيفة؟!

- هذا هو التفسير الوحيد، وإلا فلماذا يتركني أبي معها ويذهب؟!

- لقد أخبرتك بأن أمك كانت جنية، ألم أعلمك كيف تميز مخلوق

النار عن مخلوق الطين؟!

- بلى

- إذا هل هذه المرأة المعوقة مخلوقة نارية؟!

- لا أعلم.

- ماذا تقصد بأنك لا تعلم؟!

- أشعر بأنني ضعيف جدًا!!

بدا عليها القلق وهي تقول: ماذا حدث، أخبرني؟!

شرح لها عن كل الأشياء التي يشعر بها وأخبرها بأنه لم يعد قادرًا

على استخدام شيء من قوته التي علمته إياها، وحين أنهى سألته
بشك:

- أنت واثق مما تقوله؟!

- إني أشعر كما لو أن قوتي زالت ...

- لا تكن سخيًا، لن تزول قوتك بعد أن تحركت في داخلك.

وفي تلك اللحظة وقبل أن تبدأ بتشخيص حالته وطرح كل
الاحتمالات التي قد تجعل مخلوقًا هجينًا يفقد فجأة قوته ويصبح
غير قادر على استخدامها فتح أحدهم باب الغرفة من غير أن
يستأذن:

- ما الذي يجري هنا - سألت أيار - مع من كنت تتحدث؟!

نظر باتجاه المكان الذي كانت تاج تقف فيه ولكنه لم يجدها، فعرف
أنها تمكنت من الاختفاء قبل أن يُكتشف أمرها وأدرك أنه مع قليل
من الحيلة فقط سوف يستطيع تجاوز هذا المأزق بسلام:

- لم أكن أتحدث مع أحد

- لقد سمعتك بأذني وأنت تتحدث مع أحدهم - ثم أضافت وهي
تشير نحو إكليل:

- هل عدت للحديث مع هذا الشيء أيها المعتوه؟!

نظر إليها فرخ طائر العنقاء بغضب كان يريد أن يصرخ في وجهها
أن يهجم عليها انتقامًا للطريقة السيئة التي توجه فيها الكلام لهما ،
ولكنه تذكر أن سيده أمره بضبط النفس وعدم الاندفاع تجنبًا

للوقوع في المشاكل فتجاهل الإساءة ولم يقم بأي حركة.

لم تكن أيار تعرف أن الطفل هجين لذلك ربما قالت:

- إذا كنت قد عدت للحديث مع هذا الطائر فأريد أن أخبرك بأن البشر لا يستطيعون التحدث مع الحيوانات - وأضافت بسخرية: وإذا كان شكلك في المرأة يوحي بأنك خنزير، فهذا لا يعني أنك حيوان حقيقي وتستطيع التواصل معهم.

كان يخشى من أن تقوم الساحرة بالنظر للأسفل وتلاحظ زنبيل الطعام الذي أحضرته تاج معها ونسيت أن تأخذه عندما ذهبت، لذلك فإنه قال بصوت خافت:

- حسنا معك حق .. لن أعود للحديث معه ...

نظرت إلى عينيه بحدة وبدت كما لو أنها أرادت أن تواصل سخريتها ضده ولكنها لم تفعل ليس لأنها أشفقت عليه ولكن ربما لأنها لم تجد لذة في إهانة شخص لا يتأثر بإهاناتها، أغلقت الباب خلفها وغادرت.

عندما تأكد من أنها ابتعدت بما فيه الكفاية فإنه همس في الهواء قائلاً:

- لقد ذهبت يا تاج أين أنتِ؟!

ولكنها لم تظهر .

لم يستطع معاودة النوم في تلك الليلة والسبب هو بطنه الذي كان يصدر أصواتًا يخبره فيها بأنه يريد الذهاب سريعًا لغرفة الخلاء

لقضاء الحاجة.. حاول فتح باب الغرفة لكن أيار كانت قد أغلقته
بالمزلاج من الخارج، قال يحادث إكيل:

- سأحاول العبور من خلال الحائط ...

تراجع خطوتين إلى الوراء، نظر نحو الحائط بتركيز عالٍ ثم راح
يركض نحوه محاولاً العبور من خلاله .. ولكنه لم ينجح في العبور
بل ارتطم بالحائط وسقط أرضاً في مكانه قال وهو يمسح خيط
الدم النازل من عند رأسه:

- لقد زالت قوتي.

مع مرور الوقت لم يتمكن من أن يمسك بطنه لمدة أطول فاتجه
إلى أكثر زوايا الغرفة خلوا من شباك العناكب، أنزل بنطاله إلى عند
ركبتيه وقضى حاجته.

في مساء اليوم التالي وحين جاء الموعد المعتاد والذي كانت أيار
تجلب فيه الطعام سيئ المذاق لهما استطاعت بمجرد دخولها الغرفة
أن تلتقط رائحة حادة كريهة.

قالت وهي تبحث في أرجاء الغرفة:

- ما هذا - وأضافت بعد أن سدت أنفها: ما الذي فعلته؟!

- آسف - همس بخجل - لم أتمكن من حبس بطني لمدة أطول!!

قامت بجره من عند أذنه نحو غرفة الخلاء صاحت وهي تشير إلى
منطقة ممتلئة بالرمل:

في المرة القادمة تعلم أن تقضي حاجتك هنا يا ابن عقربة الجن؟
كانت تلك المفردة «ابن عقربة الجن» التي قالتها الساحرة للتو
قد ذكرته بشيء ما، لقد سمع هذه الكلمة من قبل .. إنه متأكد مثل
ما هو متأكد الآن من أنه يقف أمامها .. رفع بصره ونظر في وجهها
وقد بدأت ذاكرته في تلك اللحظة وبشكل ضبابي باستعادة الأحداث
القديمة شيئًا فشيئًا، ولكن قبل أن يتذكر كل شيء بوضوح قالت له
بشراسة قاطعة على ذاكرته الطريق:

- لماذا تحقق في هذه الطريقة؟!

- لل .. لا شيء، سأعود إلى غرفتي.

حين عاد إلى غرفته وجد تاج في انتظاره وقد انتهت تنظيف
زاوية الغرفة من فضلاته تمت بصوت خفيض: «أغلق الباب خلفك
وتعال، لدي ما أقوله لك»

صعد إكليل ليجلس فوق كتف سيده واقترب الاثنان منها، قالت
وقد اكتشفت السبب الذي جعله يفقد قوته ويصبح عاجزًا عن
استخدامها:

- إنه الحزن يا صغيري ...

- الحزن؟!

- نعم إنه نقطة ضعفك - وأضافت تشرح نظريتها: انتقالك للعيش
هنا قد تسبب في جعلك تشعر بالحزن وهذا ما جعلك تفقد قوتك

- وماذا في إمكاني أن أصنع؟!

قالت ببساطة:

- تخلص من مشاعرك الحزينة تعد لك قوتك...

- وكيف أتخلص منها؟!

مدت يدها وأمسكت بكتفه:

- فكر بكل أولئك الذين يحبونك ويهتمون بك، ربما يكون هذا مفيدا في طرد أحزانك..

- ولكن لا أحد يحبني.

- أنا أحبك - قالت بلطف - وإكليل يحبك أيضًا

حرك إكليل جناحيه بينما كان لا يزال مستريحًا فوق كتفه

- رأيت؟! أنه يقول لك بأنه يحبك..

- وهل الحزن يجعلني أتوهم أشياء لم تحدث من قبل؟!

لم تفهم فسألت:

- ماذا تقصد؟!

- أشعر بأنني قد التقيت أيار هذه من قبل ولكنني لست متأكدًا...

- هل هذا فقط ما تشعر به - سألت بقلق - أم أن هناك أشياء أخرى؟!

- هناك شيء آخر - أجاب بشرود - قبل عدة أيام حلمت بأن هناك

مجموعة من الذئاب كانت تريد افتراسي في ليلة ممطرة، قفز نحوهم أكبرهم ولكن شخصا ما أنقذني منهم ...

- هل تذكر اسم ذلك الشخص؟!

- لا أذكر ولكنني أعتقد أنه قال لي شيئًا في الحلم

- ماذا قال لك؟!

استغرق بعض الوقت ليسترجع تفاصيل الحلم، ثم غمغم قائلاً:

- كم أنت شجاعة أيتها القملة الصغيرة المزعجة.. هذا ما قاله لي

الرجل الأسود الضخم!!

حين سمعت تاج ذلك عرفت أن مفعول شراب النسيان قد بدأ

يزول من عقله، وأنه لن يمضي عليه الكثير من الوقت حتى يستعيد

ذاكرته من جديد ويتذكر كل شيء، قالت قبل أن تختفي:

- يجب أن أغادر الآن.

وفعلًا .. لم يمض الكثير من الوقت حتى وقع ما تنبأت بحدوثه

تاج فبعد ثلاثة أيام وفي ليلة كان القمر فيها بدرًا أفاق الطفل من

نومه فجأة، لم يكن إكليل السبب هذه المرة بل كان هناك شيء آخر:

- إكليل استيقظ - همس بدهشة - انظر نحو النافذة!!

فتح الطائر عينيه وراح ينظر إلى حيث أمره سيده.. كان هناك

وميض أزرق اللون ينبض من عند النافذة المكسو زجاجها بطبقة

ضبابية خفيفة، أبعد عن جسده اللحاف وسار نحو النافذة هو

وإكليل بحذر شديد.. مسح الزجاج الضبابي بيده حتى يستطيع

الرؤية بوضوح من خلاله ثم ألقى نظرة على الخارج، وما أن شاهد

ذلك المنظر الذي أمامه حتى أحس بقشعريرة عالية تعبر عموده

الفقري.

كانت هناك فتاة تقف في الخارج يحيط بها شيء يشبه الغيمة .. وعلى الرغم من أنه لم يكن يتذكرها بشكل جيد إلا أن عينيها البندقيتي اللون والنظرات الحانية التي تطالعه بها، كانت كافية لأن تجعله يشعر بالحنين لشيء ما، بعد قليل من التردد قام بفتح النافذة وما أن فعل ذلك حتى استنشق رائحة الياسمين القوية العابقة في نسيم تلك الليلة الباردة، فقال من دون تفكير وهو ينظر نحوها:

- أمي؟!

وما أن نطق بتلك الكلمة حتى ابتسم طيف جوماننا في وجهه: « النسيان يؤلم الأموات في قبورهم يا صغيري - قالت ذلك وهي تختفي شيئًا فشيئًا - لا تنسى من أكون أنا التي أحبتك دوماً » .. عادت إليه الذاكرة من جديد واستطاع أن يتذكر كل الأشياء التي قامت تاج بحجبها عن ذاكرته، نظر نحو إكليل بغضب كما لو أنه يتهمه بضلوعه في المؤامرة:

قال وهو يشير نحو النافذ: أغرب عن وجهي..

لم يكن إكليل يعرف الخطأ الذي فعله بحق سيده ليستحق منه تلك الطردة، لذلك فإنه لم يتحرك من مكانه وظل واقفًا لبعض الوقت لا يعرف ماذا عليه أن يفعل حتى صاح الطفل بوجهه: هيا!!

صعد إكليل بصعوبة حتى وصل حافة النافذة ثم وقبل أن يقفز إلى الخارج وابتعد نظر إلى سيده وأطلق صوتًا منخفضًا يشبه هديل حمامة تائهة فقال الطفل الذي فهم قصده: لا يهم فلتذهب إلى

الجحيم .. قفز إكليل من النافذة وراح يبتعد بخطوات شديدة البطء وكأنه بذلك يريد أن يعطي مجالاً لسيدته للتراجع .. غير أن سيده لم يتراجع عن قراره وظل يراقبه بنظرات قاسية حتى ابتعد وخرج عن مجال الرؤية.

لم يصل إكليل بعد للسن الذي يستطيع فيه الطيران بشكل جيد أو الدفاع عن نفسه ضد أي خطر قد يواجهه حتى ولو كان خطرًا بسيطًا؛ إنه لا يزال ضعيفًا بسبب صغر سنه وأي مواجهة له مع كلب عادي أو قطة متوحشة من الممكن أن تسبب له خطرًا مميتًا، لهذا فإنه كان يختبئ بعد كل خطوتين يخطوهما ويراقب طريقه جيدًا قبل أن يقوم باستئناف سيره من جديد .. ثم ولأنه لم يكن يملك أحدًا يذهب إليه في تلك الليلة فإنه قرر الذهاب إلى تاج .. صحيح أنه يخاف المشي وحده داخل الغابة المظلمة ولكنه لا يملك خيارًا آخر.

تمكن من الوصول إلى هناك لحظة شروق الشمس، وربما بسبب الضوء الخفيف الذي كان يتسرب بصعوبة شديدة من بين الأوراق الكثيفة لأشجار الغابة المظلمة، فإن إكليل استطاع كسر حاجز الخوف والدخول .. كان الضباب الثقيل العائم في الجو - داخل الغابة - يجعل الرؤية عليه أمرًا صعبًا ورغم أن هناك من كان يقترب منه يبتغي شراً، إلا أن إكليل استطاع الاحساس بتلك الخطوات.. فاخترعاً داخل فتحة كانت محفورة في جذوع إحدى الأشجار ريثما يزول الخطر .. مضى الكثير من الوقت قبل أن يشعر إكليل بالأمان ويقرر إكمال الطريق مجدداً، لكنه ما كاد أن يترك مخبأه ويخطو ثلاث خطوات نحو القلعة حتى شاهد أمامه ذلك الشيء المخيف

والذي جعله يتمنى من كل قلبه لو أنه ظل مختبئاً ولم يخرج ...

لقد كان يقف وجها لوجه أمام حيوان اليغور المرقط، وهو أحد الحيوانات الكاسرة التي سكنت قديما الغابة المظلمة .. وقد كان شكله النحيل وقوائمه الأربع الطويلة والمهندسة بشكل رشيق، تجعل فكرة الهرب منه مستحيلة بالنسبة لإكليل، أحنى حيوان اليغور المرقط قوائمه الأربع، ركز عينيه مباشرة على وجبته الخفيفة ثم حرك ذيله الطويل وكأنه يعطي لنفسه إشارة الهجوم، أما إكليل فإنه لم يملك أمام الموت إلا أن يصرخ بكل صوته الناعم الحاد الأشبه بمواء قطة رضيعة تفتش عن ثدي أمها هو بالطبع لم يكن يقصد إخافة حيوان اليغور بصوته، ولكنه صرخ لينادي تاج!!

لم تأت تاج لإنقاذه - ربما لأن الصوت لم يصل إليها - ولكن الغريب في الأمر هو أن إكليل ما كاد ينهي صرخته تلك حتى انكمش ذلك الحيوان الكاسر على نفسه وتحولت ملامح وجهه الشرسة لملامح وجه مرعوبة، تقهقر إلى الوراء بحذر ثم استدار وهرب بكل سرعته خائفاً .. واصل إكليل طريقه معتدا بنفسه معتقدا أنه استطاع إخافة حيوان اليغور بصوت صرخته، ولكنه بالطبع كان مخطئاً في ظنه فلو أنه فقط التفت في تلك اللحظة إلى الوراء لشاهد خلفه تارا تقف بكل حزم تنظر بغضب كامن نحو حيوان اليغور حتى خاف وهرب .. عندما وصل لمنتصف الغابة حيث تقع القلعة كان ريشه البرتقالي اللون قد أصبح متسخاً بفعل الأتربة والغبار وكان يلهث من شدة الخوف والخطر وطول المسافة التي قطعها سيرا على الأقدام، وأول من رآه في ذلك الوقت هو سابح الذي أطلق صهيقاً مرتفعاً ...

قالت تاج وهي تفتح أحد نوافذ القلعة:

- ما الخطب؟!

سابع وهو يشير بخطم أنفه نحو الأرض:

- انظري من جاء يا سيدتي...

قفزت تاج من النافذة برشاقة جنية شابة، اقتربت منه ثم سألت

وهي تهذه:

- ما الذي جرى؟ هل حدث لسيدك مكروه؟.. تكلم!!

لفرط الإرهاق لم يتفاعل طائر العنقاء مع ذلك السؤال فذهب سابع

وقام بتخزين بعض الماء البارد في فمه، ثم عاد وقام بسكبه فوق

إكيليل ليستعيد وعيه، أعادت تاج سؤالها عليه:

- لماذا أتيت وحدك وتركت سيدك هناك؟!

شرح لها إكيليل ما يريد قوله مستخدماً جناحيه ورأسه وذيله

وصيحات كان يُطلقها من وقت لآخر، وحين انتهى من ذلك الشرح

المتواضع سأل الحصان سابع سيدته

قائلاً:

- هل فهمت شيئاً من كل هذه الحركات يا سيدتي؟!

- أظن - ثم همست قبل أن تختفي:

- أعطني به في غيابي.

كانت السماء مُعتمة وجميع أهالي قرية الجساسة نيام في تلك اللحظة وحده الطفل من كان مستيقظا يحوم حول نفسه في المساحة الخالية الضيقة من الغرفة مثل نمر يحاول الفرار من قفصه .. حاول في البداية الهرب من النافذة لكنها كانت أضيق بكثير من أن يستطيع تمرير جسده من خلالها، حاول فتح باب الغرفة لكنه كان مغلقًا من الخارج بواسطة المزلاج .. فكر في العبور من الحائط غير أنه لا يزال حزينًا وهو لا يستطيع استخدام قوته عند الحزن، وبينما هو في تلك الحالة اليائسة إذ تذكر أمرًا ما جعله يقفز من مكانه ويهتف كالمجنون:

- أستطيع أن أعيد أُمي للحياة!!

لقد تذكر تلك الجملة التي كانت والدته تقولها له دائمًا بعد أن تحكي له قصة ما قبل النوم، تلك الجملة التي كان يغمض عينيه عند سماعها ويحلل في عقله كل كلماتها تحليلًا دقيقًا: «تذكر طوال عمرك يا بني أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه» ثم فكر عقله بهذه الطريقة: «إذا كان الرب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه مثل ما كانت أُمي دائمًا تقول؛ فأنا أستطيع أن أعيدها للحياة مجددًا لو أني دعوت الرب وطلبت منه ذلك»

رفع يديه ودعا بينه وبين نفسه: يا رب أعد لي أُمي، أعدها لقيد الحياة!!

كرر الدعاء في قلبه عدة مرات وعندما فرغ من دعائه ذاك كان

يجب عليه أن يجد طريقة ما ليخرج بها من بيت الساحرة ويذهب إلى المقبرة حيث سوف يُجيب الرب دعاءه ويجد والدته جومانا في انتظاره هناك .. وثب قائما على قدميه وقد ارتسمت على وجهه البريء ابتسامة سعيدة تشي بتفاؤله، لقد بدأ يشعر بالفرح يحل مكان الحزن ويشعر بقوة النار وهي تشتعل في داخله مجدداً.

تراجع خطوتين إلى الوراء نظر نحو الحائط بتحدٍ واضح:

- آبرآ كآ دآ برآآ، أنا الذي يصنع ما يقول!!

ثم انطلق نحو الحائط بكل سرعة.

ولأن الوقت كان متأخراً ولم يكن هناك أحد من سكان القرية مستيقظاً في ذلك الوقت وهو لا يعرف الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه للوصول إلى المقبرة فإنه توقف عند إحدى زرائب الحيوان ليسأل:

- هل هناك أحد أستطيع سؤاله عن شيء ما؟!

أجابه صوت قادم من داخل الزريبة:

- أنت حمار تائه؟!

أجاب قائلاً: لا، لست حماراً

تساءل ذلك الصوت مرة أخرى:

- أي نوع من الحيوانات أنت إذا؟!

- لست حيوانًا!!

- يبدو أنك حمار تائه وسكران

ثم استمع لصوتين يتضاحكان فقال:

- كنت أريد أن أسأل عن المكان الذي يذهب إليه الميت

توقفت فجأة أصوات الضحك وبدأ يستمع لأصوات حوافر تقترب
إليه قادمة من داخل الزريبة:

- لماذا تسأل عن ذلك الشيء أيها الحمار التائه؟!

ثم خرج له حمار اسمه سامري له رأس مثلث صغير الحجم وأذنان
طويلتان منتصبتان نحو الأعلى، توقف سامري قليلا كما لو أنه يريد
استيعاب الموقف وهو ينظر باستغراب نحو ذلك الكائن الواقف على
قدمين.

قال الطفل:

- رأييت، أنا لست حمارًا!!

حين شاهد سامري ذلك المخلوق يتحدث إليه نهق بكل صوته
كحمار يجرونه إلى حتفه، وفي أثناء ذلك النهيق المرتفع جاء صوت
آخر من داخل الزريبة يقول:

- ما بك يا سامري هل هجم عليك قطيع من السباع المفترسة؟!

توقف سامري عن النهيق لحظة:

- إنه بشري يا قُمرية تعالي وانظري!!

قالت قُمرية:

- هل هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها أحد البشر؟!

- بل إنها المرة الأولى التي أشاهد فيها بشريًا يستطيع الكلام!!

- ماذا تقصد؟!

- تعالي وستفهمين!!

وعندما جاءت قُمرية قالت وهي تنظر للطفل:

- لماذا يحدق ذلك الجحش البشري فينا بهذه الطريقة؟!

تدخل الطفل قائلاً: جئت أسأل عن شيء!!

صمتت قُمرية قليلاً تحاول تفسير قدرة ذلك المخلوق على الحديث بلغتها، وعندما لم تجد لتلك الظاهرة أي تفسير فإنها نهقت بصوت أعلى من نهيق زوجها في المرة السابقة، ولم تتوقف إلا حين قام زوجها برفسها في بطنها:

- اصمتي يا قُمرية ودعينا نفهم!!

تساءلت بذهول:

- ولكن .. كيف يستطيع هذا الجحش البشري أن يتحدث مثلنا؟!

- لا أملك وقتًا لأشرح لكما فأنا في عجلة من أمري

سألت قُمرية بتحفظ: هل أضعت الطريق؟!



- أريد فقط أن أعرف إلى أين يذهب الميت بعد موته؟!

- إلى المسلخة - قال سامري- إنهم يأخذونه إلى المسلخة حتى
يسلخوا جلده ويصنعوا منه الحقائق والثياب، والأحذية.....

قاطعت قُمرية حديث زوجها:

- يا زوجي الغبي.. إنه يقصد شيئًا آخر إنه يريد أن يعرف إلى أين
يذهب الميت بعد موته، والإجابة هي إما أنه يذهب إلى النعيم أو إلى
الجحيم...

وهنا تدخلت بومة بيضاء كانت تستريح على غصن شجرة قريب
تشاهد وتسمع ما يحدث:

- إنه يقصد المقبرة أليس كذلك أيها الولد؟!

ردد الطفل:

- المقبرة؟!

- نعم - قالت البومة البيضاء - حيث يقوموا بدفن الميت تحت
التراب.

تمتم بينه و بين نفسه بصوت مسموع:

- نعم أذكر أنه كان هناك الكثير من التراب ...

- حسنا اتبعني سوف أدلك على المكان.

رغم أن القبور كانت كثيرة ومتشابهة تقريبًا في العرض والطول

إلا أنه استطاع تحديد موقع قبر والدته بدقة ومن غير جهد مهتديًا فقط برائحة الياسمين التي كانت لا تزال تنبعث من قبرها، جلس هناك وجعل ينتظرها وكله يقين بأن الرب سوف يُجيب دعاءه ويعيدها إليه، سألت البومة البيضاء:

- ما الذي جاء بك إلى المقبرة في مثل هذا الوقت من الليل؟!

- جئت من أجل أُمِّي.. ستخرج من هنا بعد قليل

- لكن الأموات لا يستطيعون من قبورهم...

لم يناقشها وظل يحدق بتركيز نحو القبر، فقالت البومة البيضاء:

- أخبرني ما الذي يجعلك متأكدًا بأن أمك سوف تخرج من قبرها؟!

و من غير أن يزحزح نظره عن القبر شبرًا واحدًا أجابها بيقين:

- لقد كانت تقول لي دائمًا أن الرب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه

- وأنت دعوته أن يعيدها للحياة لهذا جئت إلى هنا، أليس كذلك؟!

أومأ لها برأسه بعلامة نعم، فسألت:

- هل تسمح لي بالبقاء معك؟!

- ولماذا تريد البقاء؟!

- لأنه لم يسبق لي من قبل أن رأيت ميتًا يخرج من قبره

- لا بأس - تتمم قائلًا - ابقِ

و حين تأخر الوقت كثيرًا وقاربت الشمس على الشروق ولم تعد

جوماننا إلى الحياة قالت البومة البيضاء:

- يجب أن تعود إلى البيت أيها الولد...

في الحقيقة نعم هو يجب أن يعود للبيت قبل أن تستيقظ أيار من نومها وتكتشف غيابه، نهض الطفل الذي بدا الحزن والإرهاق يظهران عليه بوضوح وقال:

- لا بد بأنني ارتكبت خطأ ما ...

- ماذا تقصد؟!

- أُمي أكدت لي أن الرب يجيب أي دعوة، وقد دعوته أن يعيدها للحياة ولكنه لم يفعل، لا بد بأنني ارتكبت خطأ ما ...

وجد أيار في انتظاره عندما عاد إلى البيت تقف عند عتبة الباب وتمسك بيدها عكازًا خشبيًا:

- كيف استطعت الخروج وباب غرفتك مقفل؟!

لم يعرف كيف يجيب فقال: قفزت من النافذة

- مستحيل أنت أكبر حجمًا من إطار نافذة غرفتك!!

كان يعلم أنها لن تصدقه لو أخبرها أنه اخترق الجدار فصمت

سألته أيار بنفاد صبر: لن تتكلم أليس كذلك؟!

- أخبرتك.. لقد خرجت من نافذة الغرفة

- وتكذب علي مرة أخرى؟!

قالت ذلك ثم بدأت تضربه بالعكاز بقوة كما لو أنه جرد ألقت عليه القبض في مطبخها متلبسًا وهو يسرق قطعة من الجبن، أما هو فإنه لم يُبال بالضربات التي تصبها أيار عليه فقد كان يفكر في شيء آخر: «في السبب الذي من أجله لم يستجيب الرب دعاءه» .. تمدد لاحقًا على أرضية الغرفة غير مبال بالجروح والكدمات العديدة التي أحدثتها أيار على وجهه وأجزاء متفرقة من جسده - كان شاردًا في التفكير بشأن المسألة ذاتها - ومع طول التفكير وكثرة الاحتمالات العديدة التي توصل إليها فإنه لم يقتنع إلا بإجابة واحدة فقط:

- لأن الرب لم يسمعني أصلًا - قال في نفسه ثم أضاف: فقد دعوته بقلبي وهو في السماء البعيدة كان يجب علي أن أرفع صوتي عاليًا حتى يصل دعائي إليه!!

إنه يتذكر الآن قصة النملة جرسا عندما تكلمت بصوتها المنخفض تأمر بقية أسراب النمل بسرعة الاختباء حتى لا يحطمهم النبي سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، يذكر تحديدًا أنه سأل أمه في ذلك اليوم عن الكيفية التي استطاع بها النبي سماع النملة الصغيرة ذات الصوت الصغير، فأجابته حينها بأن الرياح هي من قامت بإيصال صوتها إلى أذن النبي .. لهذا فإنه في اليوم التالي تسلل لسطح البيت .. تسلق حائط السطح بسرعة قرد.. رفع رأسه نحو السماء ثم ضم يديه عند فمه مستخدمًا إياهما كمكبر صوت وجعل يدعو بكل صوته أملًا أن تحمل الرياح صوته الصغير إلى سمع الرب:

- أعد لي أمي أيها الرب، أعدها لقيد الحياة!!

ثم مستخدمًا قوته الخاصة استطاع الخروج من البيت رغم

الاحتياطات العديدة التي وضعتها الساحرة أيار لمنعه من فعل ذلك..
كان يعدو نحو المقبرة بسرعة فائقة.. إنه متيقن بأن الرب سيُجيب
دعوته هذه المرة وبأن والدته سوف تخرج من قبرها، وحين يلقاها
سوف ينفض الغبار والأتربة من عليها، يحتضنها بقوة ويطلب منها
أن لا تغادره أبدًا وسيخبرها بأنه موافق على الذهاب للجد نوفل
ليتلقى منه العلوم والمعرفة، مثل ما كانت تريد منه أن يفعل في
السابق.

ثم وبينما هو يركض نحو المقبرة، إذ اقتربت منه البومة البيضاء
حتى أصبحت تحلق بمحاذاة رأسه:

- أرى أنك عدت مجددًا أيها الولد، إلى أين أنت ذاهب هذه المرة؟!

- للقاء أمي!!

- ألم تأخذ درسًا من البارحة؟!

- لقد عرفت الخطأ

- أي خطأ؟!

- سأشرح لك هناك.

وحين وصل لهنالك لم يجد والدته في انتظاره مثل ما كان يتوقع،
فقرر أن يجلس بالقرب من قبرها لعلها تعود في أي لحظة .. انتظر
هذه المرة مدة أطول من البارحة وعندما شعر بأن شيئًا لن يحدث
فإنه نهض واقفًا وقد بدا مثقلًا بالضياء وخيبات الأمل، قال وهو
ينفض الغبار عن ثيابه:

- يبدو أن السماء لا تُجيب...

عادت إليه حالة الحزن مرة أخرى سار نحو البيت بخطوات متثاقلة، كان باله مشغولاً بالتفكير في السبب الذي من أجله لم يجاب دعاءه هذه المرة .. لم تشأ البومة البيضاء أن تتركه وهو في هذه الحالة من الحزن فحركت جناحيها ولحقت به:

- لا تقلق .. سوف تلتقي بها في النعيم

- لم أعد واثقًا - قال - لم أعد واثقًا بأن هناك نعيمًا أصلاً!!

- لماذا تقول هذا؟!

ارتجفت ذقنه وهو يسأل متشككًا:

- إذا كان الرب في السماء فعلا فلماذا لم يُجب دعائي؟!

وقبل أن تعلق البومة البيضاء قال «دعيني وشأني» ثم راح يركض مبتعدًا.

وجد أيار هذه المرة أيضًا تنتظره عند عتبة الباب تحرك فكها مثل ناقة تجتر طعامًا؛ فقد خبأت له بصقة في فمها منذ اللحظة التي اكتشفت فيها غيابه عن البيت، وعندما رآته قادمًا من البعيد حكّت جدار حلقها بصوت يشبه خوار بقرة حتى تضمن أنها سوف تجمع كل أوساخ فمها في قذيفتها القادمة، وعندما اقترب منها وأصبح في مجال رميها بصقت عليه في وجهه ثم بدأت تكيل له الضرب بيديها وقدميها.

أما هو فقد جعل يتلقى تلك اللكمات والرفسات وهو يردد في

نفسه:

- لو كان هناك رب في السماء لأجاب دعائي.

بعد نصف ساعة توقفت أيار عن ضربه ، ولكن ليس إشفاقًا عليه بل لأنها لم تعد ترى مكانًا جديدًا تستطيع تسديد ضرباتها إليه، بصقت عليه للمرة الثانية وكأنها بذلك تضع نقطة لنهاية السطر ثم غادرت.

أما هو فإنه نهض من مكانه متوجعًا وسار إلى غرفته بجسد متورم ووجه ينثال منه الدم .. جلس القرفصاء في إحدى زوايا غرفته صامتًا يفكر في أجوبة تبرر عدم إجابة الرب لدعاءه، ثم توصل في النهاية إلى حل أخير تمتم بينه و بين نفسه قائلاً:

- ليس هناك شيء اسمه الرب...

حين مضت عليه الأيام التالية وهو بخير ازداد يقينًا بعدم وجود الرب، حتى إنه قال في نفسه ذات مرة بحقد وهو ينظر إلى السماء الصافية من خلال نافذة الغرفة:

- لو كنت هناك أصلًا لعاقبتني لأنني تخليت عنك.

ثم ولأن القلوب تموت عندما تفقد الخيط الدقيق الذي يربطها بالسماء، فإن قلبه مات رغم أنه لا يزال ينبض بالحياة.. تبدل مزاجه وبدأ يتحسس وحشًا ما يولد بداخله .. أصبحت عينه اليسرى حمراء قائمة كالدم، وبات يشعر برغبة شديدة في إيذاء أحدهم .. اتجه نحو الغرفة التي تنام فيها الساحرة حاول فتح باب غرفتها ولكنه كان موصدًا بالمزلاج ، فقد كانت أيار من ذلك النوع الذي لا يعرف أن يخلد للنوم إلا بعد أن يتأكد من أنه في مكان مغلق .. لم يكن واثقًا من قدرته على استخدام مهارة العبور آنذاك ورغم هذا إلا أنه تراجع إلى الوراء ثم سمح لقدميه بأن تدفعانه نحو الباب.

كانت الغرفة مظلمة من الداخل وهناك صوت شخير منتظم ينبعث من فوق السرير، أزاح الستائر كي يسمح لضوء القمر بالعبور ثم تقدم حتى اقترب من أيار، ومع كل خطوة يخطوها كان يشعر بجسده يصبح أكثر تحجرًا وصلابة ويشعر بأن هناك أسياخًا من الحديد تسبح داخل عروق يديه...

كان جسده حارًا ويتنفس بصعوبة شديدة ويعاني رجفة حادة

بأطرافه، إنه يتعرق بشكل غير طبيعي ويحس بألم قاس نتيجة لذلك الشيء الغريب الذي يحدث له، لم يمض عليه الكثير من الوقت حتى نظر إلى يديه مستعينًا بضوء القمر الخافت المنبعث من نافذة الغرفة، فشهد الجروح التي بدأت تتشقق شيئًا فشيئًا من عند رؤوس أصابعه والمخالب السوداء المعقوفة والحادة التي كانت تخرق اللحم وتنمو إلى الخارج.

لم يشعر بالخوف أو الغرابة وهو يشاهد بعد قليل يديه وقد أصبحتا تشبهان يدي وحش خرافي.. وبدا كما لو أن ذلك الشيء الذي يحدث معه كان طبيعيًا جدًا.. قال بصوت يختلف عن صوته العادي وهو يلكز جسد أيار بأحد مخالبه:

- أنت - ثم أضاف هامسًا: استيقظي!!

فتحت أيار عينيها متفاجئة بوجوده أمامها، حاولت أن تستخدم سحرها في الدفاع عن نفسها ولكنه لم يدع لها فرصة إلقاء تعويذة ضده فقد باغتها بأن غرس مخالبه في صدرها بقوة لتغوص عميقًا في تكتلات الدهون واللحم، ولم تتوقف يده عن الحفر حتى وصلت قلبها .. «لقد كان ذلك ممتعًا» هذا ما شعر به وهو ينتشل القلب من وراء قفصها الصدري ويشاهد الكتلة الحمراء اللزجة تنبض بسرعة في محاولة للتمسك بالحياة، ثم تضعف تدريجيا حتى تتوقف في الأخير من تلقاء نفسها .. وما كان أكثر إمتاعًا من كل ذلك بالنسبة إليه، هو عندما تذوق طعم قلبها بطرف لسانه ووجده لذيذًا وشهيًا وصالحًا للأكل .. اتجه بكل سرعة وهمجية نحو قلعة الأباطرة ضاربًا بقدسية الغابة المظلمة عرض الحائط، الأمر الذي ما كانت تارا لتسمح

به لولا أن ذلك الصبي هو ابن أعز صديقاتها، صاح بصوت غاضب
عندما أصبح أمام القلعة:

- تاج أظهري نفسك!!

ولأنه لم يتلق جوابًا على طلبه فإنه صاح مرة أخرى بصوت أعلى:
أين أنت يا تاج!!

فتحت تاج نافذة الطابق الثاني، رأتَه وهو يقف أمام القلعة
واستطاعت من مكانها ذاك أن تميز رائحة الدم الطازجة والتي تفوح
من مخالب يديه وفمه ...

- تنزّلين أم أصعد إليك؟!

- سأنزل.

هبطت إليه كما طلب منها وتعمدت أن تقف بعيدا عنه بعض الشيء
حتى تستطيع تفادي هجومه في حال قرر مهاجمتها، ثم وفي
محاولة منها لامتصاص غضبه قالت:

- لقد قمْتُ بتحذير والدتك، نصحتها بأن لا تحاول اكتشاف
الحقي....

- كفى - صاح في وجهها مقاطعًا - لا أريد أن أسمع منك شيئًا!!

- لماذا جئت إذا إن كنت لا تريد أن تسمع مني شيئًا؟!

- لأقتلك!!

ثم وفي لمح البصر اصطبغت عينه اليسرى باللون الأحمر القاتم وانطلق نحوها شاهراً في وجهها مخالبه الحادة ذات النهايات المعقوفة، حاول إصابتها في أي مكان بجسدها ولكنها تمكنت من مناورة تلك الضربة في اللحظة الأخيرة قالت:

- هل موتي سيجعلك تشعر بالرضا؟!

لم يتكلم بل استدار حول نفسه ثم قفز باتجاهها، محاولاً إصابتها للمرة الثانية ولكنها تمكنت من مناورة تلك الهجمة أيضاً:

- لن تستفيد شيئاً لو أنك قتلتني .. لن يعيد لك هذا أمك!!

- لماذا لا تواجهيني؟! هل أنت لهذا تحدّ شعيرين بالخوف؟!

هي تعلم بأنه في هذه اللحظة مثل وحش جريح يريد تحطيم أي شيء أمامه لأن جرحاً ما ينزف بغزارة من جسده، وتعلم أيضاً بأن الحكمة في مثل هذه المواقف تتطلب الصبر واتخاذ القرارات السليمة، صحيح أنها لا تملك خطة واضحة للتعامل مع غضبه ولكنها ستحاول شراء بعض الوقت ريثما يهدأ من تلقاء نفسه، قالت:

- عرضت عليها الحماية لكنها طلبت مني البقاء بعي.....

قاطعها: أخبرتك بأنني لا أرغب في الاستماع لشيء!!

قالت بهدوء وهي تتوخى الحذر منه: لو أنك تسمعني فقط لكنت سأقدم لك معروفاً لن تنساه بكشفي لك عن الحقيقة: إن كنت ترغبين في تقديم معروف لا أنساه، فتوقفي عن الهرب!!

قام بهجوم ثالث ضدها ولكنها لم تهرب من أمامه هذه المرة بل

وقفت في مكانها ثابتة مثل ما طلب منها .. وقبل أن يغرس مخالبه في صدرها، مدت يدها وأمسكت بمعصم يده، ثم نظرت إليه بجدية وقالت:

- أنا من علمك استخدام هذه القوة أيها الولد، هل تظن حقا أنني لن أستطيع إيقافك؟!

- لا يكفي أن توقفيني - قال وهو يحاول الفكك منها:

- عليك التخلص مني؛ لأنك إن لم تفعلني فسأقوم بقتلك يومًا.

- الشجاع لا يقاتل إن كانت هناك فرصة للسلام

- وفري نصائحك لنفسك!!

صاح عليها ثم سد لها طعنة بمخالب يده الثانية ولكنها كانت تتوقع منه تلك الحركة سلفًا، لهذا استطاعت أن تلقي القبض على معصم يده الآخر قبل أن ينجح في إنفاذ طعنته لجسدها، تكلمت:

- لقد طلبت أمك مني البقاء بعيدًا حتى لا يعرف أبوك أنها جنية!!

- أمي ليست جنية!!

- إذا من أين لك كل هذه القوة؟! وكيف استطعت التحدث مع

الحمارين عند تلك الزريبة إن لم تكن أمك جنية أيها الأحمق؟!

- كيف عرفت بحكاية الحمارين؟!

- تلك البومة البيضاء - قالت ببرود - كانت أنا!!

- ليس ظريفًا أن تقومي بخداع الآخرين!!

- لم أقم بخداعك

قالت ذلك وهي لا تزال تلقي القبض على يديه، ثم أضافت: كان يجب علي أن أكون بجانبك وأنت في تلك الحالة؛ أنت حفيدي وأنا لن أراك تقوم بإيذاء نفسك ولا أتحرك لمساعدتك!!

ظل يحاول تحرير مخالفه من قبضتها ولكن بدون فائدة، لقد كانت تحكم القبض عليهما بيد من فولاذ ولا تسمح له بتحريكهما ولو قليلاً، يجب عليه أن يفكر بطريقة أخرى للهجوم إن كان يريد حقاً تحقيق ما جاء من أجله: أنت من قام بتحويلني إلى وحش!!

- لو لم تكن أمك جنية لما استطعت تحريك القوة بداخلك.

فتح فمه وتفاجأت تاج بأن أربعة من الأنياب السيفية قد نبتت في فمه، حاول أن يقوم بغرسها في عنقها لكنها ضربته برأسها على وجهه حتى تبعده عنها:

- دعني أعترف لك بشيء - قالت وهي تلهث - أنت أقوى مما ظننت، ولا أعتقد أنني سوف أتمكن من تفادي هجماتك لفترة أطول، فإما أن تسمعني بأدب وإلا فسأضطر للرد عليك بهجوم لن تنجو منه!!

بالطبع تاج تكذب فهي لن تستطيع إيذائه - ليس لأنها جدته فقط - بل لأنها تدرك بأن تارا تختبئ في تلك اللحظة خلف إحدى الأشجار، ترصد وتراقب ما يحدث وهي لن تسمح لها بأذيته .. مسح بظهر يده خيطاً من الدم بدأ يتسرب من فتحة أنفه هو لا يملك نية للتراجع أو الاستسلام ولكنه في الوقت ذاته فكر في أنه لن يخسر شيئاً لو استمع للكلام الذي تريد إخباره به فقال باستهانة:

- لتكن كلماتك الأخيرة صادقة ...

ابتلعت تاج تلك الإهانة وقالت:

- لقد جاءت أمك لزيارتي في إحدى الليالي.. طلبت مني المساعدة في اكتشاف الحقيقة، قالت لي بأن قلبها لم يعد في إمكانه احتمال المزيد، قالت بأنها تريد أن تعرف لماذا كان أبوك يختفي عنها طوال تلك المدة أما أنا فلم أتمكن من رفض طلبها إنها ابنتي على كل حال وكنت أريد أن أفعل أي شيء من أجل تحسين علاقتي بها ...

ذهبت فورًا لتقصي الأخبار ولكنني لم أكن أتخيل أبدًا أنني سأتوصل لتلك الحقيقة التي اكتشفتها!!

بدأت ذقنها ترتجف من شدة التأثير وهي تكمل حديثها:

- في اليوم التالي جئت لبيتكم لأقوم بتحذيرها لكنها لم تُصغ لي!!

ردد بصوت خافت وكأنه بدأ يربط الأحداث بعضها ببعض:

- لم تُصغ لك؟!

- ألم تأمر أمك بالبحث عن أبوك؟!

أجاب وهو يتذكر: أمرتني بأن أعثر عليه حتى لو كان مختبئًا تحت الأرض...

قالت وهي تستعيد ذكرياتها:

- في الماضي البعيد كان والدك بحر يعمل لمصلحة منظمة كبيرة اسمها الجاثوم، مهمتها إحداث الخراب والدمار في جميع أنحاء مملكة أباييل وقد كان والدك يعد أحد أهم قادات تلك المنظمة، غير

أنه اعتزلهم نهائيًا عندما التقى بوالدتك جوماننا ووقع في حبها ...

صمت ولم يعلق لكن عيناه قالت: «ماذا حدث لاحقًا؟!»

- تزوج الاثنان وعاشا لسنوات طويلة في سلام وأمان للحد الذي اعتقد معه أبوك بأن منظمة الجاثوم انصرفت عنه ونسيت أمره تمامًا، ولكنه كان مخطئًا بالتأكيد فعندما أصبحت أمك حاملاً بك، جاء ناب الفيل بنفسه لزيارة والدك..

شد ذلك الاسم انتباهه فسأل:

- ناب الفيل؟!

- إنه رئيس منظمة الجاثوم

- ولماذا جاء؟! ما الذي كان يريد؟!

- جاء كي يستعيده لصفوف الجاثوم؛ فقد كانت المنظمة في حاجة إليه.

- وهل وافق؟!

- في البداية لم يوافق ولكن ناب الفيل هدده بقتل زوجته وقتل الطفل الذي كان في بطنها والذي هو أنت!!

- وماذا فعل بحر؟!

- هو كان يعلم بأن ناب الفيل لا يهدد عبثًا وبأنه واحد من أولئك الأشخاص الذين إذا قالوا شيئًا فإنهم يفعلونه، لهذا فإنه قرر أن يعقد صفقة معه.. وحتى تكون تلك الصفقة أكثر جدية فإنهما قاما بإحضار جفنة مليئة بالدم، ثم غمسا أيديهما فيها وتعاهدا.

- على ماذا؟!

- على أن يعود والدك للعمل معه مقابل أن يتعهد ناب الفيل بتركك أنت وأمك تعيشان بسلام.. وأطلقا على العهد اسم «ميثاق الدم»

قال مستنرجًا:

- هذا يعني أن غياب بحر عن البيت كان لأجل حمايتنا أنا وأمي؟!

حركت تاج رأسها بأسف ثم أضافت: كان ناب الفيل يعلم أن لا شيء يُفسد قلوب الرجال غير الحب لذلك وضع تلك الفتاة الساحرة التي اسمها أيار في منزل واحد مع أبوك، حتى تراقب تحركاته وقد أعطاهَا أمرًا بأن تقوم بقتلك أنت وأمك في أحد ثلاث حالات ...

- ثلاث حالات؟!

- نعم وهي إما أن يتوقف بحر عن العمل مع المنظمة، أو يقرر زيارة عائلته لأي ظرف كان، أو تحاول زوجته اكتشاف الحقيقة، لذا فإن اللحظة التي أرسلتك فيها أمك للبحث عن والدك، هي ذات اللحظة التي حكم فيها عليكما ناب الفيل بالموت، ولكنك أيها الولد نجوت بأعجوبة!!

زمجر بغضب:

- ناب الفيل !!!

- نعم هذا هو اسم الشخص الذي قتل أمك وحاول قتلك.

ثم تجرأت تاج بالاقتراب منه وقالت: والآن انظر إلى عيني وكرر اسمه مرة أخرى.

نظر إلى عينيها مثل ما طلبت منه وكرر: ناب الفيل !!!

- من أجل هذا اعتنيت بك وقممت بتدريبك - قالت مُعترفة - عدني
بأنك ستنتقم لها .. عدني بأن تثار لموت أمك جوماننا!!

قال متوعدًا: أعدك بذلك

أبعدت يديها عن رأسه و همست:

- هل أنت مستعد الآن لتسمع النصف الآخر من الحقيقة؟!

- ما زال هناك نصف آخر؟!

قالت تاج له شيئًا مرعبًا: الحقيقة التي تخصك أنت لم تبدأ بعد...

لم تكن تعرف كيف تخبره عن الموضوع القادم، إنها بصد أن
تكشف له عن الخطة التي لجأت إليها الساحرة أيار لقتل أمه، وما
يجعل الأمر أكثر صعوبة هو أنها ستخبره بأنه - وعن غير قصد - كان
جزءًا هامًا في إنجاح تلك الخطة قالت:

«كانت أيار تعرف جيدًا عادات أهالي قرية الجساسة أيها الولد،
لذلك لم تبذل جهدًا كبيرًا في التخلص من والدتك، لقد دست لها
السم في جرة ماء صغيرة بنية اللون وطبق طعام أبيض، وقامت
بوضعها عند عتبة باب البيت ثم رحلت قبل أن يراها أحد، ويبدو
أنك عندما رأيت طبق الطعام ذاك وتلك الجرة ظننت مخطئًا أن
إحدى جارات أمك من قامت بوضعها لكما هناك فقامت بإدخالهما
للبيت أليس هذا صحيحًا؟!»

قال متذكرًا الليلة الأخيرة التي جمعته بوالدته، وقد بدأت أمائر

المصيبة تظهر على وجهه:

- في تلك الليلة طلبت أمي أن أحضر لها كأسًا من الماء...

- وماذا؟! - سألت - وما الذي حدث، لماذا سكت؟ .. أكمل!!

- لقد قُمت بصب الماء لها من تلك الجرة المسمومة!!

كانت الصدمة التي تلقاها قوية عليه للحد الذي جعله يفكر بالرحيل بعيدًا عن قرية الجساسة؛ لقد قدم بيده السم لوالدته حين طلبت منه أن يحضر لها بعضًا من الماء، ورغم أنه لم يكن يعلم بوجود السم في تلك الجرة إلا أنه لن يستطيع أن يغفر لنفسه أنه كان سببًا في قتلها:

- لم أعد أشعر برغبة في البقاء هنا أشعر بأن كل شيء يذكرني بأمي في هذه المنطقة...

- ماذا تريد أن تفعل؟!

- لا أعلم كل ما أعرفه هو أنني أريد أن أعانقك - قال ذلك ثم أضاف: هل أستطيع معانقتك يا تاج أم أنك غاضبة مني، لأنني هاجمتك وكنت سببًا في قتل أمي؟!

- بالتأكيد لم تكن تقصد أيها المسكين - ثم احتضنته وهي تتمتم:

- تعال إلى جدتك.

- أشعر بأن قلبي يتمزق أشعر بأنني حزين جدًا!!

همست في أذنه بصوت يدعو للتفاؤل:

- مهما كانت أحزانك كبيرة تذكر أن كل شيء سوف يمضي.

لم يكن واثقًا من الكلام الذي يسمعه من جدته الآن فلفرط حزنه السحيق جدًا كان يشعر بأن ذلك الحزن سيرافقه طوال عمره، شعرت تاج بما كان يفكر به حفيدها فقالت:

- كل شيء سيمضي أنت فقط عليك أن تصمد لبعض الوقت، أن
تقاتل من أجل الوقوف مهما اهتزت الأرض من تحت أقدامك ...

- ولكنني أشعر برغبة في السقوط، هذه الذكريات ستظل تجرني
نحو الأسفل كلما حاولت الارتفاع.. هذه الذكريات ستخنقني كلما
أردت أخذ أنفاسي.. أنا لا أعرف ماذا أفعل!!

- لا تسقط هذا ما يجب عليك أن تفعله - ثم أضافت وهي تنظر
إليه: عندما تسقط سيتسابق الجميع نحوك .. ولكن ليس من أجل
أن يساعدوك على النهوض بل لكي يقفوا فوق جثتك ويصبحوا أكثر
طولاً؛ أنت لا تعرف كم يصبح الأشخاص قذرين عندما يرون شخصاً
مكسوراً أيها الولد، لهذا احتفظ بأحزانك لنفسك واسقط واقعاً إن
كان لا بد لك من السقوط.

أوما لها برأسه دليلاً على الفهم والطاعة:

- أأنت مصر على الرحيل الآن، أستطيع إعطائك سائل النسيان مرة
أخرى لو أردت.

- لا .. لا أريد لناب الفيل أن يغيب عن بالي

- سوف يكون إكليل مفيداً لك لو أنك تأخذه معك.

- صحيح لقد نسيت أمره تماماً - هتف متذكراً - أين هو؟!

وحينها طل إكليل برأسه من وراء بوابة القلعة.

يجب عليه أن يغادر بسرعة إن كان يريد مساعدة نفسه على
نسيان الألم ونفض غبار الحزن عنه، لقد كانت في داخله رغبة كبيرة

لانتقام للحد الذي قد يدفعه لأن يحرق العالم كله .. هو الآن لا يملك مكانًا محددًا للذهاب إليه، بل سوف يدع المصادفة والأيام والدروب يأخذونه إلى حيث يجب عليه أن يكون: أنت في حاجة لأصدقاء يساعدونك في تحقيق مهمتك القادمة؛ فأنت دائمًا معرض للخيانة والغدر أيها الولد.. كل شيء قد يخذلك في هذا العالم.. ولكن الشيء الوحيد الذي تستطيع أن تدير له ظهرك وأنت مطمئن إلى أنه لن يطعنك من الخلف هم الأصدقاء..

- وكيف أجد الأصدقاء؟!

- لا تقلق سوف تسوقهم إليك المصائب؛ فالأصدقاء الذين تتعرف عليهم في الظروف الصعبة هم الأصدقاء الذين يبقون معك لآخر الطريق - وأضافت تقدم له نصيحة مهمة: وإياك أن تقع في الحب فالشخص الوحيد الذي كان يستحق حبك قد مات هل تفهم؟!

- أفهم.

- لا تدع الحب يخدعك أيها الولد؛ فمهما بدا جذابًا وبراقًا في البداية إلا أن نهايتك ستكون قد بدأت في اللحظة التي يتنفس فيها الحب بداخلك...

ثم أضافت تقول:

- غدا سوف تستيقظ شهواتك وغرائزك الرجولية وستجعلك تتلوى في فراشك محمومًا مثل شخص مصاب بالصرع، خذ حاجتك من النساء ثم احذفهن بعيدا عنك ولا تلتفت لهن أبدا .. هل هذا مفهوم؟!

هز رأسه وقال: نعم، مفهوم...

حمل إكليل ووضعه فوق كتفه نظر نحو جدته وقال:

- سترحل الآن.

- عاصف - قالت تاج - سيكون اسمك عاصف...

- عاصف؟!

قالت تبرر له اختيارها الاسم:

- منذ زمن قديم والجاثوم تمد جذورها في أراضي أبابيل .. لم يتمكن أحد من إيقافها أو التصدي لها، أنت هو الشخص الذي سوف يعصف بهم ويقتلع جذورهم من تربة هذه البلاد ويعيد الأمور لمجراها الصحيح، لذلك سيكون اسمك عاصف...

حرك إكليل جناحيه فوق كتفه واستطاع أن يرتفع بضعة أمتار فوق الأرض ويردد:

- عاصف .. عاصف!!

- لقد بدأ يتكلم، هل سمعته؟! لقد قال عاصف!!

وقبل أن يغادر الغابة قالت له تاج شيئًا سوف يساعده في تأرّه:

- هناك جنية اسمها خيزران هي وحدها من ستساعدك في الانتصار على ناب الفيل..

- جنية اسمها خيزران؟!

مدت تاج يدها عند عنقها وانتزعت قلادة كانت تخبئها طوال

الوقت أسفل ثيابها، نظر عاصف إليها وهو لا يعرف ما الذي تعنيه تلك القلادة ولا السبب الذي من أجله أظهرتها جدته في ذلك التوقيت بالذات، كانت مصنوعة من سلسلة ذهبية دقيقة تنتهي بصفحة حجرية غير منتظمة الشكل منقوش عليها كلمة «أباطرة أبابيل»

- ما هذه؟

قالت وهي تعلق القلادة في عنقه:

- هذه قلادة الأباطرة ولا يتقلدها إلا فرد من أفراد العائلة.

وما أن انتهت تاج من تعليق القلادة في عنقه حتى شغ من حروفها وهج أصفر لم يدم طويلا حتى انطفأ:

- لماذا تعطيني إياها؟!

- هذه سوف تساعدك في مقابلة خيزران

- وكيف سأجدها؟!

- لا تقلق هي من ستجذك ولكن عندما تصبح رجلاً!

- لقد أصبحت في الثامنة عشرة من عمري ألسن برجل؟!

- إن الرجولة ليست بالعمر.

وكان هذا آخر ما قالته جدته له قبل أن يرحل هو وإكليل عنها.

وهكذا انطلق عاصف مع إكليل للتفتيش عن أصدقاء يكونون له حلفاء في الأيام القادمة؛ ليساعدوه في أخذ ثأره من ناب الفيل

عندما ينجح في العثور عليه.

في هذه الأثناء خرجت تارا من المكان الذي كانت تختبئ فيه خلف إحدى الأشجار، اقتربت زاحفة ببطء حتى توقفت مباشرة إلى جوار تاج وسألت: لماذا لم تخبريه بأن ناب الفيل هو نفسه طاغين ملك مملكة أبايل؟!

- لو كنت قد أخبرته بذلك لبحث عن قصر طاغين مباشرة وقام بالهجوم عليه؛ إنه متهور وهو لا يزال أضعف بكثير من أن يتحداه بمفرده ولكن عندما ينضج قليلاً ويصبح مستعداً لذلك سوف ترشده الوزيرة خيزران إلى الطريقة الوحيدة التي يستطيع من خلالها الأخذ بالثأر وإعادة عرش مملكة أبايل للملك الحقيقي ، لجده جبار الأباطرة.

- ربما تكونين محقة في ذلك.

- إنني أشعر بالخوف عليه يا تارا هل تظنين بأنه سينجو؟!

- لقد قذفت به لوسط الجحيم وسيحتاج للكثير من الحظ حتى ينجو.

صمت الاثنان قليلاً ثم سألتها تارا بجرأة غير متوقعة:

- ألن تحزني لو أن عاصف استطاع فعلاً قتل ناب الفيل؟!

أجابت تاج قائلة: لم يعد ناب الفيل أخي منذ اللحظة التي انقلب فيها على زوجي جبار وأخذ منه العرش غدراً ...

امتدت بينهما لحظة صمت قطعتها تاج بعد لحظات بسؤال جريء
مضاد:

- حان دورك لتجيبني أنتِ بصدق يا تارا

- أنتِ تعلمين بأنني لا أقول غير الصدق

- أعرف أنك لا تكذبين

- اسألي إذا

- لماذا ذهبت لزيارة جومانا في تلك الليلة التي ماتت فيها؟!

لم تجبها كوبرا الجن وزحفت مبتعدة...

- لا تديري لي ظهرك يا تارا أجيبني عن سؤالي!! ماهو الشيء الذي

دفعك للذهاب لبيت جومانا في الليلة التي ماتت فيها؟!

أكملت زحفها نحو الغابة دون أن تتوقف أو تلتفت:

- لا أستطيع أن أخبرك

- ولماذا عساك لا تستطيعين أن تخبريني؟!

- لأنني لا أكذب والحقيقة لن تعجبك أبدا ...

تارا هي الشخص الوحيد الذي كان يعرف الجزء المتبقي من

الحقيقة ذلك الجزء الضئيل الذي لم يكن أحد غيرها في العالم

يعرفه، وهو أن جومانا كانت قد تناولت من جرة الماء البنية تلك

وهي تعرف أنها جرة ماء مسمومة ...

تعدى عاصف حدود الغابة المظلمة ثم بعد ذلك حدود قرية الجشاسة ولم يكن يعرف أي الطرق يجب عليه أن يسلك، ورغم هذا إلا أنه واصل السير غربًا هو وإكليل لفترة طويلة جدًا حتى اقتربت الشمس من الغروب، وبدأ الاثنان يشعران بالجوع والعطش:

- إكليل انظر هناك - قال وهو يشير نحو البعيد - إنها قافلة!!

كانت هناك قافلة تجارية طويلة فيها العديد من الفيلة الضخمة التي كان بعضها محملاً بصناديق كبيرة، والبعض الآخر يحمل على متنه فتيات وفتيانًا صغارًا يجلسون متحاشرين في هودج ضخمة كانوا في الطريق بهم نحو سوق الجواري والعبيد .. كانت القافلة ترفع العديد من الرايات الملونة المكتوب عليها « تجارة الشابندرعدنان » بينما تسير متقدمة نحو الأمام يحفها الخدم الذين يحرصون على رفاهية وخدمة التجار المسافرين، ويحفها أيضًا الحرس المستأجرون لحماية البضائع التجارية من أطماع اللصوص وقطاع الطريق: أستطيع أن أشم رائحة شهية منبعثة من تلك الصناديق الكبيرة - قال عاصف ثم أضاف:

- لا بد أن فيها الكثير من الطعام الشهى، أليس كذلك؟!

- إكليل جاع ...

- جائع وليس جاع - قال عاصف مصححًا وأضاف: تعال نتسلل إلى هناك نأخذ ما نشاء من الطعام، ثم نهرب قبل أن يرانا أحد!!

ربما ساعد غروب الشمس عاصف وإكليل كثيرًا على أن لا يثيرا انتباه أحد وهما يتسللان من مؤخرة القافلة لداخل أحد صناديق

المؤمن الغذائية المربوطة بإحكام على ظهر أحد الفيلة، وربما لو أنهما التفتا للخلف وهما يتسللان لصندوق المؤمن الغذائية ذاك لشاهدا فأرا له لحية طويلة نسبيا تشبه لحية عنز فحل كان يلحق بهما منذ اللحظة التي تعديا فيها حدود قرية الجساسة .. ملأ الاثنان بطنيهما من الأكل، قال عاصف متخفا

- كما توقعت كان الطعام لذيذا هنا

قال إكليل وهو يتجشأ: لذيذ

وقال صوت آخر معهما في الصندوق:

- هل غادرت قرية الجساسة من أجل أن تملأ بطنك بالطعام؟!

تساءل عاصف متعجبا: من هناك؟!

قال إكليل وهو ينظر نحو نقطة معينة في ظلام الصندوق: فأر

- فأر يدخل في منخارك يا طائر البرتقالة أنا لست فأرا أنا الحكيم!!

ولأن الصندوق كان مظلمًا من الداخل فإن عاصف لم يتمكن من

رؤية الشخص الثالث الذي كان يتكلم معهما، لذلك فإنه سأل:

- أي حكيم؟!

- الحكيم الذي ساعدك في ليلة المطر!!

- كف عن الكذب!!

- لا أكذب، أنا الحكيم ولكن جدتك حولتني لفأر!!

- ولماذا عساها أن تفعل ذلك؟!

- جدتك امرأة منحرفة لقد جاءت منزلي ليلاً كي تراودني عن نفسي ولكن عندما أخبرتها بأني لا أبادلها الشعور نفسه غضبت مني وحولتني لفأر.. نساء تافهات!!

قال إكليل وكأنه استطاع شم رائحة الكذب في كلام: كاذب!

- لست كاذباً.. هل تعرف من الكاذب؟! إنها تاج لقد كذبت عليك عندما أخبرتك بأنك فرخ طائر عنقاء، بينما أنت لست إلا برتقالة متكلمة غبية!!

- كفى أنتما الاثنان - قال عاصف ثم أضاف - لماذا تبتعني إلى هنا؟! - أريدك أن تساعدني...

- بـم؟!

- بأن تعيدني مثل ما كنت سابقاً

- كيف؟!

- أنت مخلوق هجين ومن المؤكد أنك تعرف كيف تفعلها

- أنا لا أعرف كيف أقوم بإلغاء التعاويذ!!

- غـد بي لجدتك إذا واطلب منها أن تفعل هي ذلك

فكر عاصف:

- وماذا سأحصل في المقابل؟!

- كنت أعرف أنك أبله ومتهور ولكن لم أكن أعرف أنك مبتز أيضاً!!

- لا تغير الموضوع ما الذي سأحصل عليه في المقابل؟!

- سأحقق لك أمنية ما رأيك؟!
- لو كنت قادرًا على تحقيق الأمانى لكنت قد نفعت نفسك.
- اللعنة عليك أيها المبتز قل لي ما الذي تريده؟!
- تردد قليلًا قبل أن يبوح:
- أريد أن أصبح رجلًا!!
- الحكيم وهو يضحك ساخرًا:
- هذا أغرب طلب سمعته في حياتي!!
- قاطعًا عليه سخريته سأل:
- ماذا قلت هل ستساعدني في أن أصبح رجلًا؟!
- ولماذا تريد أن تصبح رجلًا؟!
- لأن هناك امرأة أريد مقابلتها!!
- أنا حكيم ولست شيئًا آخر!!
- لم أعن ذلك الشيء الذي فهمته
- ماذا كنت تعني هاه؟!
- هناك امرأة اسمها خيزران أريد لقاءها في أمر هام!!
- يا سلام وما دخل هذا بذاك؟!
- لن أستطيع لقاءها قبل أن أصبح رجلًا...

- وما الذي تريده منها؟!

- أريدها أن تساعدني في أخذ ثأري

- ماذا قلت لي كان اسمها؟!

- خيزران!!

- هل تقصد الجنية خيزران؟!

- هل تعرفها؟!

- إن صح ما أعتقده فإن تلك التي تبحث عنها يقال بأنها الوحيدة التي تستطيع أن ترتب لأحد موعدًا مع عائلة الأباطرة وأضاف: فالجنية خيزران هي وزيرة جدك جبار ملك أبايل السابق.

- جدي كان ملكًا؟!

- ألا تعرف ذلك؟!

- لم تقل لي جدتي هذه المعلومة من قبل...

- كان جدك جبار ملكًا لأبايل وكانت جدتك تاج الملكة - أخفض الحكيم صوته وهو يستعد لقول المعلومة التالية: الشائعات تقول بأن هناك واحدًا من أفراد عائلتكم اسمه طاغين أعلن الانقلاب على جدك الملك جبار، واستطاع بالغدر والخديعة هزيمة جيش أبايل بأكمله والاستيلاء على العرش...

- وكيف حدث ذلك؟!

- لا أعرف فأنا لم أكن هناك وقتها - وأضاف قائلاً:

ولكن ربما تستطيع الجنية خيزران أن تخبرك بالقصة عندما تلتقي بها ...

- وهل ستساعدني في أن أصبح رجلًا؟!

- لا بأس ولكن شرط أن تجعل جدتك تلغي عني التعويذة أولاً ...

- حسنا تعالِ نرجع للقرية من أجل أن أطلب منها ذلك.

استعد الجميع لمغادرة صندوق المؤن الغذائية والعودة لقرية الجشاسة من أجل أن يطلب عاصف من جدته إلغاء التعويذة عن الحكيم، غير أنهم ما كادوا يقومون بفتح باب الصندوق حتى صاح قائد حرس القافلة بكل صوته

- سنتوقف هنا للراحة والتزود بالطعام ونكمل سيرنا فجراً!!

توقفت القافلة عن السير وطوق الحرس تلك المنطقة من جميع المداخل والمخارج حتى يحموا البضائع التجارية بشكل أفضل.. انقسم خدم القافلة لفريقين، ذهب الفريق الأول لنصب الخيام بينما اتجه الفريق الآخر نحو صناديق المؤن الغذائية حتى يأخذوا منها الطعام، ويجهزوه ثم يقدموه لتجار القافلة.

كان عدد صناديق المؤن الغذائية خمسة عشر صندوقاً .. قام الخدم بفتحها جميعاً باستثناء صندوق وحيد قرروا أن لا يقربوه الليلة وأن يتركوه كصندوق غذاء احتياطي ليوم الغد.. ولكن بعض التجار الذين كانوا لا يزالون يشعرون بالجوع بعد أن أكلوا طالبوا أحد مشرفي القافلة بإحضار المزيد، ومن أجل هذا أعطى المشرف

أمرًا لأحد الخدم:

- فيروز أحضر كل الطعام من داخل الصندوق الاحتياطي

- ولكن ماذا نترك ليوم الغد إن قمنا بإفراغ الصندوق الاحتياطي؟!

- لا تقلق سنحرص على الوصول إلى السوق قبل أن يشعر أحد

بالجوع...

فيروز هو أحد الخدم الذين انضموا حديثًا للقافلة وهو خادم غريب الأطوار يرتدي ملابس واسعة جدًا، لا يتكلم مع أحد ويفغطي جميع ملامح وجهه باستثناء عينيه مستخدمًا شالًا أخضر اللون لا ينزعه أبدًا، وكان بعض زملائه الخدم يطلقون عليه في الخفاء لقب «الشاذ جنسيًا» والبعض الآخر لقب «الخصي» وذلك لأنه لم يكن يحب الاستماع إليهم أو التفاعل معهم عندما يتحدثون عن النساء ...

فتح الخادم فيروز باب صندوق الأطعمة الاحتياطي ولم يكن يتوقع أن يشاهد ذلك المنظر الذي رآه - صبي وفار وطائر صغير - قال:

- كيف وصلت إلى هنا أيها الفتى!!

أما عاصف فإنه لم يعطي لذلك الخادم مزيدًا من الوقت حتى يصاب بالدهشة لفترة أطول؛ فقد قفز سريعًا خارج الصندوق حاملاً بين يديه إكليل والحكيم يريد أن يهرب بهما بعيدًا، ولكن قبل أن يحدث ذلك قال له الخادم:

- الحرس يطوقون القافلة ومن المؤكد أنهم سيرونك!!

لم يكثرث للتنبيه وواصل ركضه مبتعدا ولكن الخادم حذره:

- توقف .. سيقومون ببيعك في سوق الجواري والعبيد إن هم ألقوا القبض عليك!!

لقد كان الخادم محقا في تحذيره ذاك، فلو أن الحرس ألقوا القبض على عاصف لكانوا سوف يسلمونه بالتأكيد لصاحب القافلة التجارية الشابندر عدنان، ليقوم بعرضه غدا في سوق الجواري والعبيد حال وصولهم هناك لذلك فإن عاصف توقف مكانه والتفت إلى الخلف:

- هل تستطيع مساعدتنا في الخروج من هنا؟!

- نعم أستطيع!!

لم يعجب ذلك الأمر الحكيم، فقال معترضًا:

- لا تثق به سوف يسلمك بنفسه للحرس اهرب يا عاصف!!

- ولكن الحق معه أيها الحكيم ...

قال عاصف ذلك وهو يلقي نظرة متفحصة حول المكان - انظر حولك إن الحرس يطوقون القافلة من جميع المخارج ومن المؤكد أننا سوف نثير انتباههم لو أننا حاولنا الهرب.

قال الخادم شارحا ما يحدث: عندما تتوقف القافلة لأخذ قسط من الراحة فإن الخطر يصبح عليها أكبر، لهذا يكثف الحرس من نوبات عملهم خوفاً من أن يقوم قطاع الطريق أو اللصوص باستغلال فترة التوقف وسرقة البضائع.

- وما هي الطريقة الأضمن للخروج من هنا؟!

عد للداخل أيها الفتى وانتظر حتى تبدأ القافلة في التحرك فجر الغد، عندها يتوزع الحرس على طول القافلة وعرضها ويصبح في إمكانك الهرب من غير أن تلفت الانتباه إليك ...

تسلق الحكيم كتف عاصف، أمسك بيديه شحمة أذنه وصرخ:

- يريدك أن تدخل الصندوق ثم يغلق عليك الباب ويستدعي الحرس لأخذك يا مجنون!!

التفت عاصف نحو إكليل وسأل:

- ما رأيك أنت في هذا الأمر؟!

نظر طائر العنقاء نحو عيني الخادم ثم قال وكأنه اطمئن لنواياه:

- الصندوق، الصندوق..

التفت الحكيم نحو عاصف ثائرا:

- هل بلغ بك الجنون لأن تأخذ رأي هذه البرتقالة المتكلمة؟!

- فأر غبي - قال إكليل وهو يرسل إليه نظرة غضب.

- برتقالة بلهاء متكلمة!!

- سوف ندخل الصندوق حتى نتحرك القافلة فجر الغد وعندها

نهرب.

وأضاف عاصف وهو ينظر للخادم: نحن نثق بك...

رد الخادم بنبرة صادقة: ثق بي..

دخل عاصف ومن معه الصندوق ثم وقبل أن يغلق الخادم عليهم الباب سأل:

- كيف يستطيع هذا الطائر الصغير أن يتكلم مثلنا؟!

- إنه من فصيلة العنقاء ويمتلك قدرًا عاليًا من الذكاء للحد الذي يجعله يستطيع فهم لغتنا والتحدث بها، ولكنه مثل ما ترى لا زال يحتاج لبعض الوقت حتى يتحدث بشكل أفضل...

- وماذا بشأن هذا الفأر؟!

الحكيم متذمرًا:

- فأر يدخل في م.....

قاطع عاصف قبل أن يكمل جملته:

- هذا ليس فأرًا إنه انسان ولكن جدتي حولته لفأر

- جدتك تستطيع تحويل الإنسان لفأر؟!

- إنها جنية

سأل بدهشة: أنت جني إذا؟!!

- ليس تمامًا - قال عاصف ثم أضاف: أنا هجين

- هجين؟!

- لي أم جنية وأب بشري - قال موضحًا ثم تابع وأنا لست بشريًا

تمامًا ولا جنيًا أيضًا أنا بين هذا وذاك، أنا مخلوق هجين.

كان من المفترض على تاج أن تعلم حفيدها بأن لا يعق بالغرباء، وربما لو أنها علمته ذلك لاستطاع تفادي الورطة الكبيرة التي أوقع نفسه فيها الآن، فبعد أن أغلق الخادم عليهم الباب الخشبي أخرج من أحد جيوبه قارورة زجاجية بداخلها مادة سائلة نزع عنها الغطاء وغرق بها الصندوق من جميع الاتجاهات ثم ذهب يهرول نحو خيمة الشابندر عدنان .. وقف عند الباب وهمس:

- أيها الشابندر .. أيها الشابندر هل أنت هنا؟!

قال الشابندر الذي كان يقضي ليلته في سهرة مع جواريه: لا، أنا لست هنا اذهب!!

- ولكنني أريد محادثتك في أمر هام

- في الصباح في الصباح

- ولكن الأمر الذي أريدك فيه لا يقبل التأجيل

- صدقني وحتى الأمر الذي أنا فيه لا يقبل التأجيل.

- أرجوك، لن أخذ من وقتك الكثير

- تبًا لك، قل من عندك ماذا تريد!!

- لقد قبضت للتو على فتى هجين وطائر عنقاء وفأر مُتكلم!!

لم يكمل الخادم الفلثم جملته تلك حتى خرج الشابندر عدنان من باب خيمته وقد أنسته الفرحة أن يضع شيئًا على جسده العاري.. كان رجلا قصير القامة منتفخ البطن يشبه سمكة اليافوخ:

- أين هم؟!

- قمت بحبسهم في صندوق المؤن الغذائية الاحتياطي!!

وضع الشابندر قميصًا خفيفًا على جسده وأخذ بعض الحرس معه ثم ساروا جميعًا خلف الخادم، والذي راح يقودهم نحو المكان..
وحين أوصلهم إليه همس بحذر وهو يشير لهم نحو الصندوق:

- هناك

طوق الحرس الصندوق حتى لا يسمحوا لمن بداخله بالهرب،
وعندما فتحوا الباب وألقوا بحذر نظرة للداخل وجدوا شابًا وطائرًا
وفأرًا وكان ثلاثتهم يغطون في نوم عميق.

قال الخادم مبررًا:

- لقد رششت عليهم بعض الزرنيخ جعلهم يفقدون الوعي

- هل قلت زرنيخ؟! لقد قتلتهم بهذه الطريقة أيها المعتوه!!

- لا تقلق لقد أضفت عليه مسحوق جذور الناردين، وهكذا لن
يحدث لهم شيء عدا أنهم سينامون طويلاً...

عندما سمع الشابندر تلك الإجابة تساءل بشك:

- ولماذا تراك تحمل معك مثل هذه الأشياء أيها الخادم؟!

لم يعرف ماذا يجب عليه أن يقول ولكنه استدرك في الأخير:

- تحسبًا لمثل هذه المواقف يا سيدي الشابندر...

- أحسنت - قال الشابندر مبتسمًا وهو يخرج من أحد جيوب

قميصه زنبيلًا بحجم كف اليد كان ممتلئًا بالمال:

- ستكون هذه مكافئتك لهذا العمل ...

عندما جاء الغد وأشرقت شمس سماء مملكة أبابيل فتح عاصف عينيّه ووجد نفسه مقيد الأطراف داخل قفص من الحديد يشبه أقفاص الحيوانات المفترسة، وعندما تلفت حوله وجد إكليل والحكيم أيضًا مقيدي الأطراف مثله وكل واحد منهما كان محبوسًا داخل قفص حديدي يناسبه في الحجم والطول:

- أيها الحكيم .. إكليل استيقظا!!

استيقظ إكليل في البداية وما أن انتبه للوضع الذي هم فيه حتى راح يحاول جاهدًا تخليص نفسه من الحبس ولكن قضبان القفص الحديدية كانت أقوى بكثير من أن يستطيع اختراقها بمنقاره، نظر نحو سيده وقال معتذرًا عن تقصيره في الحماية:

- لا أستطيع!!

- لا بأس سنجد حلًا لمشكلتنا هذه - ثم ولأن الحكيم لم يستيقظ بعد فإنه كرر النداء عليه مرة أخرى:

- أيها الحكيم استيقظ هذا ليس وقت النوم!!

رمش الحكيم بعينيّه وهو يتمتم كما لو أنه يشاهد حلقة جميلة:

- أووه.. دعيني أنام قليلًا يا أمي!!

- أنا لست أمك ويجب أن تفيق بسرعة - ثم أضاف بهمس عالٍ:

استيقظ أيها الحكيم استيقظ!!

استيقظ من نومه منزعجاً:

- أول درس في الرجولة هو أن لا توقظ شخصاً من النوم!!

قال ذلك ثم صمت لبعض الوقت وأخذ يقلب بصره في المكان الذي وجد نفسه فيه وعندما أدرك أنه مقيد الأطراف داخل قفص صغير، وأنه موضوع هو وعاصف وإكليل فوق عربة مسطحة مكشوفة يجرها فيل ضخمة قال مستدركا:

- لماذا نحن هنا بحق السماء؟!

- لا بد أن ذلك الخادم هو من فعل هذا بنا!!

- لقد أخبرتك بأن لا تثق به ولكنك لم تستمع لكلامي أيها المتهور!!

- ما الذي تعتقد أنهم سيفعلونه بنا؟!

أجاب بسخرية:

- لا شيء سوف يبيعونك فقط في سوق الجواري والعبيد لتصبح صبيًا عند أحد الأغنياء، وسأصلي للسماء كي لا تقع بين يدي رجل منحرف؛ فصبي بمثل جمالك لن يكون مسرورًا كثيرًا لو أنه وقع بين يدي الشخص الخطأ، أما إكليل فسيضعونه في قدر كبيرة ويصنعون منه طبق حساء لذيذ.

- فأرغبي - قال إكليل .

- فأرغبي - قال الحكيم مقلدا إياه بسخرية.

ثم في هذه اللحظة ومن خلف الأقفاص الثلاثة جاءهم صوت يقول:

- آسف لم يكن أمامي خيار آخر!!

عندما التفتوا جميعهم نحو مصدر الصوت وجدوا أن المتحدث هو ذلك الخادم المُلعم نفسه الذي أوقعهم في هذا الفخ.

احتج الحكيم:

- ما الذي تريدنا أن نفعله بأسفك هذا؟!

معاتباً متم عاصف:

- لقد وثقنا بك لماذا فعلت هذا معنا؟!

قال الخادم قبل أن يستدير مغادراً وبريق الحزن يشع من عينيه:

- ليس هناك وقت لأشرح لكم ولكنني جئت لأعتذر.

وقف الحكيم يشيع الخادم بنظرات غريبة وهو يختفي وسط زحام وغبار القافلة الأمر الذي أثار التساؤل في قلب عاصف: ما بك أيها الحكيم لماذا تحقق فيه بهذه الطريقة؟!

أجاب بصوت جاد: ذلك الخادم المُلعم...

- ما به؟!

- إنها امرأة!!

- لماذا تقول ذلك؟!

- لأن عيون النساء تتشابه عندما يصيبها الحزن.

- أنت واثق مما تقول؟!

- ذلك الخادم الفلعم يا عاصف امرأة وليس رجلًا!!

كان السوق ممتلئًا حتى آخره بالزبائن عندما وصلت القافلة إلى هناك وحطت بركابها في الأماكن المخصصة لاستراحة القوافل ثم ولاختصار الوقت فإن الشابندر عدنان قام بتقسيم عماله لقسمين، أرسل قسمًا منهم لبيعوا الأقمشة والجلود والصوف وأواني الخزف المكومة داخل الصناديق، بينما ذهب هو بنفسه مع القسم الآخر للركن المخصص لبيع الجواري والعبيد..





اجتمع الكثير من الناس - رجالا ونساء - أمام مصطبة خشبية مرتفعة قليلاً عن الأرض تشبه خشبة مسرح، من أجل أن يشاهدوا ما سيتم عرضه عليها من سلع بشرية .. كان بعض من احتشد هناك يغلبهم الفضول ليس إلا ولا يملكون قدرة الشراء، أما البعض الآخر - وهم الأغنياء والسادة - فإنهم جاؤوا من أماكن بعيدة جدًا ليحصلوا على كل ما يستطيعون شراءه من جوارى وعبيد .. كان من المتعارف عليه في ذلك السوق أن المبايعة تتم بأكثر الطرق وضوحًا وشفافية، ومن أجل ذلك فإن تجار القوافل يعمدون لنزع الملابس عن جميع جوارىهم وعبيدهم قبل أن يقوموا بعرضهم على الزبائن؛ حتى يبعدوا عن بضاعتهم تهمة الخداع والغش، وكان الشخص الذي يملك النية الجادة في الشراء يستطيع فحص الجارية أو العبد قبل إتمام عملية البيع مستخدمًا كلتا يديه في قلبب بضاعته.

قال الحكيم متذمرا:

لم أكن أتوقع أن نهايتي ستكون بهذه الطريقة، يا لسخرية القدر سوف نصعد جميعنا على تلك الخشبة اللعينة ويتم عرضنا عليها وكأننا صناديق فاصولياء!!.

عاصف بهدوء يشي بثقة:

- لا عليك.

- لديك خطة؟!

- سنهرب بعد أن يتم بيعنا!!

صمت الحكيم قليلاً ثم انفجر بخيبة أمل:

- هل تظن أن الأمر سيكون بهذه السهولة أيها الأبله؟! سيضعون وشم العبودية على جبينك، وعندها لن تكون حرًا أبدًا!!

- وشم العبودية؟!

- لكل عائلة من أغنياء أبابيل شعار خاص يَشمون به عبيدهم فإذا رآك أحد حراس المملكة لاحقًا وأنت تملك الوشم على جبينك فإنه سيعرف بأنك عبد هارب وبذلك يستطيع أن يعيدك للعائلة التي هربت منها وربما يحصل منهم على مكافأة مجزية أيضًا...

سأل عاصف:

- كيف نهرب إذا ونحن في الأقفاص والحرس يطوقون القافلة؟!

- استخدم قوتك ألسـت هـجينا ولديـك قدرات خاصة؟! أم أن جدتك كانت تكذب علي عندما أخبرتني بذلك؟!

- لم تكن تكذب ولكنني لا أستطيع فعل شيء في هذه اللحظة

- ولماذا عساك أن لا تستطيع فعل شيء في هذه اللحظة؟!

- لأنني عندما أشعر بالحزن أفقد قوتي..

- يا للسماء ولماذا أنت حزين الآن؟!

- لأنني كنت السبب في قتل أُمي...

صمت الحكيم متأثرًا بعض الشيء فصحيح أنه كان يمتلك لسانًا طويلًا، ولكنه في الوقت نفسه يمتلك أيضًا قلبًا عطوفًا يستطيع بواسطته الشعور بالآخرين والإحساس بمعاناتهم...

فكر قليلاً ثم قال:

- قد تسامح الأم ابنها إن قتلها عمداً لكنها لا تغفر له إن سمح
للآخرين بأذيته، لهذا لا تسمح لهم ببيعنا - وأضاف برجاء:

- تصرف!!

حاول عاصف أن يحرك النار في عروقه...

أغمض عينيه وتذكر في تلك اللحظة كل الأشياء التي قامت جدته
بتدريبه عليها طيلة السنوات الثلاث التي قضاها عندها، استجمع
طاقته وبدأت أنفاسه تتغير: «أبراً كآ دأبراً» ردد تلك التعويذة في
نفسه لمرات ومرات ولكن من غير فائدة.

همس مستسلماً:

- لا أستطيع لقد قتلت أُمي...

انتهى الشابندر عدنان من بيع كل الضبيان الذين أحضرهم معه في القافلة، ثم أردف قائلاً بنبرة فكاھية وبصوت عالٍ حتى يث روح الحماسة في قلوب الزبائن ويستبقهم للعرض القادم:

- أيها الناس ابقوا لبعض الوقت حتى تنعموا برؤية الجواري اللاتي أحضرتھن لكم من جميع أطراف العالم، إنهن اللاتي لم يُخلقن في الأرض إلا من أجل إمتاعكم، فتيات لسن كباقي الفتيات جمالهن لا ينتهي دلالهن عجيب.. حلاوتهن علاج لشفاء المريض!!

ارتفعت الضحكات في ممرات السوق وأصبح المكان فجأة أكثر ازدحامًا ... تمددت الأعناق وشخصت الأبصار وبات الناس أكثر توثبًا لرؤية أولئك الجواري اللاتي تحدث عنهن الشابندر .. ولكن الغريب في الأمر هو أن الخادم المُلثم فيروز وقف مترقبا وسط الزبائن يريد شراء جارية لنفسه بالمكافأة التي حصل عليها البارحة .. لم يمض الكثير من الوقت حتى صعدت أول جارية فوق خشبة المسرح وتم بيعها سريعًا بمبلغ يفوق بكثير ثمن أغلى عبد تم بيعه سابقًا، ثم صعدت الجارية الثانية والثالثة والرابعة وحدث مع كل جارية منهن مثل ما حدث مع الأولى حيث تم البيع بسرعة ولصاحب أكبر مبلغ.

وعندما جاء دور الجارية الخامسة بدأ الكلام يصبح أكثر صخبًا بين جوقة الزبائن، ثم وعلى الرغم من أن طقس مملكة أبايل كان باردًا طوال فصول السنة الأربعة إلا أن الهواء فجأة أصبح حارًا، وبدأ جميع من هناك يتصببون عرقًا بسبب الفتنة اللانهائية المنبعثة من تلك الجارية.. وحده الخادم المُلثم هو من كان ينظر نحوها بطريقة

مختلفة.

بدأ الشابندر عدنان يذكر مواصفات الجارية الخامسة قائلاً: هذه الجارية اسمها سرابي عمرها سبع عشرة سنة وهي فتاة بكر لم يسبق لرجل من قبل أن اقترب منها، أسنانها كاملة ومتراصفة مثل أسنان المشط لديها غمازتان في خديها عندما تبتسم قادرتان على إيقاظ كل أحاسيسك الميتة!!

انفجر الناس بالضحك ثم التفت الشابندر عدنان وأمر الجارية بأن تبتسم حتى يشاهد الجميع تينك الغمازتين اللتين تحدث عنهما للتو، ورغم حزنها الطاغي إلا أنها اغتصبت ابتسامة مزيفة على وجهها خوفاً من العقاب، شعرها بني مثل رحيق النحل، بيضاء هي مثل ثدف الثلج، جسدها مشدود كالزجاج .. تابع الشابندر كلامه عن الجارية سرابي واصفاً مناطق جسدها شبرًا شبرًا، وبكلام مقزز لا يصلح أن يُقال إلا من أجل شيء واحد فقط وهو إثارة الشبق في نفوس الرجال؛ حيث إنه كتاجر ضليع في مجاله يعلم بأن الرجال لا يصبحون كرماء جدًا إلا فقط عندما تتحرك شهواتهم .. وحين انتهى الشابندر أخيرًا من وصف الجارية، صاح بصوت عالٍ وهو يقترب للجمهور أكثر ويرفع يديه في إيماءة حماسية:

- والآن أيها الناس.. من يبدأ المزاد؟!

تهاتف الأغنياء والسادة للمشاركة وكان الخادم الفلمم فيروز يضارب معهم من وقت لآخر، رغبة منه في شراء تلك الجارية لنفسه غير أن المبلغ المتواضع الذي بحوزته كان أقل بكثير من المبالغ المرتفعة وغير المعقولة التي وصل إليها المزاد.

وعندما تيقن أخيرًا من أنه لن يستطيع شراء تلك الجارية، وفقد الأمل في الحصول عليها فإنه تسحب من مكانه وذهب لمكان آخر: لقد ذهب نحو الأقفاص الثلاثة المحبوس بداخلها عاصف والحكيم وإكليل، والذين كان الشابندر عدنان قد خبأهم لآخر فقرة في العرض .. كان هناك خمسة من الحرس يقومون بحراسة الأقفاص منعًا لحدوث أي محاولة للهروب، اقترب منهم الخادم وأخبرهم أن الشابندر يريدهم في أمر طارئ فتحرك اثنان منهم لتلبية النداء ولكنه استوقفهما قائلاً:

- إنه يريدكم جميعًا..

قال أحدهم متسائلًا: أنت واثق من أنه يريدنا جميعًا؟!

- نعم وقد أرسلني لأخذ مكانكم في الحراسة ريثما تعودون..

انطلقت تلك الحيلة البسيطة عليهم وانصرف الحرس الخمسة لرؤية ما يريده الشابندر منهم بعد ما استطاع الخادم نشل المفاتيح من أحدهم دون أن يشعر بخفة يده.

- هيه أنت أيها الفتى الهجين.

التفت عاصف نحو مصدر الصوت وعندما رأى المتكلم قال:

- ما الذي جاء بك مرة أخرى أيها الخادم؟!

- ما رأيك في أن أحررك وأصدقاءك من هذا المكان؟!

تدخل الحكيم متسائلًا وهو يخاطب ذلك الخادم على أنه فتاة:

- ولماذا عساك ستفعلين هذا معنا أيتها الحلوة؟!

سأل الخادم متعجبًا: ما الذي يجعلك تفترض أنني فتاة؟!

- لأنني أعرف أنك فتاة - قال الحكيم باندفاع ثم أضاف: هيا أنزل بنطالك ودعنا نشاهد إثبات رجولتك إن كان كلامي خطأ!!

أزال الخادم اللثمة الخضراء عن وجهه وقال:

- لقد اختصرتم علي الكثير من الشرح، أنت محق أيها الفأر أنا فتاة واسمي فيروز .. سأل الحكيم وقد أذهله جمالها: لماذا كنت طوال الطريق تتنكرين بزي الرجال - ثم أضاف سؤالًا ثانيًا: ولماذا تريدان الآن مساعدتنا في الهرب؟!

تجاهلت فيروز السؤال الأول للحكيم وأجابت على الثاني:

- سوف أساعدكم مقابل أن تسدوا لي خدمة

مستنكرًا صرّح عاصف:

- وما الذي يضمن لنا أننا لا نتعرض لفخ جديد؟!

رفعت فيروز أصبعها وأشارت نحو الجارية الخامسة:

- هل ترون تلك الجارية هناك والتي يريد الشابندر بيعها؟!

نظروا إليها جميعًا وعندما شاهدوا جمالها قال الحكيم بحماسة:

- يا للسماء أنا مستعد لأدفع عمري كله مقابل ليلة واحدة معها!!

بدا عليها بأنها تضايقت لسماعها ذلك التعليق ولكنها قالت

متجاهلة:

- سأقوم بتحريركم مقابل أن تمنعوا عملية بيعها

سأل عاصف بفضول: وما الذي سوف تستفيدينه من ذلك؟!

- لأن تلك الفتاة تكون ابنتي..

- قال الحكيم وقد شعر بالحرص: تلك الليلة التي سأدفع عمري كله من أجلها، لم أكن أقصد أنني أريد أن أفعل معها ذلك الشيء الذي يدور برأسك، فابنتك قبيحة لا تصلح لمثل هذه الأشياء.. أقصد أن أقول أنها جميلة ولكن.....

قاطعت فيروز كلامه لكي تجنبه الحرج: في البداية لم أكن أنوي القيام بتسليمكم للشابندر، ولكن عندما عرفت أنكم مخلوقات استثنائية فكرت في أنني ربما قد أجنني من وراء تسليمكم له مبلغًا كبيرًا أستطيع من خلاله شراء ابنتي وتخليصها من أن تكون جارية..
سأل إكليل باهتمام وقد بدا واضحًا عليه أنه كان مندمجًا بالكامل مع تلك القصة:

- وماذا حدد بدعها؟!

قال الحكيم مصححًا السؤال:

- يقصد أن يقول وماذا حدث بعدها!!

أكملت فيروز وهي تنظر نحو الطائر: المبلغ الذي معي لم يعد كافيًا لشرائها.

ثم نظرت نحو عاصف وأكملت: قلبي لن يحتمل رؤيتهم وهم يبيعون سرايي ويأخذونها بعيدًا؛ لذلك أرجوكم اقبلوا عذري

وساعدوني في تخليصها مما هي فيه.

قال الحكيم وقد فهم الحقيقة كاملة:

- من أجل هذا قررت الانضمام للقافلة والتنكر بزي الرجال، ومن أجل هذا كنت تحتفظين طوال الطريق بذلك المخدر الذي رششته علينا؛ كنت تخافين أن ينكشف أمرك لأحدهم فيتهجم عليك من غير أن يكون لديك سلاح تدافعين به عن نفسك!!

قالت فيروز كاشفة أكثر عن ما بداخلها:

- طوال الطريق كنت أفكر بخطة لإنقاذ ابنتي ولكن ذلك الأمر بدا مستحيلاً بوجود كل أولئك الحرس حول القافلة وانقطاعنا عن الأماكن المأهولة بالسكان، هل ستقومون بمساعدتي أم لا؟
لم يتكلم عاصف فقال إكليل وهو ينظر نحوه يحثه على الموافقة:
- واقف، واقف عاصف!!

هتف الحكيم: هيا وافق يا عاصف!!

- أنا لست امرأة سيئة كل ما في الأمر هو أنني كنت.....

قال عاصف مقاطعاً:

- حررينا من قيودنا؛ سنعيد لك ابنتك!!

وعيناها تغرقان بالدموع: أنا ممتنة لكم!!

قال الحكيم يحثها على العجلة:

- أسرع قبل أن يعود الحرس ويكتشفوا الأمر ويضعوك معنا!!

لم يكن عاصف بعد يستطيع استخدام قوته الخاصة وذلك بسبب بقايا الحزن التي ما زالت عالقة في قلبه، لهذا يجب عليه أن يفكر هو والحكيم وإكليل بخطة أخرى غير المواجهة يستطيعون من خلالها تشتيت انتباه الحرس وإعادة سرايي لأمها.

تسلل الحكيم من بين أقدام الناس بحذر حتى لا يقوم أحد بدهسه دون أن ينتبه إليه، ثم اختار امرأة كانت ترتدي فستانًا قصيرًا وقام بتسليق ساقها العارية بخفة بالغة وصولاً إلى فخذاها ثم صعوداً نحو الأعلى حتى أخرج رأسه أخيرًا من عند فتحة صدر فستانها، نظر إليها مبتسمًا وهو يتنفس الصعداء وقال:

- يا سلاام المكان دافئ هنا ورطب!!

صرخت تلك المرأة بكل ما أوتيت من قوة فرغم أنه فأر - وهذا سبب يكفي لإخافة أي امرأة - إلا أنه بالإضافة لذلك كان يتكلم مثل البشر وله لحية طويلة تشبه لحية عنز فحل .. تسببت تلك المرأة وبقية النسوة اللاتي خفن من الفأر في ارتباك كبير بين صفوف عامة الناس الأمر الذي بسببه اضطر الحرس للتحرك من أماكنهم حتى يعيدوا ضبط الصفوف .. وهنا وبحسب الخطة المتفق عليها بين الأصدقاء الثلاثة يأتي دور إكليل الذي قفز من مكان مرتفع، ورفرف بجناحيه في الهواء موازنًا نفسه حتى هبط إلى وجه الشابندر عدنان.

حاول الشابندر إبعاد ذلك الطائر البرتقالي الذي حجب عن عينيه الرؤية، ولكنه لم يتمكن من فعل هذا إلا بصعوبة بالغة وعندما نجح أخيرًا في إبعاد الطائر عن وجهه والتفت للمكان الذي كانت تقف فيه الجارية الخامسة لم يجدها فصاح بأعلى صوته:

- أيها الحرس .. أيها الحرس لقد اختفت الجارية ابحثوا عنها!!

وعندما نظر لنفسه وجد أن ملابسه أيضًا كانت قد اختفت من فوق جسده، فقال بخجل بعد أن غطى يديه القصيرتين ما استطاع أن يغطيه:

- وفتشوا عن ملابسني أيضًا!!

لقد تمكن عاصف وسط اضطراب جمهور الناس الذي تسبب في وقوعه الحكيم من اختراق صفوف الحرس برشاقة عالية من غير أن يشعر به أحد واستغل المدة القليلة التي حجب فيها إكليل الرؤية عن عيني التاجر البدين ليحمل سرابي بين يديه ويهرب بها بعيدًا .. ثم ولأنها لم تكن ترتدي فوق جسدها شيئًا فإنه لم ينس قبل هروبه أن يأخذ ملابس الشابندر ويغطي بها جسدها.

سألت:

- إلى أين تأخذني؟!

ابتسم عاصف لها وقال: لرؤية شخص عزيز ...

استطاع الجميع أن يتقابلوا في نقطة الالتقاء التي حددوها عندما وضعوا الخطة، احتضنت فيروز ابنتها سرابي وبكت كثيرًا غير مصدقة أنها استطاعت أخيرًا استعادتها:

- لقد شعرت بأنهم انتزعوا قلبي من مكانه عندما هجم أولئك الرجال على قريتنا وقاموا باختطافك!!

- لماذا لم تؤثر فيهم توسلاتي بأن يعيدوني إليك يا أمي؟!

- لأن الرجال لا يملكون قلوبًا في صدورهم، لكن لا تحزني

سأحميك إلى الأبد يا ابنتي.

قال إكليل متدخلًا وكأنه استطاع سماع أصوات قادمة:

- الحرس!!

هتف الحكيم:

- يجب أن نبتعد من هنا بسرعة الحرس قادمون!!

وقبل أن يبتعدوا عن ذلك المكان لمع شيء حاد في السماء كان متجهًا مباشرة نحو عاصف، انتبهت إليه فيروز ولكن الوقت لم يسعفها لتحذيره أو إبعاده عن مجال السهم .. ثم وفي غمضة عين انفجرت الدماء في كل مكان وأصيب الجميع بالصدمة والذعر والهلع:

- أمي - صاحت سرابي!!

وهنا وفي هذه اللحظة وبينما كان السهم مغروسًا في جسد فيروز وكان الحرس الذين عددهم خمسة يطوقونهم من جميع الاتجاهات خيم صمت رهيب على المكان - للحد الذي كانت فيه نبضات القلوب تُسمع وهي تنبض بخوف من وراء الصدور- لم يشعر عاصف حينها بالحزن بل بالغضب، تحولت عينه اليسرى للون الأحمر القاتم وبدأ يشعر بصلابة أطرافه وبالحرارة تغزو جسده وبأن هناك أسياخًا من الحديد تسبح في عروقه .. للحظة شعر أولئك الحرس الخمسة وهم يشاهدون التحول المرعب للفتى الهجين برغبة شديدة في البكاء والاعتذار عما فعلوه، ولكنهم سوف يتعلمون الآن الشيء الذي فاتهم أن يدركوه في سنواتهم الماضية، وهو أن هناك نوعًا من الأخطاء لا

يصلح معها الاعتذار أو الندم، انقض عليهم عاصف مثل ذئب مسعور
يهاجم قن دجاج .. وحين انتهى منهم وعاد مرة أخرى ليطمئن على
صحة فيروز المصابة، صاحت ابنتها سراي في وجهه متوسلة وهي
تحتضن والدتها على الأرض:

- أرجوك أيها الوحش لا تؤذنا!!

- لست وحشاً!!

كررت بتوسل: أرجوك ابتعد



قال الحكيم بعد أن أقترب وشاهد خطورة الإصابة: لا فائدة ستموت.

صرخ عاصف عليه وكأنه يتهمه بالتقصير:

- حاول أن تفعل شيئًا لتساعدنا!!

- أتظن أنني لو كنت أستطيع فعل شيء لتأخرت؟! لقد اخترق نصل السهم صدرها مسببًا أضرارًا أكبر بكثير من أن أستطيع أو يستطيع أي أحد إصلاحها أيها الأبله!!

- أنت لست إلا فأرًا قذرًا لا تصلح لشيء!!

قال ذلك من شدة الغضب ثم تحولت عينه اليسرى للون الأحمر القاتم مجددًا وقد خرجت قوته عن مجال سيطرته وبات وجوده يهدد جميع من هناك - كان ثائرًا للحد الذي ربما تدفعه ثورته تلك لقتل أي أحد من غير أن يشعر بنفسه - وكان الحكيم يدرك تلك النقطة جيدًا لهذا فإنه فكر في حل سريع يستطيع بواسطته حماية الجميع من تهور عاصف صرخ عليه:

- هل ستقتلنا نحن أيضًا مثل ما قتلت أمك من قبل؟!

ما أن سمع عاصف تلك الجملة حتى امتلأ قلبه بالحزن فاخفت الأنياب والمخالب وأصبحت عينه اليسرى طبيعية .. هرول مبتعدًا عن المكان الذي كانوا يقفون فيه فقالت فيروز تناديه:

- أرجوك لا تذهب.

توقف عاصف مكانه غير أنه لم يلتفت إلى الخلف وذلك ربما لأنه

لم يكن يريد لأحد منهم رؤية الدموع المحتشدة في عينيه، تكلمت فيروز تناديه بمشقة بالغة بسبب السهم المغروس في صدرها:

- التفت خلفك يا عاصف..

- أستطيع سماعك من غير أن التفت

- ولكنني أريد رؤية وجهك قبل أن أرحل

- لا ترحلي - قال وهو يلتفت إليها باكيًا ثم أضاف: لماذا لم تدع السهم يقتلني؟ لماذا تلقيتيه بدلًا عني؟ لماذا فعلت هذا بنفسك!!

- لأنني لا أستطيع حماية ابنتي مثلك.

وصمتت فيروز قليلًا بسبب الألم ثم تابعت:

- هل ترد لي هذا الدين وتحمي ابنتي بروحك يا عاصف؟!

لم يجب عليها فقالت فيروز: تكلم فأنا لا أملك وقتًا كافيًا لأسمع جوابك.

قال الحكيم بنفاد صبر: تكلم سوف تموت المرأة!!

اقترب إكليل منها بخطوات جنائزية، مسح بريشه الناعم عنها حبات العرق المتجمعة على وجهها وقال:

- أنا أحميها.

ثم طار إلى كتف سراي وأضاف متعهدًا: أحميها بروحي.

وقف الحكيم على قائمته الخلفيتين ضم يديه كفقرير يطلب صدقة:

- وأنا كذلك يا فيروز سأحميها بروحي.

ثم وقبل أن تغمض فيروز عينيها بلحظات قليلة جدًا وترحل إلى الأبد، وضع عاصف يده عند قلبه وهتف بصوته كله كما لو أنه جندي يؤدي قسما أمام قائده:

- أعدك يا فيرون، أعدك بأن أحميها بروحي.

بعد موت فيروز بقليل وبينما كان الجميع يشعرون بالحزن والأسف عليها، استطاع إكليل أن يرصد وقع أقدام كثيرة تقترب منهم فقفز من فوق كتف سراي وحرك جناحيه مرتفعًا في الجو ليتأكد أكثر من مصدر ذلك الصوت.. حام في الهواء مرتين ثم هبط عائدا إليهم:

- حرس كثير قادمون!!

هتف الحكيم:

- عاصف دعنا نبتعد من هذا المكان

مد عاصف يداً نحو سراي: هيا تعالي معنا

صاحت سراي:

- أبعد يدك عني أيها الوحش!!

همس لها إكليل برجاء: تعالي سراي معنا

توسل إليها الحكيم: أرجوك يجب أن نتحرك بسرعة!!

استجابت سراي أخيرًا لهم وهربوا من هناك تجنبًا للوقوع في

اشتباك مباشر مع حراس القافلة، ولكنهم لم يبتعدوا كثيرًا حتى شاهدوا قرية بطريقهم ففكروا بأنهم قد يستطيعون الاختباء فيها ريثما يزول الخطر عنهم .. ما أن دخلوا القرية حتى صادفهم رجل مسن كان للتو خارجًا من بيته، له لحية بيضاء طويلة وعلى وجهه أمارات الطمأنينة والوقار، قال بصوت فيه بحة عميقة:

- من ماذا تهربون يا أبنائي؟!

- الحرس - قال عاصف - إنهم يتبعوننا!!

- وماذا يريدون منكم؟!

- يريدون إلقاء القبض علينا حتى يبيعونا!!

- ولماذا عساهم يريدون بيعكم؟!

- لأننا هربنا من سوق الجواني والعبيد

- وأين هم؟!

قال الحكيم متدخلًا بغضب: لو أنك استمررت بالتحقيق معنا قليلًا فسوف تشاهدهم أمامك بعد قليل وهم يلقون القبض علينا ويجروننا من أمامك جرا، فهل تساعدنا أم نواصل الهرب؟!

- هذا الفأر يستطيع الكلام؟!

- هذا الفأر يستطيع أيضًا أن يركل لك مؤخرتك المترهلة أيها الرجل الخرف الأحمق!!

وعند تلك اللحظة سمعوا أصوات خطوات تقترب منهم، فقال الرجل المسن:

- ادخلوا سأخبتكم لبعض الوقت.

وحين وصل الحراس إليه توقفوا عنده ليسألوه:

- هل رأيت غرباء في هذه القرية أيها الرجل، صبي وفتاة وطائر برتقالي اللون وفأر عفن؟!

كاد الحكيم أن يعلق من وراء الباب ولكن عاصف سد فمه.

أشار الرجل المسن بإصبعه نحو أحد الاتجاهات وقال للحراس:

- نعم لقد شاهدتهم يهربون من هناك..

انطلقت الحيلة عليهم وذهبوا في الاتجاه الذي أشار إليهم به، وبعد رحيلهم من هناك أغلق المسن الباب وقال يطمئن عاصف وأصدقائه:

- لا تخافوا لقد رحلوا يا أبنائي

عاصف وهو يتنفس الصعداء ويستعد للمغادرة:

- شكرًا لك .. لن ننسى لك صنيعك هذا

قال الرجل المسن يستوقفهم: لماذا العجلة؟! اقضوا الليلة هنا وغدا واصلوا سيركم إن أردتم .. لم يكن فيهم أحد يشعر بالتعب ولكن عاصف يدرك أن الخطر ما زال يحوم حولهم وأن هناك احتمالًا كبيرًا بأن يقوم حرس القافلة الليلة بنصب فخ لهم خارج القرية؛ لذلك قال:

- حسنًا، نقضي الليلة هنا وعند الصباح نستأنف طريقنا.

أعطاهم المسن غرفة خاصة لهم وطلب منهم أن يتصرفوا بحرية فيها كما لو أن المكان مكانهم، ثم ولكي يضيف عليهم مزيدًا من

الخصوصية فإنه لم يمكث طويلاً معهم وغادرهم مبتعداً

اقترب الحكيم من عاصف بخجل وتردد..

إنه يعرف الجرح الذي تسبب له به عندما قال له:

«هل ستقتلنا نحن أيضاً، مثل ما قتلت أمك من قبل»

- أنت غاضب مني يا عاصف؟!

- لا؛ فأنت لم تقل ذلك إلا من أجل حماية الآخرين.. لهذا لست

غاضباً منك

قال الحكيم وقد أحس بالفرح بعد سماعه ذلك الجواب وكأنه يقدم

له عربون صداقة:

- سأبقى معك حتى تعثر على الجنية خيزران وتحقق ثأرك...

- حقاً؟!

أوماً له برأسه مؤكداً وأضاف:

- ولكن بعدها ستطلب من جدتك أن تلغي عني التعويذة اتفقنا؟!

- اتفقنا ..

بعد منتصف الليل بقليل طرق الرجل المسن باب الغرفة عليهم، كان

يحمل بين يديه طبقاً كبيراً فيه ما لذ وطاب من الطعام قال مبتسماً

وهو يدخل: «لا بد بأنكم قضيتم يوماً صعباً وأنكم تشعرون بالجوع

يا أبنائي»

لم تكن سراي تشعر برغبة في الأكل بسبب تأثيرها بموت والدتها، ولكنها باعدت بين شفتيها بصعوبة وقالت مُجاملة «كم أنت رجل طيب».. تسلق الحكيم جسد عاصف ثم استقر عند كتفه و همس:

- لقد أحسنت صنعًا بقبولك هذه الدعوة.

الشخص الوحيد الذي لم يكن مرتاحًا لهذا الأمر هو إكليل، فقد كان طيلة الوقت يراقب تصرفات الرجل المسن بحذر شديد ويتمتم في نفسه من وقت لآخر بكلام لا يسمعه أحد، اقترب عاصف منه وهمس له قائلاً:

- ما بك؟!

- كاذب، كاذب!!

هذا ما قاله إكليل قبل أن يقفز في الهواء ويهاجم الرجل المسن مما تسبب في إسقاط صحن الطعام من بين يديه، كان الرجل المسن أضعف بكثير من أن يقاوم الهجوم الشرس الذي شنه طائر العنقاء عليه دون مبرر، الأمر الذي دفع عاصف ليصرخ بكل صوته مدافعاً «توقف، إكليل.. توقف!!».. لم يصغ إكليل للأمر مما اضطر عاصف لأن يتدخل مستخدماً القوة في إيقافه، أمسكه من ذيله وضرب به عرض الحائط ليتلقى ضربة قوية على رأسه ويسقط أرضاً، عاصف يسأل الرجل المسن:

- أنت بخير يا جداه؟!

الرجل المسن بصعوبة: اطمئن يا بني أنا بخير..

ضحك الحكيم بصوت منخفض فلكزته سراي:

- لماذا تضحك؟!

- لا شيء ولكن أضحككتني كلمة جدّاه تلك التي قالها عاصف!!

التفت عاصف نحو إكليل:

- أتفعل هذا مع الأشخاص الذين يقدمون لنا المساعدة؟!

كاد أن يدافع عن نفسه ولكن عاصف قاطع فرصته في الكلام:

- لا أريد أن أسمع منك شيئًا اغرب عن وجهي!!

كان الجميع ينظرون نحو إكليل بعين التأنيب والشفقة الأمر الذي دفعه لأن يخفض رأسه بانكسار ثم يحرك جناحيه ويفادهم من النافذة، وحدها سرايبي التي على الرغم من عدم قبولها ذلك التصرف غير المبرر والذي قام به إكليل إلا أنها وقفت بصفه بعد أن غادر الغرفة:

- لماذا طردته؟!

- لأنه أخطأ!!

- حتى لو أنه أخطأ لا يجوز لك أن تعامله بهذه الطريقة

- أأعجبك ما صنع؟!

- لا ولكنه لا يزال صغيرًا ولا يدرك ما يفعل!!

- يجب عليه أن يتعلم إطاعة أوامري وأن لا يتصرف من تلقاء

نفسه

التفتت سرايبي نحو الرجل المسن وقالت وهي تحني رأسها:

- أعتذر لك يا جدّاه بالنيابة عما فعله إكليل بك.

ضحك الحكيم مرة ثانية لسماع كلمة جدّاه فصاحت سراي عليه تنهره:

- أيها الحكيم!!

صمت الحكيم لفرط الخوف، بينما أجابها الرجل المسن:

- عذرك مقبول يا ابنتي.

التفتت سراي نحو عاصف وقالت بغضب:

- أنت شخص بلا رحمة

ثم نهضت من مكانها لتغادر الغرفة فحاول عاصف منعها:

- لا تلحقي بإكليل يجب عليه أن يعرف بأن العقاب سيكون جزاءه في كل مرة يعصي فيها أمري.

قالت متجاهلة أمره وهي تتجه نحو الباب:

- إذا كنت وحشًا فلا تطلب من الآخرين أن يصبحوا مثلك

- لست وحشًا ولكنه أخطأ!!

التفتت سراي نحوه وهي تمسك مقبض باب الغرفة وتقول:

- يجب أن تقرر يا عاصف إذا ما كنت تعتبره خادماً أم صديقاً؟!

صمت بعدم اكتراث ولم يُجب فصاحت عليه: أجب عن سؤالي!!!

تدخل الحكيم هامساً: أجب عن سؤالها أرجوك لقد بدأت أخاف من

هذه المجنونة

- اعتبره صديقًا.

فتحت سرابي الباب وقالت قبل أن تغادر:

- كان يجب عليك أن تستمع لتبريره إذا .. حتى لو كنت واثقًا من أن ما فعله لم يكن صوابًا.

غادرت سرابي الغرفة للبحث عن إكليل بينما علق الحكيم:

- الفتيات بطبعهن يمتلكن عقولًا مثل عقول الحمير لكن أشكالهن جميلة وهذا ما يشفع لهن.

استغرقت سرابي بعض الجهد حتى وجدت إكليل الذي كان يجلس حزينًا فوق غصن إحدى الأشجار العالية مثل ملك معزول، قالت بلطف وهي تنظر إليه مبتسمة:

- وجدتك - ثم رفعت يدها إليه وأردفت: تعال.

هبط إكليل واستقر فوق يدها: لماذا جئت؟

- لأنني لن أتركك وحيدًا وأنت بهذه الحالة.

- أنا خادم سيئ.

- لست خادمًا يا إكليل أنت صديقنا

- لا أنا خادم سيئ

- لقد أخبرني عاصف للتو بأنه يعتبرك صديقًا لنا

- أنا صديق؟!.. هو قال ذلك؟!

أومأت له برأسها مؤكدة: نعم هو الذي قال ذلك.

- أنا سيئ - قال بحزن - لقد أغضبت صديقي!!

- لماذا هاجمت الرجل المسن يا إكليل؟!

- لأنه كاذب.

- وأنت كيف عرفت؟!

- لأنه كاذب.

ابتسمت للطريقة البدائية التي يتكلم بها وقالت: لا بأس سنعرف حقيقة لاحقا ...

ما أن انتهت سراي من جملتها تلك حتى ألقى أحدهم فوقها وفوق إكليل شبكة صيد متينة مصنوعة من الخيوط القوية والكتان السميك، قال أحدهم وهو يقترب:

- كان صيدًا سهلًا

كانت عيون الصيادين جميعها مسلطة على سراي وكأنهم لا يصدقون جمالها، وفي أثناء انشغالهم بتأملها استطاع إكليل مستخدمًا منقاره أن يحدث ثقبًا بشبكة الصيد، ثم يتسلل خارجًا ويطير مبتعدًا:

- لا تقلقي سراي، سأتي لك بالمساعدة.

ولكنه لم يبتعد كثيرًا حتى صاح عليه أحد الصيادين:

- أيها الطائر، انظرا!!

نظر إكليل للخلف فوجدهم قد وضعوا سكينًا عند رقبة سراي،
وكان أحدهم يقول:

- عد لمكانك وإلا قتلناها!!

- لا تستمع إليهم اذهب وأخبر عاصم...

سد الرجل بيده فمها وصاح:

- عد وإلا قتلناها .

ثم ولكي يثبت جديته في التهديد فإنه ضغط بالسكين على عنقها
أكثر حتى سال الدم وصاح: «نحن لا نمزح أيها الطائر» .. وبهذه
الطريقة استدار إكليل في الجو متنازلًا عن إبلاغ عاصف والحكيم
بالأمر، وعاد إليهم حفاظًا على سلامتها، قالت سراي تحادثه:

- لماذا عدت؟!

همس وهو يسد بريشه فتحة الجرح الصغيرة في عنقها:

- لأنني لن أتركك وحيدة وأنت بهذه الحالة.

مضى الكثير من الليل وسرابي وإكليل لم يعودا من الخارج
بعد؛ لذلك بدأ القلق يتسرب شيئًا فشيئًا لقلب عاصف غير أنه كتم
مخاوفه تلك في نفسه وظل جالسًا ينظر باتجاه الباب، ينتظر
عودتهما بفارغ الصبر، قال الحكيم:

- لقد طال غيابهما أليس كذلك؟!

- لا يهمني أمرهما

- لا تبالغ، أعرف أنك مهتم لأمرهما.

مضت بينهما لحظة صمت قصيرة حاول فيها عاصف التظاهر
باللامبالاة حتى هتف الحكيم: لقد عادا أخيرًا!!

فز عاصف وهو ينظر باتجاه الباب:

- حقا؟!

قال الحكيم بسخرية بعد أن نجح في نصب الكمين له:

- يبدو أنك حقًا لست مهتمًا لأمرهما.

صمت عاصف ولم يعلق بينما قال الحكيم له: اسمع .. أنت شخص
أبله.. كلانا يعرف ذلك.. ولكن أريدك أن تتعلم بأن لا تدع الغضب
يعميك عن فعل الصواب يا عاصف؛ حراس القافلة ما زالوا يبحثون
عنا وأنت لا تعرف ما الذي قد يحدث لسرابي وإكليل في الخارج، لذا
دعنا نذهب للاطمئنان عليهما.

نهض عاصف، قال وقد اقتنع:

- نطمئن عليهما ولكن دون أن يشعران بنا...

في بداية الأمر بحثا حول البيت وعندما لم يجدا لهما أثرا قررا أن يوسعا نطاق البحث أكثر فافترقا وذهب كل واحد منهما في اتجاه، ثم وبعد أن مضت أكثر من ساعة ونصف الساعة من التفتيش المتواصل عادا والتقيا في النقطة التي كانا قد افترقا منها، سأله عاصف بقلق:

- هل وجدت شيئا؟!

- لا، لقد بحثت في كل مكان، دعنا نرفع أصواتنا بالنداء.

هتف عاصف والحكيم:

- سراي، إكليل هل تسمعانا؟!

وبسبب الأصوات المرتفعة اجتمع أهل القرية حولهما واقترب منهما الرجل المسن:

- ما الذي حدث؟!

- لقد اختفى كل من سراي وإكليل يا جداه!!

قال الرجل المسن:

- هل من الممكن أن يكونا قد رحلا بسبب سوء التفاهم الذي حدث

بينكم؟!

الحكيم مستبعدا ذلك الاحتمال:

- لا، لا أظن.

- أخاف يا جدّاه من أن يكون هناك شيء سيئ قد وقع لهما!!

- لا تجزع لن يحدث لأحد منكم مكروه وأنتم ضيوف قريتنا

صاح الرجل المسن فيمن حوله:

- يا أهالي القرية هل شاهد أحد منكم الفتاة والطائر؟!

خرج واحد من صفوف أهالي القرية كان نحيفًا يشبه هيكلاً عظمياً
له عينان واسعتان مثل عيني بومة وملامح وجه شخص ملفوف
حول عنقه حبل مشنقة:

- لقد أخذهم حرس القافلة .. شاهدتهم وهم يلقون عليهما القبض
أسفل الشجرة.

تبادل عاصف والحكيم نظرات خائفة، قال الحكيم:

- يجب أن نتحرك بسرعة.

تكلم الرجل المسن: أنا ورجال قريتي في خدمتكم.

- شكرًا لقد قدمت لنا أكثر بكثير مما كنا نأمل يا جدّاه ...

انطلق الاثنان لإنقاذ سراي وإكيل ولكن قبل أن يتجاوزا حدود
القرية قطع عليهما الطريق شاب غريب بأن قال:

- ما أسهل الكذب عليكما..

عاصف وقد استوقفته تلك الكلمة: ما الذي تقصد؟

- هل صدقت كلام الرجل المسن؟!

- نعم أنا أثق به

- لم يعد هناك أحد يستحق الثقة في هذا الوقت

تدخل الحكيم:

- من أنت وما الذي تريده؟!

اقترب منهما ذلك الشاب الغريب وقال يجيب على السؤال:

- أنا أحد سكان القرية اسمي جاسر وتستطيعان مناداتي بالشمالى.

- وما الذي تريده أيها الشمالى؟!

- أريد إخباركما بأن أهالي القرية هم من قاموا باختطاف الفتاة

والطائر

تمتم عاصف غير مصدق:

- لقد أكد لنا الرجل المسن بأن

قاطع الشمالى:

- الرجل المسن هو بالذات من أمر باختطافهما.

كان من الصعب عليهما تصديق ذلك الخبر، قال الحكيم:

- لماذا سيقوم باختطافها؟! لا تقل لي لأنه أعجب بجمال سرايى

وبأنه يريد لها لنفسه؛ فلقد تجاوز ذلك الرجل المسن العمر الذي

يستطيع فيه اقتراب النساء.

- إنهم يعبدون الأصنام، ولهم في كل شهر قربان يذبحونه لآلهتهم.
تساءل عاصف:

- وما دخل هذا باختطاف سراي وإكيل؟!

أجاب الحكيم الذي بدا أنه كان مطلقًا على تلك الأمور: لأنهم لن يجدوا أجمل من سراي وأكثره ثدرة من إكيل حتى يتقربوا بهما لآلهتهم.

- ها أنت ذا قد بدأت تستخدم عقلك أيها الفأرا!!

تمتم الحكيم بكلمات غاضبة لم يسمعها أحد بينما قال عاصف:

- وأنت ما مصلحتك من إخبارنا بهذا الأمر؟

- لأنني أحترم العقل - وتابع موضحًا: أنا لا أؤمن بتلك الأصنام إنها في آخر المطاف أشياء يخلقها أبناء قريتي بأيديهم ثم يتخذونها آلهة يعبدونها.

جرب الشمالي عبادة الأصنام عندما كان أصغر سنًا ولكن في إحدى المرات هبت رياح شديدة أسقطت كل الأصنام أرضًا وحطمتها فعرف حينها أنه يعبد الشيء الخطأ، جرب عبادة النار ولكن في أحد الأيام وبينما كان خاشعًا في عبادته إذ مر عن طريق المصادفة كلب أجرب بال على تلك النار وأطفأها، حاول أن يعبد نجم الشمس ولكن مع الأيام لم تعجبه فكرة أن يغرب الإله من السماء ويشرق في اليوم التالي .. ومع الوقت توقف عن محاولاته وأصبح يتأمل في الطبيعة محاولاً أن يعثر باستخدام عقله فقط على الرب الذي خلقه وخلق كل الأشياء من حوله؛ فقد كان الشمالي يعتقد في قرارة نفسه بأنه لم

يأت إلى الأرض عن طريق المصادفة وبأنه لم يخلق في هذا العالم عبثًا.

- يجب أن تتحركا سريعًا إن كنتما تريدان إنقاذ الفتاة والطائر.

كان في مثل عمر عاصف تقريبًا، له ملامح شخص مشرّد وعيناه ناعستان ولديه ذقن مرقشة بحبات شعر نابتة خفيفة لونها أخضر، وكان يرتدي ثيابا واسعة بيضاء قصيرة، ويعلق على ظهره سيفًا طويلًا يشبه سيوف الساموراي ملوّنًا مقبضه بالأسود والذهبي.

عاصف:

- حسنا، سأثق بك.

- لا تثق بي - قال الشمالي ثم أردف:

- ففي هذا الوقت لم يعد هناك أحد يستحق الثقة.

قاطع الحكيم حديثهما غاضبًا: ثقا بي أيها الأبلهان.. سيموت كلاً من إكليل وسرابي وأنتما تتحدثان عن الثقة.

عندما وصلوا للساحة الخلفية للقرية والتي كان من المفترض - حسب كلام الشمالي - أنها المكان الذي ينصب فيه أهالي القرية آلهتهم، شاهدوا منظرًا غريبًا حيث كان جميع سكان القرية مجتمعين حول نار كبيرة ويطوفون حول صنم ضخم ينتصب وسط الساحة، قال الحكيم وهو يشير نحو مكان محدد:

- انظرا هناك

نظر الاثنان نحو المكان الذي أشار إليه الحكيم وقد أصابهما الفزع عندما شاهدوا ذلك المنظر .. حيث الرجل المسن يقوم بسن سيف ما بقطعة حديدية خشنة حتى يجعل نصله حادًا، وكانت سرابي تركع بالقرب من قدميه وهي مقيدة يداها للخلف ومعصوبة العينين بربطة قماشية، وبالقرب منها وعلى بعد خطوات شاهدوا إكليل محبوسًا داخل قفص.

رفع الرجل المسن السيف بكلتا يديه استعدادًا لقص رأسها ...

قال الشمالي وهو يمسك بمقبض سيفه: لقد تأخرنا

- أنا الذي يصنع ما يقول.

همس عاصف بينه و بين نفسه بينما كانت عينه اليسرى تتحول تدريجيًا للون الأحمر القاتم ثم فجأة انطلق نحو النقطة التي يقف فيها الرجل المسن بسرعة تشبه عبور صوت في الفراغ قال الشمالي مدهوشًا وهو يرى تلك السرعة:

- ما هذا؟!!

الحكيم بفخر: إنه عاصف، سليل الطين والنار.

وقبل أن يقطع السيف رقبة سرابي، كانت هناك خمسة مخالب حادة قد انغrust في بطن الرجل المسن مخترقة جدار معدته نافذة من ظهره للجهة الأخرى، نظر عاصف إليه وهمس:

- لو كانت هذه أربابا يا جدّاه لقامت بحمايتك مني!!

سقط الرجل المسن متأثرًا بجراحه وسقط معه سيفه .. مد عاصف

يده الثانية غير المتسخة بالدماء، وأزال العصابة القماشية عن عيني
سرابي وما أن نظر إليها حتى ولسبب لا يملك له تفسيرًا تذكر النبوءة
القديمة للخوف عندما قال له:

" لا تكن مغرورًا، سأعود إليك يومًا "

أطال النظر في عينيها العميقتين مثل محيط لم يسبق لأحد من
قبل أن اكتشف قاعه المظلم:

- لن أدع مكروهاً يصيبك مرة أخرى.

ثم ومن غير أن ينتبه كان هناك رجل ضخم البنية طويل القامة من
أهالي القرية قد تسلل خلسة وأخذ السيف الذي سقط من يد الرجل
المسن، ثم رفعه عاليًا ونزل به على رأس الفتى الهجين.

صاح إكليل يحذره:

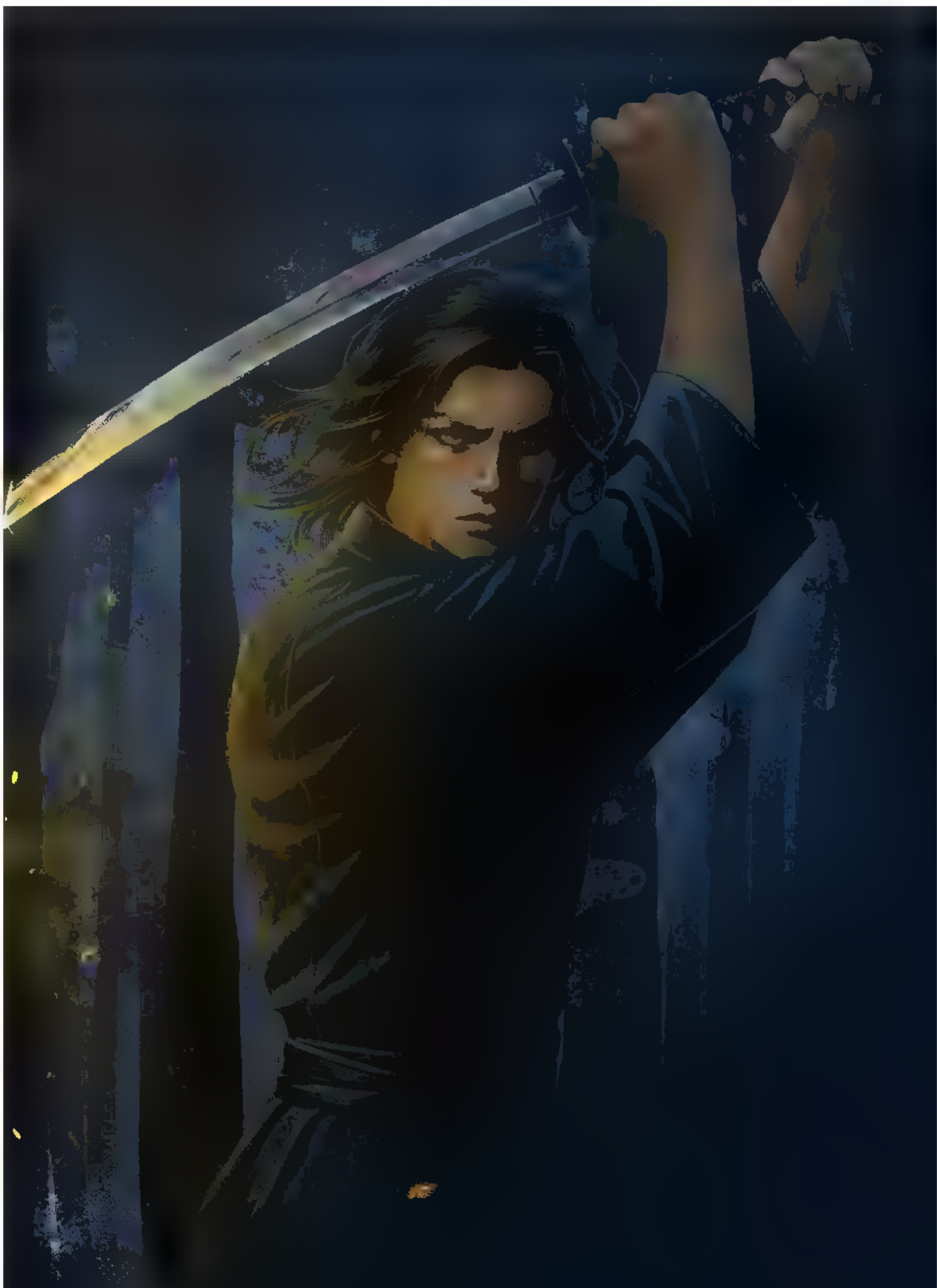
- انتبه!!

لم يكن عاصف يريد أن يموت في تلك اللحظة، ليس فقط لأنه لم
ينتقم بعد ممن قتل والدته ولكن هذه المرة كان هناك سبب إضافي
آخر يدفعه للحياة وهو حماية سرابي .. «لا أريد أن أموت الآن» هذا
ما قاله في قلبه وهو ينظر للسيف المتجه بسرعة نحوه من غير أن
يستطيع فعل شيء.. أغلق عينيهِ، كتم أنفاسه، شد أعصابه واستعد
لتذوق كعكة الموت.

ولكن الحياة كان لها رأي آخر في ذلك المشهد فقبل أن يشق

السيف رأس عاصف بلحظة كان هناك سيف آخر يشبه سيوف
الساموراي ملوئًا مقبضه بالأسود والذهبي تدخل معترضًا ليصد
الموت وصوت الشمالي يقول:

- افتح عينيك يا عاصف لا تخف نحن معك!!



فتح عينيه غير مصدق الأمر الذي حصل للتو فقد كان بينه وبين الموت مسافة لا تدع له فرصة للتفاوض بالنجاة، سأله الشمالي ساخرًا وهو يقاوم بصعوبة ذلك السيف الضاغط عليه:

- لا أحب قطع تأملات أحد ولكن هل ستظل مندهشًا لوقت طويل وهتف الحكيم قائلاً: تصرف أيها الأبله!!

التف عاصف على ذلك الرجل الضخم البنية الطويل القامة، أطبق على رأسه الكبير بكلتا يديه ثم عوجه بحركة سريعة متعاكسة أدت لكسر حاد في العنق تسببت في وفاته مباشرة .. ثم قام - مستعينا بأحد مخالفه الحادة - في معالجة القفل الحديدي للقفس المحبوس بداخله إكليل الذي ما أن خرج من حبسه حتى تقدم إليه عاصف بهذا الاعتذار:

- آسف يا إكليل.

قال إكليل سعيدًا: قلبث اعتذارك!!

ساخرًا تمتم الحكيم:

- أتمنى أن تقبل اللغة اعتذارك أيضًا يا إكليل.

ظلت سراي صامتة لا تتكلم لبعض الوقت ربما بسبب الخوف الذي أصابها، والأحداث المرعبة التي مرت بها فقال إكليل الذي انتبه للأمر:

- سراي بخير؟!

- لا تقلق أنا بخير.

التفت عاصف نحو أهالي القرية وقال يحدث الشمالي:

- ما رأيك في قليل من اللهو؟!

- ماذا تنوي أن تفعل؟!

- أن نلقن هؤلاء درسًا لا ينسوه!!

ولكن الشمالي الذي لم تعجبه تلك الفكرة قال:

- هل تعتقد أنني سأراك تقاتل أهالي قريتي بينما أتفرج عليك؟!

تدخل الحكيم: ماذا هل ستقف ضدنا؟!

- بل مع الحق قد أكون ساعدتكم في الخروج من هذه الورطة

لكني لم أفعل ذلك إلا بعد أن تأكدت من أن الحق معكم...

هتف عاصف بغضب:

- إنهم يستحقون الموت

- الذي يستحق الموت قد نال عقابه - قال وهو يشير برأس سيفه

نحو جثة الرجل المسن وأضاف قائلاً:

- أما هؤلاء فلا ذنب لهم في اختطاف سراي وإكيل.

تدخلت سراي: معه حق دعنا نتجنب الاشتباك معهم يا عاصف...

نظر عاصف نحو رجال القرية الذين كان الغضب يسيطر عليهم:

- حتى لو أننا تجنبنا فكرة الهجوم عليهم ، سيقومون هم بالهجوم

علينا

رد الشمالي:

- نهرب من أمامهم إذا

- هل معنى هذا أنك ستتنضم إلينا؟!

- يبدو أنني مضطر لذلك - وأضاف مبررا فبقائي هنا لن يكون مرحبًا به بعد الذي فعلته بكبيرهم .. ولكن أخبرني إلى أي مكان أنتم ذاهبون؟!

- للانتقام ممن قتل أُمي - وزمجر بحقد: للقضاء على ناب الفيل!!

- هل قلت ناب الفيل؟!

- أتعرفه؟!

- إنه أخطر رجل في أبايل إنه رئيس منظمة الجاثوم!!

- إذا كنت خائفًا تستطيع عدم مرافقتنا..

- بل سأتي معكم!!

قطعت سرابي عليهما الحديث:

- تستطيعان إكمال أحاديثكما بينما نحن نهرب..

قال الحكيم مؤيدًا ذلك الاقتراح:

- يجب أن نهرب من هنا بسرعة إذا كنا لا نريد الاشتباك مع هؤلاء

الناس.

وهكذا خضع عاصف أخيرًا لرغبة الشمالي وأعطى أمرًا بالانسحاب

فاستطاع الأصدقاء الخمسة الهرب بعيدًا من هناك دون إراقة قطرة

بعد مشوار طويل من السير المتواصل ليل نهار صادف الأصدقاء الخمسة خائًا للمسافرين ذا عدة طوابق ينهض عند ناصية الطريق، كان بناؤه مصنوعًا من خشب الأشجار وتفوح من أعطافه رائحة الغابات القديمة، فاقترح الحكيم عليهم أن يتوقفوا عنده قليلًا ليأخذوا فيه قسطًا من الراحة .. لم يكن عاصف يريد إضاعة المزيد من الوقت بالتوقف المتكرر وكاد أن يرفض الاقتراح، ولكن منظر سرابي الذي بدا عليه التعب من طول المشي وقلة الراحة هو ما أجبره على الموافقة:

- حسنًا، ولكننا سنكمل سيرنا غدًا عند شروق الشمس...

دخل الأصدقاء الخان وتوجهوا نحو طاولة الاستقبال التي كانت تقف خلفها امرأة ما وسألها عاصف:

- أوجد لديكم مكان نرتاح فيه حتى الغد؟

أجابت وهي تمعن النظر في الفأر والطائر:

- إننا لا نستقبل الحيوانات في هذا الثزل أيها الفتى.

كاد الحكيم أن يعلق ولكن عاصف أغلق فمه وتمتم في أذنه:

- لا تتكلم حتى لا يتسبب لنا ذلك بالمتاعب مفهوم؟!

حرك الحكيم رأسه موافقًا.

قال الشمالي وهو يخرج من ثيابه كيسًا به بعض النقود المعدنية:

- سندفع أجزًا مضاعفًا إذا ما سمحت باستقبال الفأر والطائر..

ترددت قليلًا قبل أن تبدي موافقتها:

- احرصوا على أن لا توسخ هذه الحيوانات المكان بقاذوراتها

وضع الشمالي قطعتين ذهبيتين فوق طاولة الاستقبال:

- لا تقلقي هذا لن يحدث؛ فهذه الحيوانات مدربة جيدًا على قضاء حاجتها في الأماكن المخصصة لها ...

همس الحكيم متذمرًا: اهتم بشؤونك أيها المتعجرف!!

بدهشة قالت: أقال هذا الفأر شيئًا؟!

عاصف وهو يحكم قبضته على فم الحكيم:

- لا لا .. إنها تخيلات فقط - وأضاف: هلا أخذتينا للغرفة؟!

كان جناحًا واسعًا ذاك الذي خصصته مالكة الخان لعاصف وأصدقائه مقابل المبلغ السخي الذي دفعوه لها، لذلك فإنهم عندما أصبحوا داخل الجناح لم يشعروا بأنهم محاصرون بالمساحة أو كثرة العدد .. ذهب الشمالي ليجلس عند النافذة وأخذ ينظر في القمر ويتأمل فيه كعادته بصمت محاولًا أن يتوصل لإجابات عن الأسئلة الفلسفية الكثيرة التي تسبح داخل عقله .. اقترب الحكيم من عاصف وطلب الحديث معه على انفراد، فذهب الاثنان لآخر نقطة في الجناح بحيث يستطيعان الكلام من غير أن يستمع أحد لما يقولانه .. أما سرايي الفرهة بسبب الأحداث الصعبة التي حدثت معها مؤخرًا

فإنها تمددت فوق السرير بجوار إكليل ووضعت يدها فوق ريشه
البرتقالي الناعم وكأنها صبية تحتضن لعبتها المفضلة، ثم أغلقت
عينها ونامت، همس الحكيم يحدث عاصف:

- ما الذي ستفعله بشأن هذه الفتاة؟!

- تقصد سراي؟!

- لا، أقصد الشمالي - ثم أضاف بحدة: نعم سراي ومن غيرها؟!

- ما بها؟!

- ما الذي ستفعله بشأنها؟!

- سأحميها بروحي كما وعدت والدتها ...

- ألم تسمع ماذا قاله الشمالي عندما كنا في القرية؟!

- ماذا قال؟!

- ألم يقل بأن ناب الفيل الذي تسعى خلفه هو رئيس الجاثوم؟!

- بلى وهذا ليس شيئًا جديدًا فأنا أعرف هذه المعلومة من قبل

- ولماذا لم تخبرني بها؟ أكنت تخبئها لي كمفاجأة تخبرني بها بعد

أن نموت؟

- نسيت .. وها أنت عرفت هل تريد أن تنسحب؟!

- لا

- إذا ما الذي تريده؟!

- هذه الفتاة

- تقصد سرايبي؟!

- هل أنت أبله؟! نعم أقصد سرايبي!!

- توقف عن التحدث بالألغاز وتكلم بوضوح!!

- مهمتك القادمة لن تكون سهلة بالنسبة لفتاة مثلها

- وماذا تقترح؟! نتركها خلفنا ونذهب؟!

- ولماذا تظن أنني اقترحت عليك الدخول لهذا الخان منذ البداية؟!

- ظننت أنك متعب وتريد أن ترتاح قليلاً!!

- لا أنا لست متعباً ولكنني اقترحت ذلك لكي نتخلص من سرايبي!!

لم يعجب ذلك الكلام عاصف فهمس غاضباً:

- ألم تكن معنا عندما وعدت والدتها فيروز بأنني سأحميها

بروحي؟!

- بلى كنت معكم وقد وعدتها أنا أيضاً بأن أحميها إن كنت تذكر!!

- لماذا أسمعك تقول هذا الكلام الغريب إذا؟!

- أقوله من أجل أن أحميها - ثم أضاف موضحاً: ثارك عند رئيس

منظمة الجاثوم... إنها أخطر منظمة في أباييل وهذه الفتاة لن

تستطيع مقاومة الخطر القادم، هل تستطيع أن تخبرني ما الذي

ستقدمه لها لو أنك اشتبكت مع تلك المنظمة المرعبة؟!

- سأحميها بالطبع!!

- بماذا؟! بأنيا بك أم بأظافرك الناعمة التي تخرج وقت غضبك؟!

- لا تقل من شأن قوتي أيها الحكيم...

- أنا لا أقل من شأنك أعلم أنك قوي ولكن لكل واحد منا سبب يدفعه للتضحية من أجله .. أنا سوف أخوض هذه المغامرة معك من أجل أن تساعدني لاحقًا في إزالة التعويذة عني .. أنت تريد العثور على الجنية خيزران لكي تساعدك في الانتقام ممن كانوا سببًا في قتل والدتك .. إكليل سيأتي معنا لأن مصيركما أصبح مرتبطًا.. الشمالي سيرافقنا لأنه بات مشردًا ولا يملك مكانًا آخر يذهب إليه، ولكن هذه الفتاة لا تملك سببًا يدفعها للتضحية من أجله .. لهذا لا تكن أنانيًا وتقحمها في مصائبك، دعها تذهب في سلام!!

فكر لبعض الوقت في الكلام الذي استمع إليه للتو وأدرك أن ما يقوله الحكيم هو الصواب، فسرابي حقًا لا تملك دافعًا يجعلها تضحي بحياتها من أجله وبالإضافة لذلك فإنها أضعف بكثير من أن تستطيع مواصلة هذه المغامرة معهم.

تمتم متسائلًا وكأنه بدأ يقتنع بالأمر:

- وماذا سيحدث لها إن استيقظت في الغد ولم تجدنا؟!

- سوف تتساءل قليلًا عن المكان الذي ذهبنا إليه، سوف تنتظرنا لبعض الوقت معتقدة أننا سنعود إليها وعندما يطول انتظارها ستغادر هذا الخان وتبحث عن حياة أخرى لها، هذا كل ما في الأمر...

قطع الشمالي عليهما حوارهما:

- ما الأمر؟!

همس عاصف يُجيبه:

- الحكيم يقول بأن علينا ترك سراي هنا، والمغادرة من دونها.

فقال الشمالي والذي فهم الهدف من وراء ذاك الاقتراح:

- لعله يريد أن يجنبها الأخطار القادمة...

- هل هذا يعني أنك موافق؟!

- لا أعلم يا عاصف فهذا الأمر يعود لتقديرك للموقف ولكني أريد أن أخبرك بشيء ما ربما يساعدك في اتخاذ قرارك، وهو أنك إن كنت فعلاً تسعى خلف ناب الفيل فهذا يعني أن هناك خطراً كبيراً على حياة سراي.

تسلق الحكيم حتى وصل كتف الشمالي وقال بحماس:

- من النادر أن نصادف عقلاء في هذا العالم المجنون..أتعلم؟!.. أقسم لو أنك كنت فتاة لكنت الآن أعرض عليك الزواج!!

أكمل الشمالي يقول:

- ولكن هذا لا يعني أنني أوافق الحكيم في كل ما قاله فأنا لا أحب الذين ينسحبون من الحياة فجأة بدون استئذان، إن كنت ستغادر هذا المكان من غير اصطحابها معك فأنا أقترح عليك على الأقل أن تخبرها بالأمر قبل مغادرتك.

بعد تفكير طويل اقتنع عاصف بالاقتراح الذي قدمه الحكيم، ولكنه لم يقتنع باقتراح الشمالي فهو لن يستطيع أن يوقظ سراي

من نومها لأجل أن يقول لها بأنهم قرروا فجأة الرحيل عنها وتركها خلفهم:

- سنسحب من غير أن نخبرها بشيء.

الشمالى وهو يخرج كيس النقود من جيبه: فى هذه الحالة سنترك هذا المبلغ هنا؛ فربما يكون مفيدًا لها عندما تستيقظ لاحقًا ولا تجد أحدًا منا.

وقبل أن يرحلوا تذكر عاصف شيئًا:

- أين إكليل؟!

أشار الحكيم بخطم أنفه نحو السرير الذى تنام فوقه سرايى وقال:
- إنه نائم هناك معها - وأضاف: لم أكن أعرف أن طائر البرتقالة هذا زير نساء!!

اقترب عاصف من السرير بحذر حتى لا يوقظ سرايى عن طريق الخطأ وهمس:

- إكليل، استيقظ.

فتح إكليل عينيه نظر نحوه وسأل: ماذا؟!

- سنغادر

- وسرايى؟!

- سنتركها خلفنا

- لا - قال إكليل: لن نترك سرايى!!

كانت تلك هي المرة الأولى التي يعصي فيها أمراً يوجهه إليه
عاصف:

- لا أملك وقتاً لأشرح لك الأسباب ولكنني أمرك بأن تتحرك فوراً!!

الحكيم متدخلًا وبنبرة صوت مستفزة:

- هل وقعت في حبها يا طائر البرتقالة؟!

نظر إكليل نحوه بغضب إنه يشعر بأنه هو السبب وراء هذا
الاقتراح، وكاد أن يهاجمه فعلاً لولا أن سرابي استيقظت في تلك
اللحظة:

- ماذا هناك - تساءلت بتكاسل - لماذا كل هذه الجلبة؟!

تظاهر الجميع بأن لا شيء يحدث، قال عاصف:

- لا شيء كنا فقط نريد أن.. آآ.. نريد أن

لم يكن يعرف بماذا يجيب، فقال وهو يلتفت نحو الشمالي:

- قل شيئاً!!

أما الشمالي الذي لم يكن معتاداً على الكذب فإنه قال:

- سيخبرها الحكيم بكل شيء فهو صاحب الفكرة أليس كذلك؟!

- حسناً أقول الحقيقة - ثم نظر الحكيم نحوها لبعض الوقت،

وقد أخجله جمالها من قول الحقيقة:

- آآ.. نحن فقط كنا نريد أن نأخذ إكليل لكي نقوم بتحميمه فهو لم

يستحم منذ فترة طويلة .. ومن المؤكد أن ريشه الآن قد اكتظ

بالحشرات والقمل.. هيا يا إكليل تعالي معنا!!

قالت سرابي ببراءة وهي تشم رائحة ريش إكليل الناعم:

- ولكن رائحته جميلة، وريشة نظيف.

الأنثى لم تأت لهذه الأرض إلا لأجل أن تقع جميع الكائنات في فخاخ حبها وربما لهذا السبب شعر إكليل بأنه ينتمي لسرابي وأنه لا يستطيع التخلي عنها .. عندما تأكد لعاصف والحكيم والشمالى أن خططهم باءت بالفشل فإنهم قرروا الانسحاب ليفكروا بخطة بديلة، ولكنهم قبل أن يذهبوا مدت سرابي يدها وأمسكت بيد عاصف وتمتت بلطف: «لا تذهب أرجوك لن أستطيع أن أنام بهذه الطريقة».. شعر بتيار كهربائي يصعق قلبه عندما أمسكت بيده وقال بتوتر:

- حاولي أن تنامي، لن نزعجك مرة أخرى

- لن أستطيع ...

- لماذا؟!

- لا أستطيع النوم بسهولة بعد أن يوقظني أحدهم

- وماذا تريدني مني أن أفعل حتى تستطيعي النوم مرة أخرى؟!

- لماذا لا تحكي لي حكاية، فبهذه الطريقة سأنام بسرعة؟!

تدخل الحكيم قائلاً: اسمعيني يا سرابي نحن جئنا لأجل مهمة صعبة .. ولم نأت لأجل أن نقوم بدور المربيات، حاولي أن تنامي من تلقاء نفسك.. هيا يا عاصف دعنا نذهب - ثم أضاف وهو يغمز بعينه: لكي نجد خطة بديلة نستطيع من خلالها القيام بتحميم إكليل، فأنا

لم أعد أستطيع احتمال رائحته أكثر من ذلك!!

جلس عاصف على طرف السرير وجعل يمرر يده الخشنة على شعرها الطويل الناعم - كما كانت أمه تفعل معه في أزمته سابقة - نظر مباشرة إلى عينيها، وهو الذي لم تكن لديه خبرة في مجابهة العيون ثم همس بحنو:

- منذ وقت طويل .. طويل جدًا .. كان هناك جيش كبير من البشر والجن والطير والرياح، كانوا جميعًا يسرون خلف رجل واحد اسمه النبي سليمان.. كان ذلك الجيش الكبير يعبر من خلال واد ضخم اسمه وادي النمل فصاحت آنذاك نملة صغيرة اسمها جرسا تأمر بقية أفراد النمل بالدخول إلى ...

قاطع الحكيم سرد القصة هامسًا:

- حسنًا لقد نامت هيا خذ إكليل ودعنا نذهب!!

قال عاصف وقد اتخذ قراره:

- لن أذهب وأترك هذه الفتاة خلفي ...

- ولكنها قد تموت معنا، ما الذي جرى لعقلك أيها الأبله؟!

- بل الأبله هو الذي يغادر فتاة قطع لها وعدًا بالحماية...

سأل الشمالي:

- أنت متأكد مما تقوله؟!

أوما برأسه مؤكدًا، ثم قال بعقّة:

- سَأَبْقَى مَعَهَا وَأَحْمِيهَا بِرُوحِي، وَلَنْ أَتْرَكَهَا أَبَدًا.

وَمَا أَنْ أَنْتَهَى عَاصِفٍ مِنْ جَمَلَتِهِ الْأَخِيرَةِ تِلْكَ حَتَّى تَوْهَجَتْ قَلَادَةُ
الْأَبَاطِرَةِ الْمَعْلُوقَةِ فِي عُنُقِهِ وَبَاتَ يَنْبَعِثُ مِنْ خِلَالِ أَحْرَفِهَا شِعَاعٌ أَصْفَرٌ
قَوِي يُظْهِرُ وَاضِحًا مِنْ خَلْفِ ثِيَابِهِ، وَلَمْ يَلْبَثُوا كَثِيرًا مِنْ الْوَقْتِ حَتَّى
سَمِعَ الْجَمِيعُ صَوْتًا يَنْبَعِثُ مِنْ زَاوِيَةِ جَنَاحِ الْخَانِ، كَانَ صَوْتًا أَشْبَهَ
بِصَوْتِ طَاحُونَةٍ هَوَاءَ قَدِيمَةٍ يَقُولُ:

- لَقَدْ أَصْبَحْتَ رَجُلًا..

ثُمَّ وَمِنْ الْأَشْيَاءِ ظَهَرَتْ فِي الْهَوَاءِ امْرَأَةٌ سَمْرَاءٌ لَهَا شَعْرٌ غَجْرِي
أَحْمَرُ اللَّوْنِ، تَرْتَدِي فُسْتَانًا طَوِيلًا ضَيِّقًا عَلَى جِسْدِهَا الْفَاتِنِ النَّحِيلِ
تُمْسِكُ فِي يَدِهَا عَصًا طَوِيلَةً تَشْبَهُ صَوْلْجَانَاتِ الْمُلُوكِ.

قَالَ عَاصِفٌ مَتَوَثِّبًا:

- مَنْ أَنْتِ؟!

- خِيْزْرَانُ - قَالَتِ الْمَرْأَةُ - أَنَا الْوَزِيرَةُ خِيْزْرَانُ.



لقد فهم الآن أن الرجولة ليست في التقدم بالعمر بل إنها بالأفعال فعندما وضعته الأقدار قبل قليل أمام طريقين إما الهرب بعيدًا أو الوفاء بالوعد، كانت الأقدار في الحقيقة تضعه أمام خيارين إما أن يهرب من المسؤولية ويظل جبانًا طوال عمره صغيرًا في عين نفسه، وإما أن يأخذ المسؤولية على عاتقه ويصبح رجلًا .. كان الجميع مدهوشين من منظر تلك الجنية حتى إن الدهشة انتقلت لسرابي النائمة، فاستيقظت مفزوعة وهي تهمس بخوف:

- من هذه المرأة؟!

همس إكليل: الجنية خيزران.

أما الحكيم فإنه التصق من الرهبة في مكانه وكأنه سقط في بركة من الطين المتحرك، وحده الشمالي من بقي متماسكًا وسط هيبة ذلك المشهد قالت الجنية خيزران:

- ما الذي تريده يا ابن عائلة الأباطرة؟!

- الانتقام - قال - الانتقام ممن قتل أُمي.

- وهل تعلم مَنْ قتلها؟!

- ناب الفيل!!

- وهل تعلم من يكون ناب الفيل هذا؟!

قال الحكيم متطفلًا: رئيس منظمة الجاثوم

التفتت خيزران إليه وقالت توبخه: لم يوجه أحد السؤال إليك!!

ضحك الحكيم من شدة الخوف وقال: آسف

عادت خيزران تنظر لعاصف وتسأله:

- هل تعلم من يكون ناب الفيل؟!

- نعم، أنه رئيس منظمة الجاثوم

وهنا قالت الجنية خيزران:

- وهل تعلم أيضًا بأنه هو نفسه طاغين ملك مملكة أبايل؟!

تضاعف الخوف بقلوب أصدقاءه عندما سمعوا تلك المعلومة فالوقوف ضد طاغين يعني الموت الأكيد، ولكن لم يتكلم أحد منهم أو يعبر عما كان يشعر به في تلك اللحظة خوفًا من غضب الجنية خيزران.

قال عاصف الذي أحس بتلك المشاعر السلبية التي أصابت أصدقاءه:

- سأقتص منه حتى لو اضطررت لقتاله وحدي..

لحظات من الصمت امتدت بينهم حتى همست سراي:

- لن تكون وحدك يا عاصف أنا معك ...

لم تبد خيزران غضبًا من تدخل سراي ذاك، فقال الحكيم:

- أيتها الجنية خيزران انظري لقد تكلمت سراي!!

- اصمت أنت!!

ضحك الحكيم مرة ثانية من الخوف، وقال: حسنا آسف!!

نظرت نحو عاصف وقالت:

- حتى تنجح في قهر ناب الفيل فإنه يجب عليك أن تقنع الأباطرة
بالتحالف معك

- وكيف أقنعهم؟!

- تذهب وتتحدث إليهم...

- وأين هم؟!

- في مدينة وبار

- مدينة وبار؟!

- إنها مدينة تحت الأرض تختبئ فيها عائلة الأباطرة

- يختبئون؟! - تساءل عاصف متعجبا - يختبئون من ماذا؟!

- من طاغين لأنه يريد القضاء عليهم..

- وكيف تريدني أن أطلب المساعدة منهم وهم يخافون منه؟!

- إن طاغين يمر حاليًا بأضعف فترات ملكه هناك انقسامات

كبيرة في صفوف جيشه بسبب الظلم الذي يمارسه في حقهم، كما

أن أغلب مدن وقرى مملكة أبايل أصبحت تعاني الفقر والحاجة

بسبب الانتهاكات التي تمارسها الجاثوم في حقهم، لهذا فهناك أمل

بأن تستطيع التغلب عليه لو أنك نجحت في إقناع عائلة الأباطرة

بالتحالف معك.

- ولماذا يريد القضاء عليهم؟!

- إنهم الملوك الشرعيون لمملكة أبايل وهو يريد القضاء عليهم حتى لا يستيقظوا من غفلتهم يوقا، ويقرروا استعادة ما كان لآبائهم وأجدادهم.

- وإذا كانوا هم الطريقة الوحيدة لتحقيق ثأري فلماذا طلبت مني تاج البحث عنك أنت وليس هم؟!

- لأنني الوحيدة التي تستطيع أن ترتب موعدًا لك معهم...

- حسنا - قال بحماس - وأنا أريدك أن ترتبي لي موعدًا معهم

- لقائك بهم لن يكون بهذه السهولة...

- ماذا تعنين؟!

- هناك شرط يجب عليك أن توافق عليه أولاً

- أي شرط؟!

- لا أستطيع إخبارك به، يجب أن توافق عليه قبل أن تعرفه.

- كيف تريدني مني أن أوافق على شيء لا أعرفه؟!

- إن كنت تريد تحديد موعد للقاء عائلة الأباطرة فيجب عليك أن

توافق على الشرط قبل أن تعرف ما هو - ثم أضافت وكأنها تقوم

بتنبيهه لأمر هام: ويجب عليك أن تعلم بأنك في حال وافقت على

سماع الشرط فإنك لن تستطيع الانسحاب منه أبدًا.

- وماذا سيحدث لو أنني انسحبت؟!

- ستموت حينها ويموت معك جميع أصدقائك.

بدا عاصف مترددًا لا يعرف كيف يتصرف فقال مترددًا:

- لو أن الموت سيكون لي وحدي لكنت وافقت، ولكن لن أحمل أصدقائي فوق طاق....

قاطعت سرايي كلامه هامة:

- وافق يا عاصف، وافق ولن نخذلك.

همس إكليل والشمالي في ذات الوقت:

- وافق

لم يتكلم الحكيم لأنه كان خائفًا من أن يقول شيئًا فتغضب عليه الجنية خيزران، ولكن عندما نظر إليه الجميع ينتظرون قراره فإنه هز رأسه وهو ينظر نحو عاصف وكأنه يريد أن يقول له «وافق».

كانت تلك الروح الحماسية العالية والتضحية الكبيرة التي قدمها الأصدقاء إليه كفيلتين بأن تجعلاه يتخذ قرارًا نهائيًا بشأن ذلك الأمر، فقال وهو ينظر نحو الجنية خيزران:

- حسنًا أنا موافق، ما هو الشرط؟!

- ستعرف بعد قليل.

قالت ذلك ثم ضربت الأرض بعصاها ثلاث مرات فانشقت الأرضية الخشبية لغرفة الخان، وخرجت منها شيطانة قصيرة نحيلة تقف على قدمين تغطي صدرها وعانتها بأقمشة خفيفة تعكس ما خلفها، كان شكلها يشبه الإنسان تمامًا إلا أن لون بشرتها يميل للزرقة قليلًا

وأذنيها كانتا أطول بشيء بسيط من الشكل الطبيعي للأذن البشرية..



تكلمت بصوت يشبه عزف ناي:

- هل قامت سيدتي الوزيرة بطلبي؟!

قالت خيزران وهي تشير بعصاها نحو عاصف:

- هذا الولد يا روزانا

- ما به؟!

- إنه عاصف ابن جوماننا ابنة سيدك جبار الأباطرة

ركعت الشيطانة على ركبة واحدة أحت رأسها للأسفل:

- خدامتك روزانا يا سمو الأمير.. إحدى مقاتلات جدك سيدي جبار

الأباطرة.

قالت الجنية خيزران:

- أميرك عاصف يرغب في مقابلة عائلته

- ولكن يجب أن يوافق سمو الأمير على الشرط أولاً يا سيدتي

الوزيرة

- لقد أخبرني بأنه موافق

عذراً - قالت روزانا - أريد سماع ذلك بنفسني

- قال عاصف: أنا موافق على الشرط

- وتعرف ما الذي سيحدث لك في حال انسحبت من الشرط؟!

- نعم أعرف

قالت وكأنها تريد أن تتحقق بنفسها:

- وما الذي سيحدث لك؟!

- الموت لي ولأصدقائي

امتدت بينهما لحظة صمت طويلة وكأن الشيطانة روزانا تريد بفترة الصمت تلك أن تعطي فرصة لعاصف حتى ينسحب .. ثم ولكي تقوم بشراء بعض الوقت لتمنحه فرصة التفكير أكثر فإنها قالت:

- لا أستطيع أن أقول له الشرط يا سيدتي الوزيرة.

- لماذا؟!

- ذلك الفأر هو السبب

سأل عاصف: ما به؟!

- يفكر بأفكار قذرة تجاهي!!

كادت الجنية خيزران أن تسدد له ضربة مستخدمة العصا التي بيدها، ولكن الشمالي وسرابي وإكليل حاوطوا الحكيم مكستعدين لتلقي الضربة بدلاً عنه، فقال عاصف متفاخرًا وهو يخفض بيده عصاها:

- بمثل هؤلاء الأصدقاء أستطيع القضاء على العالم كله لو أردت.

قال الشمالي موجهًا كلامه للحكيم بلهجة معاتبة:

- هلا صرفت أفكارك القذرة عنها؟!

- سأغض عيني وأفكر بشيء مقرف حتى أصرف أفكاري عنها،

سأفكر بتاج!!

التفت عاصف نحو الشيطانة وقال:

- ما هو الشرط؟!

وعندما بدا لها أنه لن يتراجع عن رأيه، فإنها قالت مستسلمة:

- الشرط هو أن تقتل البشري الذي تزوج والدتك جوماننا ثم تقوم بتقديم دمه لعائلة الأباطرة!!

لفرط صعوبة الشرط فإن عاصف لم يستوعبه في البداية، فتدخلت الجنية خيزران قائلة باختصار:

- الشرط هو أن تقتل أباك بحر...

- لا يمكن أن أوافق!! لا يمكن أن أقتل أبي!!

فقالت الجنية خيزران:

- ستموت إذا أنت وأصدقائك

تحولت عينه اليسرى للون الأحمر القاتم وبرزت مخالفته من رؤوس أصابعه ثم وبلمح البصر وجه طعنة قاتلة للجنية خيزران اخترقت جسدها ونفذت من الجهة الأخرى، ولكن خيزران لم تمت بل لم يبد عليها أن تلك الطعنة أثرت فيها بأي شكل من الأشكال. قالت بهدوء لا يناسب حساسية الموقف:

- ليست كل الأمور تحل بالقتال يا عاصف...

سحب مخالفته من جسدها وقال بغضب: لن أنفذ هذا الشرط!!

- سيكون لديك فرصة حتى غروب الشمس، وبعدها تموت أنت وأصداؤك إن لم تنفذ الشرط..

قالت الجنية خيزران ذلك ثم اختفت دون أن تضيف شيئًا آخر.

تدخل الشمالي متسائلًا وهو ينظر نحو الشيطانة روزانا:

- هل هذه الطريقة هي الوحيدة التي ستضمن لعاصف مساعدة عائلة الأباطرة؟!

- بل هذه الطريقة الوحيدة التي ستجعلهم يوافقون على مقابلته.

سأل عاصف: ماذا تعنين؟!

- أعني أن تقديم دم والدك لهم لن يضمن لك موافقتهم على طلبك

- هل هذا يعني أنهم قد يرفضون طلبي؟!

- ربما ..

تساءلت سرايبي:

- أليست هناك طريقة للانسحاب؟!

- لا - أجابت - إما تنفيذ الشرط أو موت الجميع

- أنا لست مستعدًا للموت - قال الحكيم وأضاف: لقد وافقت على

القدوم إلى هنا معك يا عاصف من أجل مساعدتك في لقاء خيزران

وتحقيق ثأرك وفي المقابل تقوم أنت بمساعدتي في إلغاء هذه

التعويذة عني، ولم آت لأموت بهذه الطريقة الرخيصة!! قالت سرايبي

معاتبه: أيها الحكيم ما هذا الكلام!!

علق إكليل: جبان!!

- لست جبانًا ولكني أحب الحياة.

ثم التفت نحو الشمالي بتوتر وصاح: قل شيئًا أنت أيها العاقل!!

همس الشمالي معترفًا:

- لا أريد أن أموت قبل أن أعرف الرب.

- هذا هو الشمالي الذي أحبه وأثق بعقله .. أعدك بأنك لو رافقتني

لقرية الجساسة فسأطلب من تاج أن تحولك لفتاة وأتزوجك، ثم نفتش أنا وأنت عن الرب سويًا.

- اصمت أيها الحكيم فأنا لم أكمل كلامي بعد - قال ذلك الشمالي

وأضاف:

- أنا لا أريد أن أموت، وأظن أن لا أحد في هذه الغرفة يريد أن

يموت أيضًا، ولكننا طلبنا جميعًا من عاصف أن يوافق على الشرط ..

أليس كذلك يا سرايبي؟! ألم تطلبي من عاصف أن يوافق؟! وأنت

يا إكليل ألم تطلب منه أن يوافق؟! وأنا أيضًا طلبت منه أن يوافق،

وأنت أيها الحكيم ألم تحرك رأسك طالبا منه أن يوافق؟!!

همس متذمرًا:

- ليتني أصبت بالشلل قبل أن أحرك رأسي!!

أكمل الشمالي:

- هل نتخلى عنه بعد أن أخبرناه بأننا سنكون معه؟!!

قالت سرايبي:

- لا لن نتخلى عنه.

بعد أن انتقلت بهم الشيطانة روزانا من الخان الذي كانوا يقيمون فيه وجدوا أنفسهم فجأة وقد أصبحوا يقفون في ساحة داخلية لبیت كانت تعبق من حيطانه الطينية بقايا من رائحة ياسمين غابرة .. تلفت عاصف حول نفسه بتأثر شديد وكأن ذلك المكان قد أصابه في قلبه بمخالب الحنين:

- هذا هو البيت الذي كنت أقيم فيه مع أمي، لماذا جئت بنا إلى هنا أيتها الشيطانة؟!

- لأن والدك أصبح يقيم فيه يا سمو الأمير.

- بحريقيم هنا - سأل بدهشة - وأين هو الآن؟!

أشارت للغرفة التي كان عاصف ووالدته قديمًا يخلدان للنوم فيها:

- إنه نائم هناك - ثم أضافت قبل أن تختفي: بعد أن تنتهي من مهمتك أمسك قلادة الأباطرة بيدك، واضرب الأرض بقدمك اليسرى ثلاث مرات آتي إليك.

تسحب عاصف نحو الغرفة وعندما ألقى نظرة من خلال النافذة وجد والده وقد كان نائمًا فوق فراش النوم، يحتضن بكتفا يديه الوسادة البيضاء ذاتها التي أعطته إياها جوماننا قبل أعوام:

- أشعر بأنني لن أستطيع فعلها - همس لأصدقائه - كيف سأحتمل نظرته لي وأنا أقتله؟!

قال الحكيم:

- بسيطة، لا تنظر إلى عينيه.

- ماذا تقصد؟!

همس الشمالي موضحًا:

- الحكيم يقصد أن تُجهز عليه بينما هو نائم.

- ولكنه أبي كيف تريدان مني أن أقتله وهو نائم؟!

الحكيم ساخرًا:

- معك حق، أنه من العقوق أن تقتل والدك وهو نائم.

بعد لحظات من الصمت تكلم الشمالي مؤيدًا:

- ربما يكون الحكيم صائبًا في الذي قاله يا عاصف، اقتله وهو نائم فتجنب بذلك نصف صعوبة المهمة.

لم يفضل قتل والده مستخدمًا قوته الخاصة لذلك فإنه مد يده لسيف الشمالي، سحبه من غمده وهو يتمتم مثل الذي يهذي وهو سكران:

- اقتله وهو نائم فأتجنب بذلك نصف صعوبة المهمة.

فتح باب الغرفة بحذر وسار الجميع خلفه حتى يقوموا بمساندته في مهمته القادمة، غير أن سرايي فضلت انتظارهم بالخارج وعدم الدخول معهم للغرفة ذلك لأنها - حسب قولها - لن تحتل رؤية عاصف وهو يقوم بقتل والده، كتم الأصدقاء أنفاسهم وهم يسرون بعضهم خلف بعض على رؤوس أصابعهم مثل أربع نملات يخططون لسرقة حبات سكر متناثرة فوق بلاط مطبخ .. وحين

أصبح عاصف أخيرًا يقف بالقرب من والده شعر بأنه أضعف بكثير من أن يفعلها وفكر بالانسحاب ولكنه تذكر وقتها أن الموت سيكون مصيره ومصير أصدقائه في حال أنه انسحب .. قام برفع السيف عاليًا مستخدمًا كلتا يديه، ولكن قبل أن يقوم بقتل والده سمع طيف صوت يقول له بتوسل:

«أرجوك لا تفعل!!»

لقد كان واثقًا من أن ذلك الصوت الذي استمع إليه هو صوت والدته، نظر يمينًا وشمالًا يفتش بعينه عنها في أركان الغرفة وعندما لم يجد لها أثرًا همس بشوق:

- أمي؟!

همس الحكيم: ما بك؟!.. لماذا توقفت؟!

- الصوت..

الشمالي: أي صوت؟!

- ألم تسمعو للتو صوتًا ما؟!

الحكيم بنفاد صبر:

- لم نسمع شيئًا هيا أنجز مهمتك قبل أن يفيق والدك!!

- أنا سمعت - قال إكليل - أرجوك لا تفعل!!

- رأيتم لقد كنت متأكدًا!!

قال الشمالي:

- يبدو أنك تتوهم

احتج عاصف:

- لقد استمع إكليل إليه مثلي!!

- ألم تقل بأن مصيرك أصبح مرتبطًا بمصير إكليل؟!

أوماً عاصف برأسه فقال الشمالي:

- ربما من أجل ذلك استطاع أن يستمع للوهم الذي استمعت أنت إليه.

عاد ليرفع السيف عاليًا مرة أخرى بكتا يديه بعد أن أقتنع، أخذ يحدق في والده النائم بتردد، وانتظر لبعض الوقت قبل أن ينزل عليه بالسيف ويقتله كما لو أنه كان يريد بانتظاره ذاك أن يستمع مرة ثانية لطيف صوت أمه.

همس الحكيم:

- هيا يا عاصف ماذا تنتظر؟!

قال وهو لا يزال يرفع السيف عاليًا:

- أشعر بأنني لا أستطيع

ثم وفي تلك اللحظة بالضبط تكلم شخص آخر في الغرفة، ولكن هذه المرة لم يكن وهمًا فالجميع استطاع سماع ذلك الصوت وهو يقول:

- افعلها يا ولدي...

أنه صوت بحر.

صحيح أن الماضي المشترك بينهما لم يكن جيدًا على الإطلاق وصحيح أيضًا أن عاصف كان يعتقد في نفسه بأنه لا يحمل أي مشاعر حب تجاه والده، ولكنه اكتشف للتو بأنه كان مخطئًا في اعتقاده؛ فما كاد أن يستمع لصوته حتى عرف إلى أي حد هو يحبه، أفلت السيف من يديه وارتدى في حضنه .. وفي المقابل كان بحر سعيدًا بذلك اللقاء، ممتنًا للحظة التي جعلته يحقق آخر أمنية في قلبه وهي أن يحتضن ابنه الوحيد ولو لمرة واحدة في حياته كلها، قال:

- عندما وصلني خبر مقتل أيار عدت لرؤيتك ولكنني لم أجده، سألت عنك جميع من في القرية يا ولدي ولكن بدون فائدة، حتى تاج قالت بأنها لا تعرف عنك شيئًا، اعتقدت أن مكروها قد أصابك وبأني سأفقدك إلى الأبد.

لم يكن هناك وقت للتظاهر بالجهل فلم يتبق أمامهم إلا ساعات قليلة جدًا وتقوم الجنية خيزران بقتل عاصف وأصدقائه إن لم ينجزوا المهمة قبل غروب الشمس لذلك سأل والده بجرأة:

- هل ما زلت تعمل مع منظمة الجاثوم يا أبي؟!

مندهشًا رد بحر:

- من أخبرك بهذا؟!

- لقد أخبرتني تاج بكل شيء، أل هذه الدرجة لم تكن أمي تعني لك

شيئًا يا أبي... لماذا تعدت للعمل معهم بدلا من أن تنتقم؟!

أخذ بحر نفسًا عميقًا قبل أن يجيب قائلاً: صدقني لقد حاولت في السابق أن أثار لأمك ولكن ناب الفيل أرسل لي رُسلًا يهددونني بقتلك إن قمت بحركة واحدة ضده، خفت عليك يا ولدي لذلك وجدت نفسي مضطرًا لأن أعقد معه صفقة جديدة.

- أي صفقة هذه؟!

- أن أعود للعمل مع الجاثوم مقابل أن تعيش أنت بسلام

- وما الذي حدث بشأن صديقك أيوب؟!

- بعد أن عقدت الصفقة معهم كان أول أمر يصدره لي أولئك الرُسل هو القيام بقتل أيوب.. لقد أمروني بذلك حتى أثبت للمنظمة ولائي وطاعتي...

- وهل فعلتها يا أبي هل قتلت صديقك؟!!

لحسن الحظ استطاع أن يهرب من أمامي في اللحظة الأخيرة، ولكن فرسان المنظمة قاموا بمطاردته وعندما عادوا قالوا بأنهم قتلوه.

وأضاف بحر والأمل والحب يشعان من عينيه:

- لكنني أعرف أنهم لم يفعلوا..

- ما الذي يجعلك متأكدًا هكذا؟!

- قلبي يحدثني بأن أيوب لا يموت بتلك البساطة

- وأين تظنه الآن إن كان لا يزال حيًا؟!

- أظنه يختبئ في سلسلة الجبال المُحرمة

- سلسلة الجبال المُحرمة؟!

- إنها المنطقة الوحيدة في أبابيل التي لا تجرؤ منظمة الجاثوم على الدخول إليها.

- لماذا؟!

- بسبب قبائل الأشاوس التي تسكن تلك الجبال وتسيطر عليها

- ومن أين لهم القوة الكافية التي تمنع الجاثوم من الاقتراب منهم؟!

- العلم - قال بحر موضحًا - تلك القبائل لديها العلم والقوة، إنها ليست قبائل عادية يا ولدي، فهم ليسوا بشرًا ولا جنًا ولا شياطين أو سحرة إنها قبائل عريقة من سلالة القناطير وهم أصدقاء أوفياء لي ولأيوب.

استرعت تلك الكلمة «القناطير» على انتباه عاصف ولكنه سأل عن شيء آخر:

- ألم يحاول ناب الفيل أن يُخضعهم لسيطرته؟!

- بالطبع حاول يا ولدي.. وقامت حروب كثيرة من أجل أن يسيطر عليهم ويستفيد من علمهم وقوتهم، ولكنهم كانوا أقوى بكثير من أن يستطيع إخضاعهم لسلطته، لذلك وحقًا للدماء أقنعتة أنا وأيوب بترك قبائل الأشاوس وشأنها.

- واقتنع؟!

- لا لم يقتنع ولكنه تظاهر بذلك لكي يحفظ ماء وجهه

- وكيف أصبحت تلك القبائل لاحقًا صديقة لكما؟!

- بعد أن عرفت آشاس أميرة قبيلة الأشاوس بأمر وساطتنا تلك وبأنني أنا وأيوب من أقنع ناب الفيل بإيقاف الحرب .. قامت باعتبارنا صديقين لهم وأقسمت لنا أمام نفر من كبراء أفراد قبيلتها على أنها لن تنسى السلام الذي صنعناه من أجلهم وأنها سوف تدين لنا بذلك المعروف إلى الأبد.

- ولكن منظمة الجاثوم يا أبي

قاطعته والده منزعجًا من تلك الأسئلة الكثيرة:

- لماذا كل هذا الاهتمام بمنظمة الجاثوم يا ولدي؟!

أجاب بصراحة:

- لأنني أريد قتل ناب الفيل!!

اعترض بحر مندفعًا:

- إياك أن تفكر في هذا!!

- لقد قتل المرأة التي أحبتك - ثم أردف بغصة:

- ماتت أمي وهي تردد اسمك.. ألا يكفيك هذا للعار؟!

- يكفي يا ولدي ولكنك لا تزال صغيرًا على الموت!!

- ما قيمة الحياة إن كنا سوف نحياها بجبن؟!

- أنا لست جبانًا ولكنني أحبك ولا أريد أن أفقدك مثل ما فقدت أمك من قبل

- صمت بحر قليلًا ثم تابع بحصافة: إن كنت قد جئت لهذا من أجل أن تقتلني فافعل فأنا لا تهمني الحياة ولكن أرجوك ابتعد عن ناب الفيل، إنه أخطر بكثير مما تظن.

لم يعلق بينما أكمل والده متوسلا:

- عدني بأنك سوف تبتعد عن ناب الفيل!!

- ولكن أمي يا أبي

- أمك لن تكون راضية عنك وهي تشاهدك ترمي بنفسك للموت حتى ولو كان من أجل الانتقام لها ...

صمت عاصف متأثرًا بالجملة الأخيرة التي قالها والده، هل حقًا لن تكون والدته راضية عنه وهي تشاهده من العالم الآخر يجابه الأخطار من أجل الثأر لها؟!

هزه بحر بقوة وصرخ بوجهه:

عدني بأن تصرف فكرة الثأر عن رأسك...

كاد أن يقطع وعدًا له بالتوقف عن الثأر لولا ذلك السهم المنطلق بسرعة البرق والذي اخترق نافذة الغرفة واستقر نصله في قلب والده .. أصيب الجميع بالفاجعة، بينما ظل بحر متماسكًا ثابتًا كشجرة عتيقة لا تصرخ مهما أنشب الخطابون فيها أنضل

فؤوسهم .. سقط على ركبتيه أرضًا من غير أن يلتفت حتى إلى الخلف لمحاولة رؤية الشخص الذي أطلق عليه السهم، أدخل يده المرتعشة في ثيابه وأخرج من أحد جيوبه السرية رقعة ورق بردي قديمة كانت مطوية بعناية فائقة ثم همس بلطف وهو يمدّها نحو ابنه ويقول:

- هل تذكر يا بني؟!

فتح رقعة ورق البردي فشاهد الرسمة التي رسمها والده قبل سنوات طويلة له ولأمه، كان فيها عاصف أصغر سنًا وأقصر طولًا وممتلئًا بالسعادة والحياة يقف بجوار والدته الجميلة ذات الشعر الطويل مبتسمًا تشع من عينيه نظرات الأمل والتفاؤل قال بحنين:

- وكأنك رسمتها لنا البارحة.

استعاد بحر ورقة البردي من يد ابنه طواها بعناية وكان حريصًا على أن لا يلوثها بدمه المنثال من فتحة الجرح، ثم أعاد وضعها في جيبه كما لو أنه كان يريد أن يأخذها معه للعالم الآخر، قال وهو ينظر لعينيّه: «أنا آسف لأن هناك شيئًا ما في هذه الدنيا حرمك مني، ولكنني كنت مجبرًا على أن أبتعد من أجل حمايتك أنت وأمك - تنهد بحر وهو يقول متابعًا: آه يا ولدي لقد كنت مُغرما بك طوال عمري، ولقد أحببتك كما لم أحب في حياتي شيئًا قط»

قال عاصف:

- أرجوك لا تمت

همس بحر:

- صديقي أيوب

- ما به؟!

- إن صادفته يومًا فلتنقل إليه حبي وأسفي ولتخبره أنني أعرف بأنه سيغفر لي حتمًا. ثم صمت قليلًا وكأنه يطلب من الموت أن يمهل بعض الوقت، قبل أن يفتح فمه ويواصل:

- سيغفر لي أيوب من غير أن أقدم له عذرًا؛ فهو الذي أخبرني ذات مرة بأن الأصدقاء ليسوا بحاجة للاعتذار..

ثم فجأة فاحت في الغرفة رائحة ياسمين قوية استطاع الجميع أن يلتقطها، رفع بحر عينيه نحو سقيفة الغرفة وابتسم بحياء مثل مراهق وقعت عيناه صدفة على عيني الفتاة التي يحبها، وقال قبل أن يغادر:

- أمك ثقرك السلام يا ولدي وتخبرك أيضًا بأنها أحبتك كما لم تحب في حياتها شيئًا قط..

لفرط الغضب فإن عين عاصف اليسرى تحولت للون الأحمر القاتم، وانطلق هو وإكليل للتفتيش عن القاتل.. دخلت سرابي الغرفة في تلك اللحظة والخوف يملكها:

- لقد رأيت الشخص الذي أطلق السهم عبر النافذة!!

سأل الشمالي متعجبًا: لماذا لم تصرخي أو تحاولي إيقافها؟!

قالت سرابي وبكاؤها يزداد حدة:

- لا أعلم لقد شعرت بأن هناك أياد خفية كانت تقيد أطرافي

وتمنعي من الكلام أو الحركة!!

طاف عاصف أرجاء قرية الجساسة شبرًا شبرًا للبحث عن الشخص الذي أطلق السهم على والده وكان إكليل في الوقت ذاته يحلق على ارتفاع شاهق من أجل الحصول على رؤية أفضل:

- إكليل هل لمحت شيئًا؟!

- لا...

- تعالٍ نذهب لرؤية تاج لا بد أنها ستفيدنا في هذا الأمر!!

عندما أصبحا يقفان أمام قلعة الأباطرة صاح عاصف مناديًا على جدته، حتى استجابت أخيرًا: «لم يخطر في بالي أبدًا أنني سوف أراكما اليوم - قالت ذلك وهي تفتح البوابة - أنظر إليك يا عاصف من يراك الآن لا يصدق أنك في أواخر الثامنة عشرة من عمرك فقط»

ثم هتفت وهي ترفع رأسها وتنظر للسماء:

- وأنت يا إكليل لقد أصبحت أكبر من ذي قبل، وأصبح في إمكانك التحليق لمسافات عالية!!

راح الحفيد يخبرها باختصار وعجل عن كل الأشياء التي حدثت معه هو وإكليل منذ اللحظة التي غادرا فيها الغابة، وإلى اللحظة التي يقفان فيها أمامها الآن، أما تاج فإنها كانت تستمع إليه وفي الوقت ذاته تتأمل تفاصيل وجهه الجميل وشاربه الخفيف وحببات الشعر الخضراء التي غطت خديه مثل عشب حديقة نابت، وتينك العينين البندقيتين واللتين أصبحتا أكثر قسوة وجاذبية، كان طوله الفارع الذي حصل عليه مؤخرًا وعضلات جسده المفتولة توحى بأنه

شاب في الخامسة والعشرين وليس فقط في أواخر الثامنة عشرة من عمره.. وعندما فرغت من تأمل حفيدها راحت تنظر لإكليل الذي أصبح ريشه البرتقالي الناعم مرقشًا ببعض حبات الريش الحمراء الداكنة والتي تشي باقتراب موعد بلوغه..

وعندما انتهى عاصف من كلامه وانتهت هي من تأملاتها سألت:

- وماذا ستفعل هل ستحقق الشرط وتقتل أباك؟!

- كنت سأفعل في بداية الأمر ولكنني بدلت رأيي!!

- ماذا تعني بأنك بدلت رأيك؟! - ثم أردفت بانفعال:

- ستقتلك خيزران وتقتل معك أصدقاءك أيها المتهور!!

- لقد مات أبي فعلًا هناك من قام بقتله

سألت بغرابة: ألم تفعلها أنت؟!

- لا لقد فعلها شخص آخر وقد جئت إليك حتى أعرف من هو!!

- وهل يهمك كثيرًا أن تعرف هوية الشخص الذي قام بقتل والدك،

ألا تشكر حظك لأن ذلك الشخص المجهول أنجز لك ما كنت ستعجز

أنت عن تنفيذه؟! تخيل لو أن والدك لم يميت هاه؟! لكنت الشمس

سوف تغرب من السماء بعد قليل، وتأتي الجنية خيزران لقتلك أنت

وأصدقاءك!!

- كنت وأصدقائي مستعدين للموت بدلًا عنه...

- والآن مات أبوك وانتهى الأمر ولم يعد هناك حاجة ليموت أحد

بدلًا عن أحد، أليس كذلك؟!

- ربما تكونين محقة ولكنني سأنفذ وصيته الأخيرة على الأقل..

- أي وصية؟!

- لقد أوصاني بصرف فكرة الثأر عن رأسي.

بهذوء يشي باقتراب كارثة سألت تاج:

- هو أوصاك بذلك؟!

أوما لها برأسه فسألت:

- ولماذا عساه يوصيك بهذه الوصية الغريبة؟!

- لأنه يخاف على سلامتي.

- وهل قطعت له وعدًا؟!

- لقد مات قبل أن أقطع له الوعد

ثم سألته كام تتظاهر بالطيبة كي تجر ابنها من لسانه للاعتراف
بخطيئته:

- وهل كنت فعلاً ستقطع له ذلك الوعد يا حبيب جدتك؟!

حرك رأسه مجيبًا بنعم، وعندها أمسكته من تلايب ثيابه وقامت
بتعليقه في الهواء بواسطة يد واحدة ثم قامت بصفعه على وجهه
مستخدمة اليد الأخرى.. حاول إكليل مهاجمتها ولكن عاصف أمره
بأن لا يفعل:

- ابقى مكانك إكليل!!

صرخت تاج عليه منفعة: أترك ثأر أمك أيها الجبان.. أبعد كل الذي
قمث بفعله من أجلك تقول بأنك تريد أن تستسلم؟!

- لم أستسلم!!

- فما معناة الكلام الذي تقوله إذا؟!

- إنها وصية أبي!!

- أبوك شخص تافه وحقير

- لا تسبيه يا تاج!!

- بل وأبصق فوق جثته أيضًا!!

فقد عاصف السيطرة على أعصابه ولم يعد قادرًا على التحكم
بنفسه بعد سماعه تلك الإهانة، وفجأة تحولت عينه اليسرى للون
الأحمر القاتم واستطاع التخلص من قبضتها مستخدمًا قوته، ثم
ولكي يتحقق من أن انتقامه منها سيكون قاضيًا فإنه نظر نحو إكليل
وصاح:

- اهجم بكل قوتك!!

ما أن تلقى الطائر الأمر بالهجوم حتى ضرب الهواء بجناحيه
وانطلق مندفعًا نحوها، ولكن قبل أن يصل إليها اعترضت تارا
طريقه:

- مهلاً أيها الشجاع!!

احتج عاصف:

- هل ستقفين ضدنا يا تارا؟!

- وهل أصبحتم فريقين يا أفراد عائلة الأباطرة حتى بات يتوجب عليّ اختيار فريق أقف معه ضد الآخر؟! .. هل انتهوا أعداؤكم حتى انتقلت الحرب بينكم؟

قال مبررًا سبب ثورته:

- لقد شتمت والدي الميت!!

بعناد صاحت تاج:

- اللعنة عليه!!

- راقبي لسانك يا تاج - وأضاف بنبرة متوعدة:

- فلن تمنعني تارا من قتلك في المرة القادمة!!

- أترك الذي قتل أمك وتأتي لفرد عضلاتك على جدتك المسكينة، هل من أجل هذا قمت برعايتك وبالاهتمام بك؟! هل غضبت مني عندما قلت لك بأنني سأبصق فوق جمّة والدك؟! ما رأيك بأنني لست أسفه وسأكررها أمامك مرة أخرى؟! نعم يا عاصف سأبصق فوق جمّة والدك، وأبصق على كل من يحاول منعك من أخذ ثأرك!!

لم يحتمل تلك الإهانات المتتابة لذلك انطلق نحوها مستأنفًا الهجوم ضدها، وفي الوقت ذاته حرك إكليل جناحيه وارتفع عاليًا في الهواء مبتعدًا عن مجال دفاعات تارا، ثم هبط من السماء بكل سرعته نحو تاج.. ولكن وقبل أن يلتحم الجميع وتبدأ المعركة بينهم قالت تارا شيئًا كان من شأنه أن يقلب الطاولة رأسًا على عقب:

- وإذا قلت لك بأن ناب الفيل هو نفسه من قام بقتل والدك؟!

توقف مكانه عندما سمع ذلك الكلام وأمر إكليل بإيقاف الهجمة،
هو يعرف بأن تارا لا تكذب أبدًا ورغم ذلك إلا أنه هتف معترضًا: هذا
الكلام مستحيل!! لقد كان أبي طوال الوقت يحذرنى من الوقوف
بوجهه فلماذا يقوم ناب الفيل بقتله؟!

- إنها صفقة أخرى ...

- هل في كل مرة يحدث بها شيء غير مفهوم تقولون لي صفقة؟!

- جواسيس ناب الفيل ينتشرون في كل أرجاء مملكة أبابيل وقد
نقلوا إليه سعيك في الثأر منه، وأنت قد تقوم بتحريك عائلة الأباطرة
ضده فطلب من والدك أن يصرف فكرة الثأر عن رأسك...

- أخبريني بشيء يصدق العقل يا تارا!!

- الحقيقة أحيانًا تكون أصعب من أن يصدقها العقل يا عاصف

- ولكن والدي نجح فعلًا بصرف فكرة الثأر عن رأسي فلماذا يقتله
ناب الفيل في الأخير؟!

أجابت:

- لكي يصبح الأمر أكثر تأثيرًا عليك - ثم تابعت تشرح كلامها: لكي
يوهمك ناب الفيل بأن تلك هي وصية والدك الأخيرة فيضمن أنك لن
تخالفها طوال حياتك أبدًا.. اختفت أنيابه ومخالبه بسبب الحزن، ثم
هتف بصوت باك:

- كم من المرات يجب أن أقتلك يا ناب الفيل؟!

اقتربت تاج منه بلطف:

- هذا ما كنت أريد قوله لك ولكنني خفت أن لا تصدقني

تمتم عاصف: فعلاً لم أكن لأصدق هذا الكلام لو لم تقله تارا.

سألته: وماذا ستفعل الآن؟!

- مواصلة العار..

- يجب عليك أن تسرع في استدعاء روزانا قبل غروب الشمس

إذا!!!

أوماً عاصف لها برأسه ثم سار عائداً هو وإكليل نحو البيت ليطلب

من الشيطانة روزانا أخذه للقاء عائلة الأباطرة من أجل طلب

المساعدة منهم في الانتقام. ولكن قبل أن يبتعد الاثنان قالت تاج:

- ابحث عن أيوب ..

توقف وأرسل نظرة نحو جدته من فوق كتفه: لماذا ابحث عنه؟!

- إن كان حيّاً فإنه سيكون مفيداً لك في معركتك القادمة..

- تقصدين قبائل الأشاوس؟!

- هل تعرف عن تلك القبائل شيئاً؟!

- حدثني أبي عنهم قبل موته - قال بغصة، وأردف متسائلاً:

- أخبريني كيف أستطيع إيجاد أيوب؟!

- إذا ذهبت غرباً لآخر حدود مملكة أبايل فستجد سلسلة طويلة

من الجبال السوداء الشاهقة والتي يغرب خلفها نجم الشمس تلك

هي الجبال المحرمة التي تسكنها قبائل الأشاوس - وأضافت بتردد
وعدم ثقة:

- وإذا كان الحظ حليفك فإنك ستجده هناك...

**

بعد مغادرة عاصف وإكليل، التفتت تاج نحو تارا وسألتها:

- لماذا كذبتِ عليه؟!

لم تقل تارا شيئًا وزحفت عائدة نحو الغابة، كررت تاج سؤالها:

- لماذا قلت له بأن ناب الفيل هو من قام بقتل والده ولم تخبريه

بالحقيقة؟!

- من أجل حمايته - قالت تارا ثم أضافت وهي تكمل زحفها نحو

الغابة كنت أعرف أنك ستقومين بقتله لو أنه صمم على تنفيذ وصية

والده وعدم الأخذ بالثأر، كان يجب علي أن أكذب عليه حتى أحميه

منك.

أخذ عاصف قطعة من ثياب والده العابقة برائحة دمه ثم اجتمع هو وأصدقاؤه في ساحة البيت الداخلية، أخرج قلادة الأباطرة من تحت ثيابه وأمسكها بيده ثم ضرب الأرض بقدمه اليسرى ثلاث مرات فانشقت الأرض وخرجت لهم الشيطانة روزانا

سألت وهي تنحني احترامًا:

- هل أنجز سمو الأمير المهمة؟!

قال بآلم وهو يمد لها قطعة القماش: هذا هو الدم.

لعت الشيطانة بلسانها قطعة القماش ثم سألت: وأين جثة والدك؟!

- لماذا تسألين عنها؟!

- يجب أن أتحقق بنفسى من أنه مات.

ذهبت لتتحقق بنفسها من أن بحر قد فارق الحياة فعلاً فمن المؤكد أن عائلة الأباطرة سوف يسألونها عن ذلك الأمر لاحقاً ويتحققون مما إذا كانت قد رأت الجثة بنفسها أم لا .. وحين فعلت وتحققت من أنه مات فعلاً عادت مرة أخرى لعاصف وقالت بأدب:

- ستختار شخصاً واحداً من أصدقائك ليرافقك للقاء عائلتك..

تقدم الحكيم واثقاً وقال يخاطب البقية:

- لن نتأخر عليكم سنعود سريعاً بعد انتهائنا من لقاء الأباطرة.

ولكن عاصف الذي كان قد قرر شيئًا آخر فإنه قال:

- سرابي!!

سأل الحكيم ببراءة: ما بها؟!

- هي من سترافقني

تساءل بدهشة وغضب: من قلت أنه سيرا ففك يا محترم؟!

- ستبقى أيها الحكيم هنا فليدك ما تقوم به لأجلي...

صمت الحكيم ولم يعلق بسبب الغضب، فقال عاصف مبررا:

- أنا أحتاج لحكمة عقلك هنا أكثر بكثير من أي مكان آخر

- هل تظن أنك ستضحك علي بهذه الكلمات أيها المتملق؟!

ابتسم بلطف وهو يقول متسائلا كما لو أنه يريد مصالحته:

- أنا أثق برأيك أيها الحكيم.. أحقا ترى أنني متملق؟!

- الحقيقة لا - قال الحكيم بنبرة صادقة - أنت فقط أبله ومتهور..

- وهل يستطيع هذا الأبله والمتهور أن يثق بك؟!

نظر إليه الحكيم بعدم رضا ثم قال بعد لحظات:

- أنت تعلم بأنك تستطيع أن تثق بي دائما ...

قال عاصف يشرح لهم الخطة بعد أن اجتمعوا حوله:

- سوف تصعد أنت أيها الحكيم على متن إكليل وتذهبان معا

باتجاه الغرب لآخر حدود مملكة أبايل حتى تجدًا سلسلة من الجبال
السوداء الشاهقة والتي يغرب خلفها نجم الشمس..

سأل الحكيم بجدية:

- هل تقصد الجبال الفحرفة التي تسكنها قبائل الأشاوس؟!

- هل تعرفها؟!

- بالطبع - ثم أضاف مازحًا وهو لا يستطيع منع نفسه من
الضحك: لقد سمعت والدك يتحدث عنها قبل أن يموت..

وعندما نظر إليه الجميع باستياء فإنه قال مستعبدًا جديته:

- وما الذي تريد منا أن نفعله هناك يا ترى؟!

- أريد منكما أن تفتشا عن أيوب

- أوافق من أننا سنجده؟! .. ماذا إن لم نعر عليه؟!

- حينها ستنخفض احتمالية انتصارنا في الحرب!!

سأل إكليل:

- وماذا نقول لأيوب؟!

- ستقولان له بأن القملة الصغيرة المزعجة تريد منك المساعدة.

سأل الحكيم:

- وماذا يعني هذا الكلام بحق السماء؟!

- أخبراه بذلك فقط وهو سيفهم...

وبعد أن صعد الحكيم فوق ظهر إكليل وانطلقا غربًا نحو سلسلة الجبال الفحرفة، التفت عاصف نحو الشمالي وقال: «وأنت أيها الشمالي ستأخذ جثة أبي وتدفنها في مقابر القرية ثم تعود لهذا البيت من أجل انتظار عودة الحكيم وإكليل، أما أنا وسرابي فإننا سنذهب الآن ونعود إليكم بعد الانتهاء من لقاء الأباطرة».

- لك ذلك ...

استوقفه عاصف قبل أن يذهب:

- سوف تدفنه بجوار قبر أُمي..

- وكيف لي أن أعرف قبر أُمك من بين كل المقابر؟!

- عندما تصل هناك ستقودك إليه رائحة الياسمين

- ولكن قد يكون هناك من هو مدفون بجوار قبرها؟!

- حينها ستقتلع الجثة من تحت الأرض وتضع جثة أبي مكانها.

امسكت روزانا بيديهما - يد عاصف وسرابي - قالت توجه سؤالها لعاصف:

- هل أنت مستعد يا سمو الأمير؟!

- أكثر من أي وقت مضى..

انشقت أرض ساحة البيت الداخلية وهبطت الشيطانة روزانا برفقتها متجهة نحو مدينة وبار المفقودة للقاء عائلة الأباطرة ..

صحيح أن مهمة إقناع تلك العائلة لن تكون سهلة أبدًا ولكن عاصف كان يشعر بالكثير من التفاؤل .. ليس لمقتته بنفسه بل لأن سرابي كانت معه.

في صباح اليوم التالي: ذهب جواسيس منظمة الجاثوم للملك طاغين وأخبروه بأن عاصف وأصدقاءه اختفوا عن مجال مراقبتهم وبأنه لم يتبق منهم في قرية الجساسة غير شخص واحد فقط اسمه الشمالي فقال الملك طاغين محاولاً أن يتظاهر بالثبات وعدم الاكتراث أمام حاشيته:

- كيف غابوا عنكم وأنتم تعرفون أي مصيبة يخططون لها؟!

تقدم قائد الجواسيس وقد كان مارداً ضحكاً اسمه مراقب:

- في البداية كانوا جميعهم داخل بيت بحر ولكنهم فجأة اختفوا

- هذا التقصير لن أغفره لك

- لم يحدث منا أي تقصير يا جلالة الملك ولكننا فعلاً لا نملك

تفسيرًا للذي حدث

- قال مراقب بتوتر ثم أضاف وكأنه تذكر أمراً:

- يقول أحد معاونين بأنه شاهد طائراً ضخماً يطير من ذلك البيت

متجهاً نحو الغرب، وإذا كان كلامه صحيحاً فهذا يعني أن ذلك الطائر

هو العنقاء صديق عاصف.

- أنا لا يهمني العنقاء يهمني أن أعرف إلى أين ذهب عاصف!!

في تلك اللحظة ومن اللاشيء ظهرت عميدة قرية الساحرات
شواهر في وسط قاعة الملك وهي تقول:

- الذي يخشاه جلالتم قد حصل وانتهى الأمر.

التفت إليها الملك طاغين باهتمام:

- ما الذي تقصدينه يا شواهر أفصحي؟!

اقتربت شواهر من العرش، أحنّت رأسها احتراماً وأجابت:

- أقصد أن عاصف ذهب للقاء عائلته...

وثب الملك من فوق عرشه كما لو أن حشرة لدغته:

- ذهب بالتأكيد لكي يقنع الأباطرة بالتحالف معه في حربه ضدي!!

- لسنا واثقين ولكن هذا هو السبب الوحيد الذي قد يدفعه للذهاب

إليهم!!

- كيف سمحتم له بالذهاب لماذا لم تمنعوه بالقوة؟!

- خيزران - قالت شواهر: لقد كانوا تحت حماية خيزران وزيرة

الأباطرة لذلك لم نتمكن من استخدام القوة ضدهم وبالكاد كنا

نستطيع استراق السمع...

قال معاتباً نفسه:

- كان يجب علينا أن نقتله منذ الوقت الذي بدأ فيه بالتحرك ضدنا..

تكلم المارد مُراقب بعد أن طلب الإذن بالحديث:

- لقد قمنا بتقديم اقتراح بقتل الفتى ولكن لم توافقوا عليه

- هل أصبح لديك لسان يا مُراقب الكلب حتى تعاتبني؟!

- لم أكن أقصد، اغفر لي يا صاحب الجلالة.

- إذا أقفل فمك اللعين هذا ولا تُسمعني صوتك!!

أطرق مُراقب برأسه للأسفل وصمت...

بدأ الملك طاغين يحوم حول نفسه بتوتر شديد يفكر في حل للورطة التي وجد نفسه فيها، هو يتوق منذ زمن طويل للقضاء على عائلة الأباطرة ويعرف بأنه متفوق عسكريًا عليهم، ولكنه لم يكن من أولئك الذين يفضلون المواجهات المباشرة بل كان يفضل دائمًا كسب جولاته عن طريق الخديعة والمفاجأة ليكون انتصاره مضمونًا.

اقترح أحد مستشاريه:

- لماذا لا نتحدث مع بحر بشأن ابنه يا سيدي؟!

- أحسنت أيها المستشار - هتف الملك معجبًا بالاقترح ثم أصدر

أمرًا:

- أرسلوا لبحر من يخبره بأنني أريد لقاءه بسرعة هيا!!

قالت شواهر: لا فائدة لقد قُتل

- ومن قتله؟!

- أختك الكبرى.

بهدوء يدل على تعجبه:

- ولماذا قد تفعل تاج مثل هذا الأمر لماذا تقدم على قتله؟!

- لأنه كان على وشك أن يقنع ابنه بصرف فكرة الثأر

وحينها ثار طاغين غاضبًا وبدأ يحطم كل ما تصل إليه يداه
ويصرخ:

- هذه المرأة المجنونة لن تكف حتى تنفذ ما برأسها!!

مزق الستائر وكسر كل ما هو مصنوع من الفخار والزجاج وقام
بطرده مستشاريه ركلًا من القاعة وعندما لم يعد هناك شيء آخر
يستطيع تفريغ غضبه فيه، فإنه هداً قليلاً .. عاد الملك للجلوس فوق
عرشه بخطوات بائسة حزينة تشبه خطوات رجل ثمل قاموا بطرده
من الحانة بعد أن تسبب بالكثير من المشاكل للزوار، نظر نحو شواهر
وقال كمن يزيح عن صدره حملاً ثقيلاً: «في البداية قامت تاج بقتل
ابنتها جومانا والآن تقوم بقتل زوجها بحر .. اللعنة على تلك الأخت
الحقيرة»

صحيح أن الساحرات كن يعرفن بأغلب الأحداث التي تقع في
مملكة أبايل بسبب الشياطين الذين ينقلون لهن الأخبار.. إلا أن
عميدة قرية الساحرات شواهر لم تكن تعرف بأن تاج هي من قامت
حقًا بقتل ابنتها جومانا: «ظننت أن الساحرة أيار هي من قامت
بقتلها بناء على أوامرك»

- الأباطرة لا يموتون بسم عادي، السم الوحيد الذي قد يقضي
عليهم هو سم الأفعى تارا - ثم أضاف ساخراً: أما السم الذي أعدته
ساحرتك أيار فكان من الممكن أن يكون رائعًا من أجل تنظيف البطن

لا أكثر.

- ولكن أنا واثقة من أن هذا ما حدث جلالتك فقد نقلت إلينا الشياطين أن جوماننا في ليلتها الأخيرة تلك احتست كأس ماء من تلك الجرة المسمومة كان السبب في القضاء عليها..

- هذا ما تعرفينه أنت ويعرفه شياطينك - ثم أردف: ولكن ما حدث فعلاً هو أن أختي تاج تدخلت من غير أن ينتبه إليها أحد ووضعت في تلك الجرة قطرة من سم الأفعى تارا، وبهذا كانت هي السبب الرئيسي في قتل ابنتها جوماننا وليس أحداً آخر.

- وما الذي قد يدفعها لفعل شيء فظيع كهذا؟!

- لكي تستطيع أن تأخذ الولد منها

- ولماذا كانت ترغب في أخذه لتلك الدرجة؟!

- لتحاربني به

- ولماذا هو بالذات؟!

- لأنه يمتلك عقل البشر وقوة الجن فلا يستطيع أحد أن يقهره أبداً صمتت الساحرة شواهر مندهشة من ذلك المكر الذي تتمتع به تاج بينما أكمل طاغين:

- تريد تاج أن تنتقم مني لأنني سرقت عرش زوجها جبار الأباطرة إنها تريد أن تعيد الملك إليه لكي تؤكد له بأنها لم تساعدني في المؤامرة ضده - صمت قليلاً ثم تابع:

- هذا الولد ثأره الحقيقي ليس عندي بل عند جدته تاج .

- ما رأيك في أن ندس إليه من يخبره بالحقيقة يا مولاي؟!

- لن يصدق فقد غسلت أختي عقله وانتهى الأمر

وبعد أن هدا قليلاً نظر نحو مُراقب وسأله:

- وطائر العنقاء ذاك اللعين ألم تعرفوا إلى أين ذهب بالتحديد؟!

- لسنا واثقين يا سيدي كل ما نعرفه هو أنه اتجه غرباً

تساءلت شواهر: هل قلت بأنه اتجه غرباً؟!

أكد لها مُراقب: نعم يا سيدتي..

خمنت شواهر: إذا ذهب ليطلب المساعدة من قبائل الأشاوس

قال طاغين غير مكترث بالأمر: يعتقدون بأنهم سيجدون أيوب،
مساكين لا يعرفون أنه قد مات وشيع موثاً.

قالت شواهر بنبرة ذات مغزى:

- حين يصل العنقاء لهنالك ولا يجد أيوب سيقتله الأشاوس...

ثم عندما لم يعد لوجودها ضرورة فإنها أحتت رأسها بأدب وطلبت
من الملك أن يأذن لها بالانصراف ولكنه استوقفها قبل أن تغادر:
«أريد استعداداً كاملاً؛ فقد تقوم الحرب بأي لحظة»

قالت وهي تختفي: ثق جلالتك بأننا دائماً في أتم الاستعداد.

استدعى الملك وزير الحرب «جرمي» وشرح له الأخطار التي

تحيط بهم وطلب منه أن يعمل في الأيام القادمة على التأكد من استعدادات جيش مملكة أبايل ومنظمة الجاثوم، وأمره بأن يرسل المبعوثين في طلب التحالفات مع الممالك المجاورة، وبعد أن غادر الوزير جرمي من أجل تنفيذ أوامر الملك، نظر طاغين نحو المارد مُراقب وسأل بتردد يشي بأنه كان يخطط لأمر جلل:

- هل قلت لي بأن واحدًا فقط من أصدقاء عاصف هو من تبقى في قرية الجشاسة؟!

- نعم يا سيدي واسمه الشمالي صمت الملك طاغين قليلًا ثم همس: أحضره لي.

في المساء: قام الشمالي بغسل جثة بحر وخياطة مكان الجرح، ثم حملها نحو مقابر قرية الجشاسة .. وفعلا ما أن وصل إلى هناك حتى قادته رائحة الياسمين لقبر جومانا، والغريب في الأمر هو أنه وجد الحفرة التي بجوارها جاهزة كما لو أن جومانا بنفسها هي من قامت بإعدادها سلفًا لاستقبال زوجها فيها.

ما أن انتهى من دفن جثة بحر حتى غادر عائداً نحو البيت من أجل انتظار عودة الحكيم وإكليل، ولكن بينما هو في الطريق إذ شعر بأن هناك من يقوم بفراقبته، وربما بسبب انخفاض ضوء الشمس التي أوشكت على الغروب فإنه لم يكن في مقدوره التأكد من حقيقة ما كان يشعر به، فأكمل سيره عائداً نحو البيت وهو يضع يده على مقبض السيف تحسباً لأي طارئ .. ثم فجأة ومن غير مقدمات قام سبعة وثلاثون فارساً بتطويقه من جميع الجهات شاهرين سيوفهم

بوجهه، تقدم إليه أحدهم وسأل:

- أنت الشمالي أليس كذلك؟!

سحب سيفه من غمده وسأل:

- من أنت؟!

- اسمي مُراقب

- مالذي تريده؟!

- ناب الفيل بطلب لقاءك ...

لم يُسلم الشمالي نفسه لهم بسهولة ...

ولكنهم كانوا أكثر بكثير من أن يستطيع مقاومتهم وحده لذلك فإنهم استطاعوا أخذه معهم بالقوة بعد أن أشبعوه ضربًا وأفقدوه الوعي ورغم أنهم أخذوه وهو فاقد للوعي إلا أنه كان يتمتم بين وقت وآخر قائلاً:

- سيقبض منكم عاصف أيها الأنجاس!!

لم يشهد أحد من أهالي قرية الجساسة ذلك الأمر الذي حدث مع الشمالي، غير حمارين كانا يراقبان ما يجري من بين التشققات الخشبية لحائط إحدى الزرائب...

سألت قُمرية زوجها سامري:

- إلى أين تظن أنهم سوف يأخذونه؟!

- أظن أنهم سيأخذونه للمسلخة لكي يسلخوا جلده ويصنعوا منه

الحقائب والثياب والأحذية ...

على ارتفاع يزيد عن ألف قدم راح إكليل يُحلق في السماء العالية حاملاً فوق ظهره الحكيم متجهاً به نحو سلسلة الجبال الفحرفة التي تسكنها وتسيطر عليها قبائل الأشاوس؛ أملاً في لقاء أيوب كي ينقلا إليه الرسالة التي كلفهما عاصف بنقلها، ثم وبينما هما في الطريق إذ قال إكليل متسائلاً عن ذلك الخوف الذي قرأه في عيني الحكيم سابقاً:

- لماذا خفت من الذهاب عندما كنت تتحدث مع عاصف؟!

- لم أخف ..

- قرأت الخوف في عينيك وأنا أعرف قراءة العنون

- العيون - قال الحكيم مصححاً ثم أضاف ساخراً:

- ليتك تعرف كيف تتهجأ الحروف

- لماذا خفت؟!

أجاب بعد صمت قصير:

- لأن عاصف لم يكن متأكداً مما إذا كان أيوب سيكون هناك أم لا

- وماذا في ذلك؟!

- أنت لا تعرف شيئاً عن تلك القبائل لذلك لا تشعر بالقلق من ذهابك

إليهم يا إكليل أما أنا فقد قرأت عنهم كلاماً يدعو للخوف، إنهم

أقوياء جدًا ولم يسبق لأحد من قبل أن استطاع هزيمتهم، حتى إنه يُشاع بأنهم أقوى من سكن الأرض...

- نحن نسألهم عن أيوب فقط

أجاب الحكيم مبررًا سبب خوفه:

- لو ذهبنا إلى هناك ولم نجد أيوب عندهم فسيقتلوننا لأنهم لا يثقون بالغرباء

صمت إكليل قليلًا ثم سأل: لماذا؟!

- ألم تسمعي أيها الأبله عندما قلت بأنهم لا يثقون بالغرباء؟!

- لماذا لم تخبر عاصف أقصد!!

- إنه بحاجة لأيوب، ولو أخبرته كان سيأمر بإلغاء المهمة..

ثم وبينما إكليل لا يزال يحلق نحو الغرب إذ لمح سلسلة من الجبال السوداء الشاهقة والتي كانت الشمس تستعد للغروب من خلفها فعرف أنه وصل للمكان المطلوب: «تمسك سنرتفع» قال ذلك ثم زاد من علو ارتفاعه لكي يستطيع عبور قمم الجبال، ولكنه ما كاد أن يتجاوزها ويصبح في المجال الجوي لتلك المنطقة حتى اعترض طريقه أحد أفراد قبائل الأشاوس وقد كان مخلوقًا ضخماً أسود غريب الشكل لديه جسد حصان مُجنح ويملك رأس وجذع إنسان متضخم العضلات يمسك في إحدى يديه فأَسًا متوهجًا ويسأل بصوت ثقيل:

- ما الذي جاء بكما لهذه المنطقة؟!

بدأ إكليل يشعر في تلك اللحظة بأن هناك سائلًا دافئًا يتسرب من
جسد الحكيم عليه فهمس قائلاً:

- ما الذي فعلته أيها الحكيم ما هذا الشيء الذي أشعر به في
ظهري؟!

- آسف لم أتمكن من السيطرة على مثانتني!!

صرخ القنطور عليهما: ما الذي تتهامسان به أنتما الاثنان

- ههه لا شيء مهم لا تشغل بالك بأمورنا التافهة - قال الحكيم
مرتعدًا ثم أضاف هامسًا في أذن إكليل:

- يا للسماء أشعر بأنني بدأت أفقد السيطرة على منطقة أخرى!!

- انتبه أيها الحكيم لا تفعلها!!

- إنني أبذل جهدي للإمساك بها ولكنها تنزلق رغما عني!!



- إكليل هل سبق لك وأن رأيت في أحد كوابيسك من قبل شيئًا
مخيفًا مثل هذا المخلوق؟!

اقترب القنطور منها بسرعة خاطفة ثم ورغم الضخامة التي اكتسبها إكليل مؤخرًا، إلا أن ذلك القنطور استطاع إلقاء القبض على جسده كاملاً مستخدمًا فقط قبضة يد واحدة:

- لم تجيبا عن سؤالى ما الذي جاء بكما إلى هنا؟!

قال إكليل:

- نبحث عن أيوب!!

تمهل القنطور قليلاً عند سماعه الاسم ثم قال:

- لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم!!

تكلم الحكيم من داخل قبضة القنطور:

- يبدو أننا أخطأنا العنوان إذا .. هل تسمح لنا بالمغادرة؟!

- بكل سرور ..

- أنت فعلاً شخص مهذب ليت القناطير كلهم مثلك!!

- ستفادران الحياة بأكملها!!

قال القنطور ذلك ثم بدأ يشد قبضته على إكليل والحكيم قاصداً أن يقتلها خنقاً... حاول إكليل الفكاك من ذلك المأزق إلا أن القبضة كانت محكمة للحد الذي يجعله لا يستطيع تحريك أي جزء من جسده، وعندما اقتربت النهاية وأصبح الاثنان في ورطة حقيقية قال إكليل بثقة:

- أيها الحكيم تشبث بي جيداً!!

- ماذا ستفعل؟!

بدأ إكليل يشعر بحرارة تحرق جسده من الداخل ويشعر برجفة شديدة تضرب أعماقه، وفجأة تحولت عينه اليمنى للون الأحمر القاتم مثل اللون الذي تتحول إليه عين عاصف اليسرى وقت الغضب ثم فتح منقاره واستطاع بطريقة لا يملك لها تفسيرًا أن يخرج دفعة من اللهب أحرق بها قبضة القنطور.. تحرر إكليل واستطاع الطيران بعد أن تحول ريشه للون الأحمر بشكل كامل.

هتف الحكيم:

- اهرب بكل سرعتك!!

حاول أن يهرب بكل سرعتة ولكن أفرادًا كثيرًا من قبائل الأشاوس الذين كانت لهم أجساد أحصنة مُجنحة وجذوع ورؤوس بشرية كانوا قد حاصروهما من جميع الاتجاهات مصوبين عليهما السيوف والسهام والفؤوس والرماح المتوهجة المضيئة، قال إكليل وقد أصبح لسانه أكر طلاقة وفصاحة بعد بلوغه:

- لم نأت لأذية أحد لماذا لا تدعوننا نذهب بسلام؟!

تقدمت منهما قنطورة عجوز جسدها السفلي وجناحها أبيض اللون، كان لوجهها تفاصيل الإنسان تمامًا باستثناء أذنيها اللتين كانتا تشبهان أذني حيوان الوشق الطويلتين، شعرها أشيب ولديها بطن متراخ بعض الشيء غير أنه بدا جيدًا بالنسبة لعمرها المتقدم، وكانت تمسك في يدها رمحًا متوهجًا:

- هذه الجبال حُرمت منذ القديم على غير الأشاوس وأصدقائهم!!

- لقد جئنا نبحث عن صديق لنا وليس لغرض آخر أيتها السيدة!!
- تلفتت العجوز حول نفسها ثم قالت وقد بدا أنها شعرت بالخجل:
- هل ناديتني بالسيدة أيها الطائر المذهب؟!
- نعم فأنتِ سيدة حسناء أيضًا
- قالت بدلع لا يلاءم حساسية الموقف: أنت تخجلني.
- همس الحكيم في أذن إكليل:
- كنت أعرف أنك زير نساء، ولكن لم أكن أعرف أنك زير قناطير!!
- عرّف إكليل بنفسه: اسمي إكليل وهذا صديقي الحكيم
- قالت العجوز بشيء يشبه المرح: وأنا اسمي جهيمة!!
- بهيمة؟! - تساءل الحكيم متعجبًا وهو يضحك، وقال ساخرًا:
- لماذا بحق السماء يكون اسمك بهيمة؟!
- نظر جميع القناطير نحوه بغضب بينما همس إكليل له قائلاً:
- سنلاقي حتفنا بسبب لسانك الطويل أيها الحكيم.
- قالت جهيمة وهي تستعيد جديتها:
- من هو الشخص الذي جئتما للسؤال عنه؟!
- أجاب إكليل: عن صديق نظن أنه يقيم عندكم
- هل هو قنطور؟!
- بل غوريلا!!

قال أحد القناطير: هل تسخر منا أيها الفأر؟!

باستياء تمتم الحكيم: هؤلاء القناطير لا يملكون حس الدعابة

قال إكليل بأدب وكأنه يعتذر عن بذاءة لسان الحكيم:

- بل هو إنسان واسمه أيوب أيتها السيدة.

حكى جهمه رأسها بطرف أصبعها وكأنها تفتش في ذاكرتها عن

ذلك الاسم، بينما كان واضحاً من ردة فعل بقية القناطير أنهم لا

يعرفون أحداً بذلك الاسم، همس

الحكيم:

- يبدو أننا سنموت..

ولكن جهمه قالت وكأنها تذكرت شيئاً:

- ربما تقصدان ذلك الكائن البشري الأسود صديق أميرة قبيلتنا

آشاس؟!

هتف إكليل والحكيم في الوقت نفسه:

- إنه صديقنا الذي نبحت عنه!!

اقتادتهما جهمه جواً حتى وصلت بهما عند فتحة كهف مظلم

يحرسه سبعة من القناطير ذوي الشعور واللحى الطويلة وقد كانوا

مختلفين عن المخلوقات التي رأوها قبل قليل، هؤلاء القناطير كانوا

أكبر تعملقاً وقوة وكل واحد منهم كان لديه في ظهره أربعة أجنحة

بدت أطول وأقدر على الطيران بسرعة.

قال أحد حراس الكهف معترضًا الطريق: من هؤلاء؟!

- يقولان أنهما صديقا أيوب - وأردفت: أيوب صديق الأميرة.

أفسح القنطور مجالًا لهما للعبور دون أن يعلق فأكمل الجميع سيرهم.

أشارت جهيمة بيدها نحو فوهة الكهف وقالت:

- بلادنا تقع هناك

سأل الحكيم متعجبًا: أنتم تقيمون داخل كهف؟!

- بل هذه بوابة بلادنا أيها الفأر.

ما أن تجاوز الحكيم وإكليل فوهة ذلك الكهف حتى وجدًا بلادًا أخرى كبيرة عامرة تشرق فيها الشمس رغم غروبها التام عن سماء مملكة أبايل في ذلك التوقيت

كانت بلادا شاسعة خضراء جبلية تكثر فيها المروج والغابات والأنهار.. وما كان يجعلها أكثر جمالًا هي تلك البيوت المترصفة المنحوتة في الجبال العالية والتي تشبه القصور في إطلالتها، سألت جهيمة:

- هل تستطيع التحليق لمسافات شاهقة أيها الطائر؟!

قال إكليل الذي لم يجرب قدراته الجديدة بعد بلوغه:

- أظن

- حاول أن تتبعني إذا ...

طارت جهيمة عاليا يتبعها إكليل حتى تجاوزت السحب البيضاء المتراكمة وأكملت تحليقها في طبقات الجو العليا متجهة لأعلى قمة جبل في تلك البلاد كلها، وعندما وصلا إلى هناك بعد وقت طويل من الطيران، كان الإرهاق والتعب قد أصابا إكليل بسبب الارتفاعات الشاهقة المقطوعة وتيارات الهواء المضادة، أما الحكيم فإن مزاجه بدا معكراً ومنظره يشي بتعبه.

- ما بك أيها الحكيم؟!

- أشعر بأن رأسي يتصدع من الداخل يا إكليل!!

- إنه الضغط - بررت جهيمة - بسبب الارتفاع العالي...

قال بغضب:

- لماذا جئت بنا إلى هنا؟!

أشارت بيدها نحو الأمام وقالت:

- هذا قصر أميرتنا آشاس وصديقكما أيوب يقيم هنا .

نظر الحكيم نحو المكان الذي أشارت إليه جهيمة ولكنه لم ير شيئاً بسبب الضباب العائم في الجو:

- يبدو أن التقدم في العمر أصاب رأسك بالخرف!!

قالت وقد أزعجها أن يذكر لها أحد مسألة التقدم في العمر:

- يبدو أن هناك فأراً يريد مغادرة هذه البلاد من غير لسانه.

- يبدو أن هناك فأراً سيدخل في ث.....

- مهلاً - قاطعه إكليل وأضاف وهو يشير بمنقاره للأمام:
- إنها محقة أيها الحكيم، هناك قصر كبير وراء هذا الضباب.





سارت جهيمة بهما عبر أروقة القصر الفضاء بواسطة القناديل
المشتعلة باللهب والمعلقة على الحيطان الصخرية حتى توقفت بهما
أمام غرفة حجرية كان بابها مصنوعًا من ستار قماشي، نقرت الأرض
بحافرها ثلاثًا حتى تحرك ذلك الستار..

هتف الحكيم قائلاً:

- أيوب!!

سألت جهيمة وهي تشير بيدها نحوهما: هذان الاثنان يقولان
بأنهما صديقان لك؟! لم يتعرف أيوب عليهما؛ إنها المرة الأولى التي
يشاهد فيها الفأر والطائر، قال وهو يستدير ويعود للغرفة: أنا لا
أعرفهما .

نظرت إليهما جهيمة بغضب:

- أكنتما تكذبان علي؟!

قال إكليل: لا لم نكن نكذب دعينا نشرح لك الأمر!!

- لا أريد أن تشرح لي شيئًا!!

قالت ذلك وهي تلقي عليهما القبض وتجرحهما بعيدًا عن تلك الغرفة،
وفي محاولة أخيرة لإنقاذ الموقف استطاع الحكيم أن يخرج رأسه
من قبضتها ويهتف عاليًا باتجاه

الغرفة:

- القملة الصغيرة المزعجة تريد منك المساعدة يا أيوب!!

ثم وقبل أن تبتعد بهما جهيمة فتح أيوب الباب وقال:

- لحظة يا جهيمة لحظة واحدة!!

توقفت جهيمة مكانها وسأل أيوب متعجبًا:

- هل قال أحدهما بأن القملة الصغيرة المزعجة تريد مني
المساعدة؟!

- نعم أنا قلت ذلك!!

- من أنت أيها الفار؟!

- أنا لست فأرًا أنا الحكيم!!

- أي حكيم؟!

- حكيم قرية الجشاسة هل نسيتني أيتها الغوريلا الضخمة؟!

وحين نطق لفظ «الغوريلا» ابتسم أيوب متذكرًا ...

وبعد أن شرحا له الموقف بأكمله وأخبراه بحاجة عاصف الماسة
إليه فاجئهما أيوب

بردة فعله الباردة:

- لقد اعتزلت الحرب.

سأل الحكيم: تترك ابن صديقك يواجه الموت وحده؟!

- لم يعد بحر صديقي بعد انقلابه علي ومحاولته قتلي...

- ولكن عاصف يحتاجك!!

- وأنا أحتاج أن أكون وحيداً.

تدخل إكليل قائلاً: لقد أرسلنا إليك وهو يثق بأنك ستقف معه ...

- اسمعاً أنتم الاثنان، لقد أخبرتكما بأن بحر لم يعد صديقي وبأنه لا شأن لي بأحد، وبأنني اعتزلت الحرب وانتهى الأمر!!

سأل الحكيم: هل هذا آخر كلام لديك؟

سار أيوب عائداً نحو غرفته وهو يقول:

- من الأفضل أن تغادرا هذه البلاد سريعاً وتنسيا أمر لقائكما بي.

ثم وقبل أن يزيح الستار ويدخل غرفته تكلم إكليل في محاولة أخيرة لتغيير رأيه:

- بحر ينقل إليك حبه وأسفه ...

توقف أيوب مكانه وقال من غير أن يلتفت:

- محاولة جيدة أيها الطائر الذكي ولكن هل تعتقد أنك ستغير رأيي بهذه الكذبة؟!

قال الحكيم: هو لا يكذب إنها فعلاً آخر وصية لبحر قبل أن يموت

التفت أيوب وأماثر الفجيعة في وجهه:

- مات بحر؟!

أجاب إكليل: مقتولاً

سأل أيوب: أقال شيئاً آخر قبل أن يموت؟!

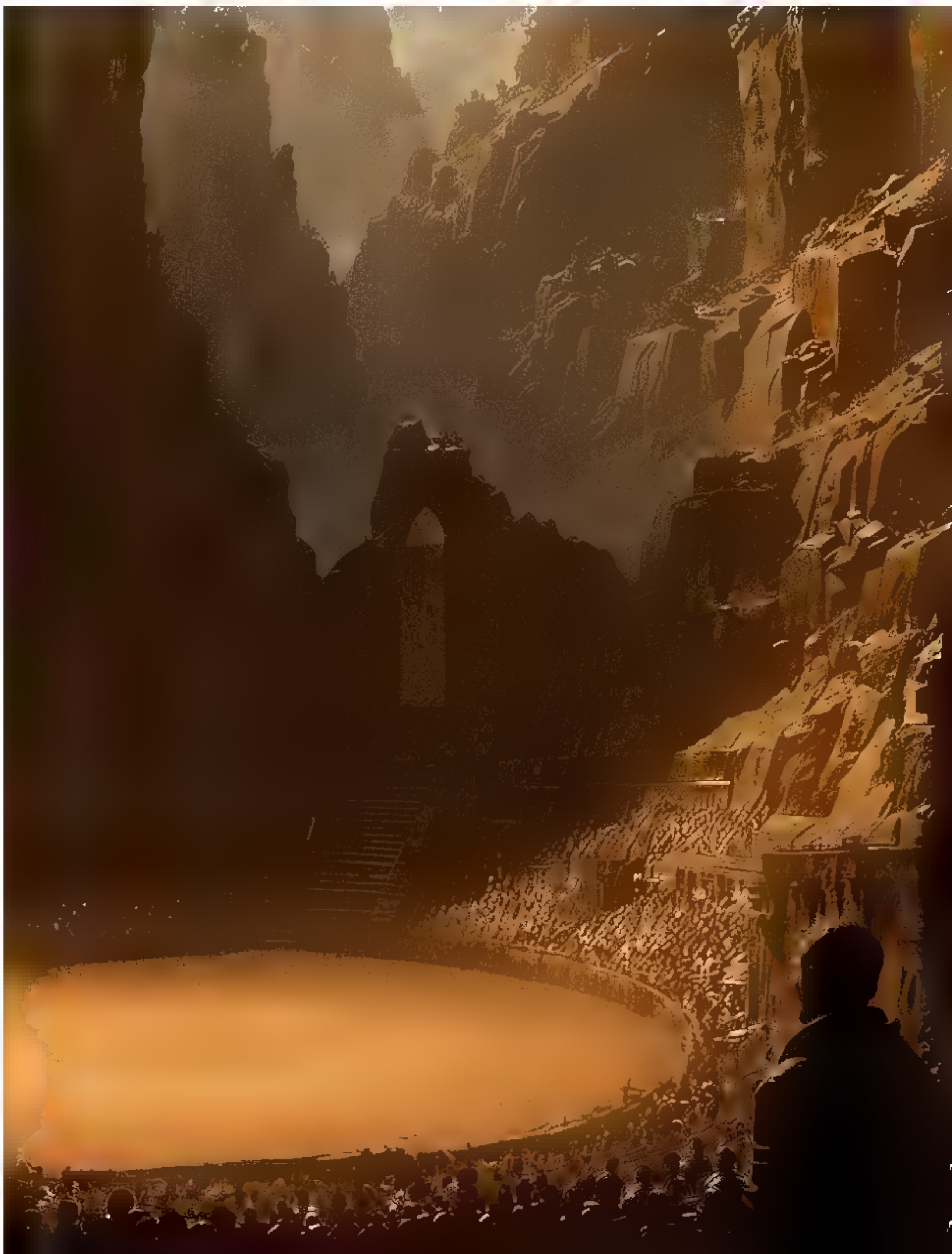
أخذ الحكيم نفسًا ثم أضاف بجدية:

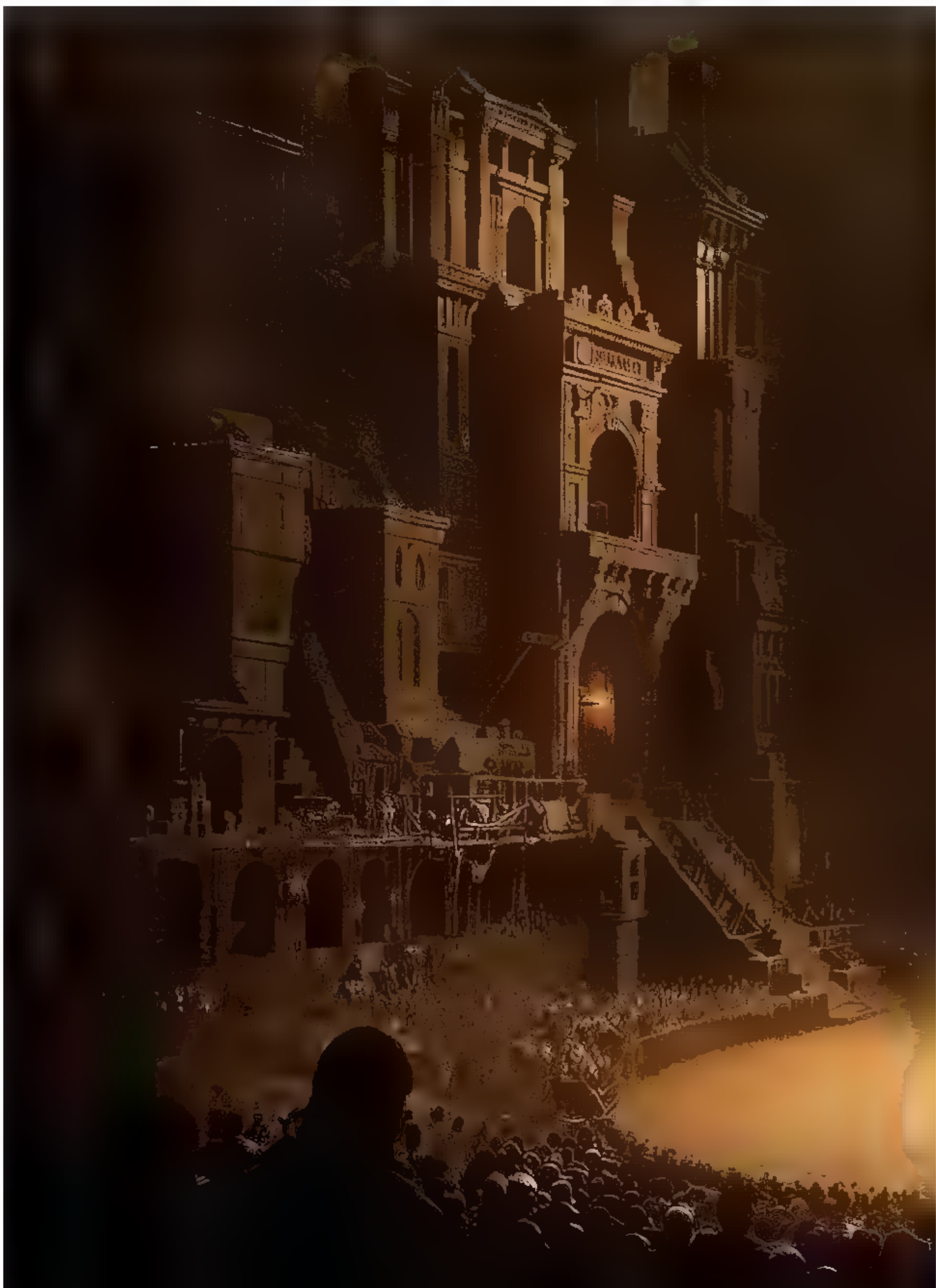
- قال بأنه لا يقدم لك اعتذارًا؛ فأنت الذي علمته بأن الأصدقاء ليسوا بحاجة للاعتذار..

وحينها فقط تيقن أيوب من أن صديق عمره قد مات فعلاً.

انتقل عاصف وسرابي لساحة كبيرة حيث كان جميع كُبراء عائلة الأباطرة يجلسون هناك في مسرح مُدرج دائري الشكل، مضاء بالنار من جميع الجهات يشبه مدرج أحد الملاعب الرومانية قديمة الطراز، كان الجميع ينظر إليه بفضول ويتهامسون فيما بينهم متسائلين عن السبب الذي ربما يكون قد جاء بذلك الحفيد، تمتع عاصف متسائلًا:

- روزانا من كل هؤلاء؟!





قالت روزانا:

- هؤلاء هم كُبراء عائلتك يا سمو الأمير

- ولماذا ينظرون إلى بهذه الطريقة؟!

- يتساءلون عن سبب قدومك - ثم أضافت: لا تهتما بهم واتبعاني.

امتثل عاصف وسرابي لطلب الشيطانة روزانا وسارا خلفها لمنتصف الساحة حيث كان في انتظارهما هناك شخصان يجلسان خلف منبر صخري مرتفع القامة، كان أحد ذينك الشخصين معروفاً بالنسبة إليهما وهي الوزيرة خيزران ولكن الشخص الآخر الجالس بجوارها لم يسبق لهما أن شاهداه من قبل، ورغم هذا إلا أن عاصف كان ينتابه شعور قوي يصل لدرجة اليقين يخبره بأن ذلك الشخص هو جده جبار الأباطرة .. كان مهيباً ضخماً البنية أصلع الرأس، ذقنه مرقشة بحبات شعر بيضاء وله شارب أبيض طويل ينتهي طرفاه بعفتين نحو الأعلى، يملك عينين ناعستين فيهما بريق جذاب و ملامح وجه باردة تبدو غير مكرثة بشيء، ورغم تقدمه في العمر إلا أنه بدا في كامل صحته وقوته وانتباهه.

- توقفنا هنا.

همست لهما روزانا بينما أكملت سيرها نحو المنبر الصخري لتقدم قطعة القماش الملطخة بدم بحر .. تناولت خيزران منها قطعة القماش تلك ولعقت بطرف لسانها الدم العالق فيها، ثم سألت بصوت منخفض:

- هل تحققت بنفسك؟!

- رأيته بعيني وهو غارق بدمه يا سيدتي الوزيرة.

أعادت إليها قطعة القماش وقالت: مرريها على كبراء العائلة فردًا فردًا حتى يتحققوا بأنفسهم من أن الذي أخذ منهم ابنتهم أصبح الآن ميتًا..

وهنا تكلم جبار قائلاً وهو ينظر نحو عاصف:

- لا تخف أيها الفتى اقترب وأخبرنا لماذا طلبت أن تقابلنا؟!

أمسك عاصف يد سراي ثم سار بها متقدما نحو الأمام:

- جئت أطلب مساعدتكم - صمت قليلاً ليعطي كلماته القادمة أكبر قدر من القوة، ثم أردف بصرامة:

- في القضاء على ناب الفيل!!

خلق عاصف بطله ذاك اضطرابًا شديدًا بين كبراء عائلة الأباطرة؛ فلم يتوقع أحد منهم أن يكون ذلك هو السبب الذي دفع ابن جومانا للمجيء من أجله.. أما جبار الذي بدا وكأن لديه علم مسبق بأمر ذلك الطلب فإنه تلقاه ببرود شديد وهو يضرب المنبر الصخري بقبضة يده الضخمة:

- هدوء أيها السادة - ثم نظر نحو حفيده وسأل:

- ولماذا عساك تريد القضاء عليه أيها الفتى؟!

- لأنه قتل جومانا ابنتك!!

اختار كلماته تلك بعناية وحرص معتقدًا أنه سينجح في التأثير بها على جده ويقنعه أكثر بالتحالف معه، غير أنه تفاجأ عندما سمع رده:

- ولكن هذا لا يعني عائلة الأباطرة في شيء فلماذا تظن أننا قد نساعدك في طلبك؟!

- ألم تكن جوماننا ابنتك؟! - ثم نظر حوله: ألم تكن فردًا منكم؟!

- لم تعد كذلك؛ لقد تخلت عنا منذ زمن طويل.

- ألا تحبها؟!

- لا..

لم يستسلم عاصف وقال:

- هل هذا يعني أنك لم تحزن عندما عرفت بأمر موتها؟!

خيم السكون على القاعة بينما واصل عاصف استجوابه: «هل هذا يعني أنك لم تشعر برغبة ولو بسيطة في الانتقام ممن قتلها؟! هل أهذا يعني أن الزمان لو عاد بك قليلًا إلى الوراء، فإنك لم تكن لتحاول حمايتها من الموت؟!»

ورغم قوة الأسئلة والنبرة العدائية التي يوجهها إليه عاصف إلا أن جبار بدا عليه من خلال النظر إلى ملامح وجهه بأنه كان يُحسن جيدًا ضبط أعصابه، فصرخ عليه عاصف:

- لقد أخبروني بأنك شجاع ولكني أراك تختبئ كالجبان وراء صمتك!!

عاد الاضطراب مجددًا يعم أرجاء القاعة ولو لم يكن كُبراء عائلة الأباطرة حاضرين في ذلك الوقت لما كان أحد منهم سوف يصدق أن هناك من ظل حيًا بعد أن رفع صوته في وجه جبار ونعته بالجبان،

ارتفعت قبضة اليد الضخمة مجددًا وضربت المنبر الصخري:

- هدوء أيها السادة - ثم تكلم جبار بهدوء:

- أخبرتك بأن جوماننا لم تعد من عائلتنا وهذا يعني أن أمرها لم يعد يعني لنا شيئًا، ولو أن الزمن يعود بي للوراء قليلًا مثل ما قلت، لكنت سوف.....

قاطعته قبل أن يُنهي كلامه:

- كفاك كذبًا، أرجوك لا تكمل - وأردف بغصة: لا تقل لي بأنك لو عرفت بالأمر فإنك لم تكن لتحاول حمايتها ، فلا يوجد هناك شيء في الدنيا يقنعني بأنك فعلًا لم تكثر لشأنها!!

لم يحتمل كبراء عائلة الأباطرة مشاهدة كبيرهم وهو يهان بتلك الطريقة، ثار الجميع يطالبون بإيقاف الجلسة وإعادة ذلك الشقي من حيث جاء، فتدخلت الوزيرة خيزران بأن ضربت المنبر الصخري بقبضة يدها ثم قالت:

- انتهت الجلسة برفض طلب المشاركة في الحرب.

هتف عاصف: هذا ليس عدلًا!!

لم تكثر لاعتراضه ونظرت نحو الشيطانة روزانا:

- خُذيها من هنا، عودي بهما لسطح الأرض!!

- سأموت - قال في محاولة لحثهم على إعادة النظر، وأضاف: من المؤكد أن ناب الفيل قد عرف بأمر زيارتي لكم وأنه سيقتلني حال عودتي إلى هناك، فهل أنا أيضًا لا أعني لكم شيئًا يا أفراد عائلة

الأباطرة؟!

قالت الوزيرة خيزران:

- تستطيع البقاء هنا تحت حماية الأباطرة إن شئت ولكن هذه الفتاة تعود من حيث جاءت .

- أنا لا أتخلى عن أصدقائي.

قالت الوزيرة خيزران تأمر الشيطانة: خذيهما.

وقبل أن تأخذهما الشيطانة روزانا من هناك تكلمت سراي وهي تنظر نحو جبار:

- أنتم من تخلى عن جوماننا وليست هي!!

انتفضت خيزران بردة فعل سريعة: اصمتي أيتها البشرية القذرة

- لن أصمت حتى لو كنت سأدفع الموت ثمناً لكلامي..

- موتي إذا ..

قالت خيزران ذلك بغضب شديد يشي بنيتها في الهجوم وقد استطاع عاصف قراءة تلك النية في نبذة صوتها وعرف أنها ستقوم بمهاجمة سراي فتحوّلت عينه اليسرى للون الأحمر القاتم، وراح يحتضنها بكليتي يديه جاعلاً من نفسه درعاً لها في حال قامت الجنية خيزران فعلاً بتنفيذ تلك الهجمة، ولكن قبل أن يحدث شيء تدخل جبار قائلاً:

- دعينا نستمع لما ستقوله هذه الفتاة.

- ولكن يا سيدي

قاطعها قبل أن تكمل: لن يضيرنا شيء لو أننا استمعنا إليها.

ونظر لسرابي وقال:

- اقتربي أيتها الفتاة وأخبرينا لم....

- لديها اسم يا جدي - قال عاصف مقاطعًا - اسمها سرابي.

ابتسم جبار بلطف متذكرًا أمرًا ما ثم قال: حسنا اقتربي يا سرابي

اقتربت سرابي من المنبر الصخري فتكلم جبار:

- أخبرينا لماذا قلت بأننا نحن من تخلص من جوماننا وليست هي؟!

- لأنكم قررتم الوقوف ضد مشيئة قلبها ومن يقف ضد مشيئات

القلوب يخسر..

- نحن لم نقف ضدها ولكن هذا هو قانون العائلة.

- لا قوانين تقف أمام سطوة الحب - ثم أضافت الحب ليس شيئًا

نختاره إنه هو من يختارنا ويفرض نفسه علينا، إنه كالمطر هل

تستطيع إيقاف المطر؟! أو منع اندفاع المياه في النهر؟! هل تستطيع

إقناع الشجرة بأن لا تثمر لأن الفلاح سيأتي بعد أيام ويقطف عن

أغصانها الثمر؟! - أمسكت سرابي قليلًا عن الكلام حتى ظن الجميع

بأنها أنهت كلامها، لكنها تابعت بثقة عالية كمحامية دفاع تحامي عن

موكلها: جوماننا لم يكن خيارها الوقوع في حب بحر لقد وقعت في

حبه وانتهى الأمر، لهذا وأنا آسفة لما سأقوله لكم الآن ولكن كان من

الغباء أن تضعوها أمام طريقين، إما أنتم أو الحب لأنه كان

من البديهي جدًا أن تقوم باختيار الحب ولو عاد بها الزمان ألف مرة
للوراء، لكنت في كل مرة سوف تختار الطريق ذاته!!

أرسل جبار نظرة صامته نحو كبراء العائلة وكأنه يريد بتلك النظرة
أن يخبر سراي بأنه لا يتحدث بصفته جبار فقط بل بصفته القائد
الذي يتكلم بالنيابة عن الجميع قال:

- عندما كنت في السابق ملكًا لأبابل كان وقتها يُعد طاغين أو ناب
الفيل كما أصبح يسمي نفسه لاحقًا، من أشد المقربين لي باعتبار أنه
الأخ الوحيد لزوجتي تاج ولكن طاغين خان ثقتي واستطاع بالمكر
والخدعة أن يضم قرية الساحرات لصفه كما استطاع أيضًا أن
يحشد لنفسه جيشًا كبيرًا من البشر والعفاريت والشياطين والمردة
أطلق عليهم اسم منظمة الجاثوم، كانت الأخبار تصلني من وقت
لآخر بأنه يخطط للانقلاب ضدي ولكن زوجتي تاج كانت تؤكد لي أن
أخاها لا يمكن أن يفعل شيئًا قد يضرني أو يضر عرش مملكتي، غير
أن الأيام أثبتت لي لاحقًا أنني كنت مخطئًا عندما صدقت كلامها ...

سأل عاصف بدافع الفضول:

- ما الذي حدث؟!

وهو ينظر لحفيده أجاب:

- هزم طاغين غدرا الجيش النظامي لمملكة أبابل ثم أنزل قواته
في جزيرة الأرباب وحاوط قصر الملك من أجل تصفية الأباطرة،
ولكننا قاومناه بكل ما نملك من قوة ورغم هذا مات أكثر من نصف
عائلتنا في تلك المعركة، بينما استطاع النصف الآخر أن يهرب بعيدًا

- كان جبار يصف الأحداث ببرود ولكن الجميع كانوا يعرفون بأن داخله يحترق أكمل قائلاً: وبعد أن هربنا من تلك المجزرة بحثنا في كل أرجاء أباييل عن مكان آمن نتحصن فيه، فلم نجد غير غابة مهجورة تقع بالقرب من قرية صغيرة آمنة يسكنها البشر اسمها الجساسة، فقررنا أن نتخذ تلك الغابة مكانا لنا، ثم ولكي أضمن أن أفراد عائلتي سيعيشون هناك من غير مفاجآت قمت بالاجتماع مع همام شيخ تلك القرية واتفقت معه على أننا لن نؤذي أحدا من أفراد قريته، مقابل أن لا يتطفل أحد منهم علينا في الغابة فوافق على ذلك ولكنه اقترح علي أمراً.

سأل عاصف مهتماً: ماذا اقترح عليك؟!

- اقترح أن لا يستخدم أحد من أفراد عائلتنا قدراته الخاصة أمام أفراد قريته لكي لا نثير الانتباه إلى أننا مختلفون عنهم مما قد يتسبب لاحقاً في اكتشاف طاغين لمكان إقامتنا .. وهكذا أصبحت تلك الغابة أرضنا وعشنا فيها زمناً طويلاً بسلام.

التفت جبار نحو سراي ثم وجه إليها كلامه ولكن بعد أن قررت جوماننا الارتباط بالمخلوق الطيني بحر والذي كان يعمل في السابق قائداً بمنظمة الجاثوم، أصبحت الغابة غير آمنة بالنسبة لنا فقررنا مغادرتها والتشرد مرة أخرى للبحث عن مكان جديد نقيم فيه - أخذ جبار نفساً عميقاً ثم تابع بخذلان: صحيح أننا مطاردون ومهددون بالخطر ونعيش الآن تحت الأرض حيث لا شمس ولا سماء ولا كرامة ولا كبرياء، ولكننا على الأقل نعيش في أمان وهدوء ونحن لسنا مستعدين لترك مكاننا هذا من أجل المشاركة في حرب لا تعيننا ..

وفي تلك اللحظة فقط شعراصف بأنه استطاع أن يضع أصبعه على مكان الجرح: - ماذا لو قلت لك بأنني سأعيد لعائلة الأباطرة قوتها ومكانتها بين الممالك المجاورة؟! - صمت قليلاً كما لو أنه يريد اختبار وقع كلماته في نفس جده، ثم أكمل متابعًا: ماذا لو قلت لك بأنني سأدعكم تعودون للعيش فوق سطح الأرض ملوكًا مثل ما كنتم من قبل؟!

- ماذا تقصد؟!

- الفلك - قال بعقة - الفلك مقابل مشاركتكم الحرب معي.

ذهش جبار من ذلك العرض وتساءل:

- ألا تطمح في أن تكون ملكًا لأبائيل في حال انتصارك؟!

- لا فطموحي أكبر.

- وما هو طموحك أيها الفتى إن كان ليس ملك أبائيل؟!

وهنا التفت عاصف نحو سرابي وقال بطريقة مفاجئة:

- طموحي هو أن أكمل حياتي إلى جوار هذه الفتاة.

تعجبت سرابي من ذلك الرد غير المتوقع وذلك الكلام الذي كان خارج سياق الموضوع تمامًا وشعرت بحياء شديد:

- ما الذي جرى لك؟

- لا شيء.

قال ذلك وصمت، ولكن عيناه قالت شيئًا آخر.

كاد ذلك الموقف أن يذكر كبراء العائلة بما حدث سابقا بين جومانا وبحر، لذلك فإن جبار قال قاطعًا تلك اللحظة العاطفية:

- دعنا نعد لموضوعنا أيها الفتى

غير أن عاصف لم يكن منتبها إذ كان سارحا في سراي، فتدخلت الوزيرة خيزران: - عاصف - ثم صاحت بصوت عالٍ: عاصف!!

وحين التفت إليها قالت تبصق الكلمات من فمها: جدك جبار يكلمك!!

نظر عاصف نحو جده بخجل فقال جبار عائدا للموضوع:

- حتى لو أننا تحالفنا معك سيبقى طاغين يتجاوزنا بمراحل!!

- سيكون معنا حلفاء آخرون!!

- حلفاء؟!!

- قبائل الأشاوس!!

عاد الاضطراب ينتشر بين كبراء الأباطرة للمرة الثالثة لقد كان من الصعب عليهم أن يصدقوا بأن قبائل الأشاوس قد تشاركه الحرب فمن المعروف عن تلك القبائل أنها تعتبر نفسها غير مهتمة أو معنية بكل ما يحدث في أباييل رغم أنها جغرافيًا تقع داخل حدود المملكة، قال جبار:

- أنت واثق من أن الأميرة آشاس ستشارك في الحرب معك؟!!

في الحقيقة هو لم يكن واثقا من ذلك الأمر ولكن ثقته المطلقة في الحكيم وإكليل هي التي دفعته لأن يقول: «نعم، واثق» .. كان جبار

يعرف أن مشاركة قبائل الأشاوس ستكون مفيدة كثيرًا في المعركة وأن حفيده ربما مع كثير من الحظ قد يستطيع تحقيق الانتصار.. وهكذا وبعد أن اتفق الطرفان على أن تستعيد عائلة الأباطرة الملك مقابل تحالفها مع عاصف فإن جبار ضرب المنبر الصخري بقبضة يده الضخمة وأعطى الأمر لوزيرته خيزران بتجهيز خيول الحرب الفجينة وإعداد صفوف الجيش.

وكخطوة أخيرة قبل اشتعال فتيل الحرب عاد عاصف وسراي مع الشيطانة روزانا لقرية الجساسة من أجل رؤية الحكيم وإكليل الشمالي وإخبارهم بأنهما نجحا في الحصول على مساعدة الأباطرة، ولكن عندما ظهر عاصف في البيت لم يجد أحدًا بانتظاره فأثاره ذلك الأمر:

- أين هم؟! كان يجب عليهم أن يكونوا هنا في هذه اللحظة!!

- ششش - همست الشيطانة روزانا وهي تضع يدها عند فمها في إشارة لعاصف بأن يصمت ثم أغمضت عينيها وركزت جميع حواسها عند أذنيها وكأنها ترصد شيئًا غريبًا يحدث، وحين تأكدت من الأمر بعد قليل فتحت عينيها و همست بخوف:

- القرية!!

سألت سراي: ما بها؟!

- تضج بجواسيس ناب الفيل!! يبدو أنه عرف فعلا بأمر زيارة سمو الأمير لعائلته وأصدر أمرًا بالقبض عليه.

ثم اقترحت وهي تنظر باتجاه عاصف:

- دعنا نرجع قبل أن يكتشف أحدهم أمر وجودنا!!

- لا أستطيع فربما يكون أصدقاءنا في خطر!!

- يجب أن تختار يا سمو الأمير بينهم وبين العودة لجدك جبار حتى تقود حرب الانتقام بنفسك.

- بل الخيار الثالث

- ما هو؟!

وهنا تدخلت سراي والتي كانت تعرف كيف يفكر عاصف:

- سوف يذهب للتفتيش عنهم وحين ينتهي سيعود ليقود حربه.

- ستكون في خطر مميت أيها الأمير لو أن أحدا من الجواسيس....

قاطعها منها النقاش:

- لا أستطيع أن أغادر من غير أصدقائي حتى لو كلفني ذلك إلغاء الحرب بأكملها.

بدأ عاصف وسراي في طرح جميع الاحتمالات الممكنة لغياب الأصدقاء وتوصلا في الأخير إلى أن الحكيم وإكيل يملكان حجة مقبولة لغيابهما وذلك بسبب المسافة البعيدة لسلسلة الجبال المحرمة، ولكن اختفاء الشمالي كان هو الشيء المقلق بالنسبة لهما وخصوصا بعد امتلاء القرية بالجواسيس فاقترحت سراي التالي:

- لماذا لا نتفقد آخر موقع ذهب إليه الشمالي؟!

- تقصدين مقابر القرية؟!

- نعم فربما نجد هناك خيطًا يقودنا إليه!!

التفت عاصف نحو روزانا وسأل هل تستطيعين أخذنا لهنالك؟!

- لا أستطيع فأنا لا أملك أوامر بذلك!!

- سأذهب لتفقد الأمر بنفسى إذا.

ثم التفت يحادث سراي:

ابق هنا تحت رعاية روزانا، ريثما أعود وإياك أن تغادري هذا المكان
مهما حدث.

قالت ضاربة بكلامه عرض الحائط:

- سأتي معك.

- ألم تسمعي روزانا وهي تقول بأن القرية ليست آمنة؟!

- وهذا ما يجعلني أصر على مرافقتك

- لست مستعدة لأن أعرض حياتك للخطر....

لم يكمل جملة تلك؛ وذلك لأن سراي تجاهلت كلامه واتجهت
نحو الباب وقالت:

- هل ستأتي أم أذهب للبحث عنه وحدي؟!

كانت الشيطانة محقة في توقعاتها فقرية الجساسة كانت تعج بالكثير من الجواسيس الذين يمشطون الطرقات ذهابًا وإيابًا للتفتيش عن عاصف شعرت سراي بالخطر:

- إنهم يملؤون طرقات القرية!!

- لا تقولي بأنك خائفة؟!

- ألا يحق لي أن أخاف؟!

- لا يحق لك وأنا معك...

واصل الاثنان السير باتجاه المقبرة متسللين بحذر شديد عبر دروب القرية الوعرة حتى لا يتم اكتشاف أمرهما، مهتدين بضوء القمر في الرؤية .. ثم وبينما هما يسيران إذ صادفا ثلاثة من الجواسيس في طريقهما وكاد أن يتم اكتشاف أمرهما ولكن لحسن الحظ كانت هناك زريبة خشبية بالقرب منهما فاستطاع عاصف أن يدخل إليها بسرعة وأن يسحب معه سراي قبل أن يلاحظهما أحد .. ما أن أصبحا في الداخل حتى جعل عاصف يرسل نظراته نحو أولئك الجواسيس من خلال التشققات الصغيرة لخشب حائط الزريبة وعندما اطمأن إلى أنهم لم يلاحظوه - أو هكذا ظن في البداية - التفت نحو سراي ليطمئن عليها، فشاهد أمامه حمارين ينظران إليه بحب ويقولان له في نفس اللحظة كما لو أنهما يرددان أنشودة:

- لقد كبرت أيها الجحش البشري وأصبحت حمارًا فحلًا!!

عانقهما عاصف عناقًا قويًا يشي بفرحته للقائهما ثم أخبرهما

بأنه جاء للبحث عن صديقه، وما أن عرف سامري بسبب مجيئه حتى قال له بأنه وزوجته شاهدا ليلة البارحة أشخاصا على ظهور أحصنتهم يوقفون شابا ما ويأخذونه معهم بالقوة:

- هل تعرف ما اسم ذلك الشاب؟!

- لا أعرف فقد كانوا يتحدثون معه بلغة البشر

- كيف كان شكله؟!

- لا أذكر فالبشر جميعهم متشابهون في الأشكال، ولا أستطيع أن أميز واحداً عن آخر وأنت لولا رائحتك النتنة التي ما زالت عالقة بك لما كنت أنا وزوجتي نعرفنا عليك!!

قالت قُمرية وهي تحاول أن تتذكر: كان طويلاً بعض الشيء يرتدي ثياباً واسعة بيضاء، يعلق سيفاً على ظهره وكان يبدو شجاعاً جداً وهو يحاربهم وحده رغم أنهم كانوا يفوقونه عدداً وعدة.

- هل حاربهم وحده؟!

- وقد أشبعوه ضرباً وأخذوه معهم!!

أصيب بالفجعة عندما سمع ذلك الخبر والتفت نحو سرايبي ليترجم لها ما قاله الحمارين ولكن سرايبي كانت مشغولة بشيء آخر، فقد كانت تراقب الجواسيس الثلاثة من خلال التشققات الصغيرة في الحائط الخشبي للزريبة وتبدو قلقه ومتوترة.

- ما بك يا سرايبي؟!

أجابت بتوتر: أحد الجواسيس يحدق باتجاهنا

الصق عاصف أذنه بحائط الزريبة مصيخًا السمع لما يحدث بالخارج، واستطاع أن يستمع لأحد أولئك الجواسيس الثلاثة وهو يقول لصديقيه الآخرين:

- أقسم لكما إنني لمحت شيئًا يدخل تلك الزريبة!!

قال الاثنان الآخران بشك: أنت واثق؟! فنحن لم نلمح شيئًا

سار نحو الزريبة كي يُبرهن لصديقيه صحة كلامه وقال:

- سأتحقق من الأمر بنفسى..

همست قُمرية بعجل تحدث عاصف:

- اختبئ أنت وهذا الذكر الذي معك قبل أن يراكما الجاسوس!!

- هذا ليس ذكرًا يا قمرية إنها أنثى!!

- وكيف لي أن أعرف وهي ترتدي كل هذه الأقمشة فوق جسدها؟!

- هذا الكلام غير مهم - قطع سامري عليهما النقاش - تعالِ معنا

سوف نخبئكما!!

- لا - همس عاصف: فهؤلاء من أخذوا الشمالي ويجب أن أعرف

منهم إلى أين ذهبوا به - ثم نظر نحو سراي وقال: اذهبي معهما

سيساعدانك في الاختباء، ريثما أنتهي من أمرهم...

دخل الجاسوس الأول للزريبة وقد انقضت مدة طويلة على بقاءه

بالداخل دون أن يخرج؛ الأمر الذي أثار شكوك زميليه الآخرين ..

صاحا عليه أكثر من مرة ولكنه لم يجبهما فقررا الذهاب لتفقدته .. وما أن دخل الجاسوسان إلى هناك حتى سمح لهما ضوء القمر الخافت المتسلل بخفة من بين التشققات الخشبية لجدار الزريبة بأن يشاهدا أمامهما كائنا طويلاً وضخماً يشبه وحشاً خرافي تشع إحدى عينيه بلون أحمر قاتم ولديه في كل يد خمسة مخالب معقوفة ذات نهايات حادة، وتبرز من فمه أربعة أنياب سيفية .. حاول كل واحد منهما النجاة ولكن الموت كان أسرع إذ قتل ذلك الوحش أحدهما وأبقى على الآخر حيًا، قال الجاسوس متوسلاً:

- أرجوك لا تقتلني

- لن أفعل إذا أجبتني

- سأجيبك يا سيدي عن أي شيء!!

- أين ذهبتم بالشمال؟!

- ولن تقتلني بعد أن أخبرك؟!

- أعدك بالأمان.. تكلم!!

- طلبه الرئيس فأخذناه له.

أمسكه عاصف من تلايب ثيابه وصرخ بوجهه:

- وماذا بعد؟!

- صدقني هذا كل ما أعرفه

- هل هو حي أم ميت؟!

- لقد وعدتني بالأمان يا سيدي!!

- ولن أخلف وعدي، أجبني هل هو حي أم ميت؟!

قال الجاسوس:

- لقد قتله ناب الفيل.

هزه عاصف بقوة حتى كاد يقتله:

- اللعنة عليك ما الذي تقوله أنت؟!

- هذا ما حدث وأنا لا ذنب لي!!

اقتربت سراي:

- دعه يا عاصف لقد أعطيته وعدًا بالأمان!!

لقد أصبح لديه ثأر ثالث سيحارب العالم كله من أجل أخذه.

صحيح أنه لم يعرف الشمالي منذ مدة طويلة ولكن بعض الصداقات لا تحتاج لعمر طويل حتى تؤتي ثمارها ، كان الشمالي صديقًا وفياً لا يمكن للحياة مهما امتدت أن تعوضه عنه.

أراد أن يقتل الجاسوس لكنه لم يفعل وتركه يذهب وفاء للوعد الذي قطعه له.

غير أنه سيكتشف بعد قليل بأنه ارتكب خطأ فادحاً حين سمح له بالذهاب.. فقد عرف ذلك الجاسوس من خلال سراي - عندما نادى عاصف قبل قليل باسمه - أن ذلك الشاب هو نفسه الشخص المطلوب والذي يفتشون عنه منذ مدة..

وبعد أن عرفا ماذا حل بصديقهما الشمالي تسلل الاثنان عائدين نحو البيت حيث الشيطانة روزانا بانتظار عودتهما .. في البداية لم يشعر عاصف بشيء ولكن الشك بدأ يتسرب لقلب سراي بعد أن لاحظت اختفاء الجواسيس من الطرقات فجأة والسهولة التي كانا يسيران بها في دروب القرية، همست:

- ألا تلاحظ شيئاً غريباً؟!

- ماذا؟!

- الطرقات تكاد تكون خالية؟!

- وهل كنت تريدونها مليئة بالجواسيس؟!

- لا ولكن أخاف من أن يكون خلف هذا الاختفاء المفاجئ أمر ما

- لا تقلقي، لقد اقتربنا من البيت على كل حال!!

انعطف الاثنان يميناً ثم سارا عبر زقاق تراي ضيق ينتهي بمدخل الحي الذي يقع فيه البيت، ولكنهما ما كادا أن يتجاوزانه بخطوات قليلة حتى حاوطت فرقة الجواسيس عليهما المكان من جميع الاتجاهات وأمروهما بعدم التحرك .. اقترب المارد مُراقب منهما وهو يقول:

- لم أكن أعرف أن صيدك سيكون بهذه السهولة

قال عاصف وهو يخفي سراي بيده خلف ظهره:

- من أنت وما الذي تريده؟!

- اسمي مُراقب وأريد منكما أن تأتيَا معنا

مسح بعينه المكان مفتشًا عن مخرج قد يستطيع أن يهرب هو وسرابي من خلاله، ولكن الكثير من الجواسيس كانوا يحاوطون المكان ولا يدعون له فرصة ولو صغيرة للتفكير بالهرب.

- لا تتعب نفسك - قال مُراقب - فلن تستطيع مهما حاولت.

بدأ عاصف يفكر بالمواجهة ولكنه ما لبث كثيرًا حتى ركل تلك الفكرة بعيدا عن رأسه، ليس لأن فرقة الجواسيس كانوا أكثر منه فقط وليس لأنه يدرك استحالة التغلب عليهم بمفرده ولكن لأن سرابي سوف تكون أول من يتعرض للخطر في حال قرر الاشتباك:

- سأتي معكم - قال مستسلفًا - ولكن هذه الفتاة لا شأن لكم بها

- الذين لا يملكون فرصة للمقاومة لا يضعون شروطًا

- أنا من تبحثون عنه هذه الفتاة لا دخل لها

قالت سرابي: سأتي معك

أسكتها عاصف: اصمتي أنت

- متى ستفهم أننا جميعا في قارب واحد؟!

- لست ذاهبًا لكي أقضي وقتًا ممتعًا هناك!!

- سأتي معك للجحيم!!

- وما دخلك أنت لتواجهي الموت معي هل تظنين أن الموت لعبة؟!

- أدرك أنه ليس لعبة، ولكن لأنني أهتم بك.

- وأنا لا أريدك أن تتعرضي للخطر؛ لأنني أهتم بك أيضًا.

علق مُراقب ساخرًا:

- واقع في الحب ومنظرك يدعو للشفقة

- من أخبرك بأن الحب يجعل منظر الشخص يدعو للشفقة؟!

- منظرك الذي يوحي بأنك قد تبلل ثيابك من الخوف هو من

أخبرني

- أنا لست خائفًا منك أو من أعوانك الذين معك

- أعرف - قال مُراقب - أنت خائف على هذه الفتاة التي توارىها

خلف ظهرك وتحاول حمايتها وهذا بالضبط ما يدعو للشفقة، تخيل

لو أنها ليست معك ألم تكن لتقاتل في هذه اللحظة وتموت شجاعًا

كما يموت الأبطال بدلًا من أن نأخذك لناب الفيل وتموت هناك ذليلاً

كما تموت الخراف؟!

لم يتكلم عاصف وظل صامتًا أكمل مُراقب حربه النفسية:

- حتى إنها لا تحبك!!

صاحت سرايي منفعة: اسكت أنت!!

- أثبتني له خطأ كلامي .. انظري إليه وقولي بأنك تحبينه..

نظر عاصف نحوها فأشاحت بنظرها للبعيد مما أكد له بأنها لا

تحبه.

- معها حق في أنها لا تحبك فأنت مخلوق مختلف عنها - واصل

مُراقب حربه النفسية:

- ولماذا عساها تقع في حب مخلوق مختلف عنها كليًا وحش قد يغضب منها يومًا ويمزقها بمخالبه مثل ورقة، إنها تعلم بأنك لا تصلح لشيء غير أن تكون كلب حراسة لها أما حين تقرر هي الوقوع في الحب فإنها ستختار شخصًا من جنسها البشري..

همست سرابي في أذنه:

- لا تستمع إليه إنه يريد فقط أن....

قاطعها عاصف قبل أن تكمل:

- لن أكون حزينًا لو أنها أحببت مخلوقًا بشريًا المهم أن تكون سعيدة!!

قال مُراقب ببرود: هراء تقوله لتواسي به نفسك

- أنت أصغر من أن تعرف كيف يكون الحب الحقيقي.

- بلى أعرف - قال بسخرية - يكون من طرف واحد مثل قصة الحب التي تعيشها أنت..

- أريدها فيه أن تكون سعيدة وآمنة .. نعم أتمنى من كل قلبي لو أنني كنت ذلك الشخص المحظوظ الذي سيعيش بقية عمره معها، ولكن لو كانت سعادتها مع شخص آخر فساكون راضيًا لأجلها..

لم يعرف مُراقب كيف يرد فصاح منسحبًا من ذلك النقاش:

- هل ستأتيان معنا أم نستخدم القوة في أخذكما؟!

كان الوضع خطيرًا فقد يتم إلغاء كل شيء في حال استطاع المارد
مُراقب إلقاء القبض عليهما، ولكن يبدو أنه لا يوجد طريق آخر غير
الاستسلام .. كاد عاصف أن يفتح فمه ليقول بأنهما سيأتيان معهم
طوعًا دون الحاجة لاستخدام القوة، ولكنه قبل أن يتكلم كان هناك
من يتخاطر معه في تلك اللحظة:

«اصمد مكانك أنا وتارا في الطريق إليك».. فابتسم!!

سأل مُراقب وهو يشاهد تلك الابتسامة: سعيد لأنك ستأتي معنا؟!

- بل لأنك لن تغادر هذه القرية حيًا!!

- ماذا تعني هل اخترت المواجهة؟!

- تمامًا!!

- لن تستطيع مواجهتنا وحدك!!

- من قال بأنني سأقوم بمواجهتكم وحدي؟!

- هل ستقاتلنا أنت وهذه البشرية الضعيفة إذا؟!

تحولت عينه اليسرى للون الأحمر القاتم، وقال: انظر خلفك يأتِكَ
الجواب!!

وعندما نظر المارد مُراقب وجميع الجواسيس للخلف شاهدوا في
الهواء امرأة، لها شعر غجري أسود اللون يتخلله بعض خصل الشيب
الرمادية، وبشرة بيضاء مشدودة مثل جلد حصان سباق تمتلك
ملامح وجه هادئة تشبه وقت غروب الشمس، تقف بجوارها كوبرا
أفعى جن سوداء شكلها مخيف لها رأس مسطح مثل صفيحة

درع اغريقية وعينان باردتان يشع منهما بريق الموت، ولسان نحيل
متشعب لونه مثل لون جلدها تقوم بإخراجه من وقت لآخر بينما
تصدر فحيحًا مرعبًا..

استعد عاصف للمشاركة في المعركة ولكن تارا اقترحت شيئًا آخر:

- خذ الفتاة بعيدًا من هنا وأنا وتاج سنتكفل بالأمر.

حملها بين ذراعيه ولكن قبل أن يغادر تكلمت جدته:

- لماذا لم تخبرني عن أمر هذه الفتاة يا عاصف؟!

- لأنني كنت أعرف بأنك ستغضبين مني لو أنني أخبرتك...

- أتحبها فعلا؟!

- لا عيب في ذلك.

- تبًا لك ما أغباك!! ألم يُعمر فيك تعلّمي؟!

- لقد حدث الأمر رغما عني!!

- ألم أعلمك أن تأخذ حاجتك من النساء ثم تحذفهن بعيدًا؟!

- سرابي ليست كبقية النساء!!

- وما الذي يجعلها مختلفة؟!.. أليها ثلاثة أقدام بدلًا من اثنين؟!!

- ليس الأمر هكذا!!

- أخبرني ما الذي يجعلها غير بقية النساء إذا؟!

وهنا قال عاصف بمشاعر مختلطة بين التوتر والخجل والغضب:

- ما رأيك أن نترك هؤلاء الجواسيس جانبًا، ونتعارك أنا وأنت؟!..
هل تريدون ذلك؟! هل هذا ما جئت إلى هنا من أجله؟!

تدخلت تارا:

- معه حق دعينا ننتهي من هؤلاء الجواسيس أولاً.

- سأفاهم معك بعد أن ننتهي من أمر هؤلاء الحمقى أيها الأحمق
الغبّي!!

قالت ذلك تاج ثم بدأت المعركة وقد شكلت هي وتارا ثنائيًا لا
يقهر في مواجهة الجواسيس بينما قام عاصف بإبعاد سراي عن
ساحة القتال، وربما كان انشغال تاج وتارا في العراك هو السبب الذي
جعلهما يغفلان عن ملاحظة المارد مُراقب وهو يتسلل ذاهبًا خلف
عاصف.

عاصف وهو يحمل سراي ويركض بها نحو البيت:

- سأطمئن عليك عند روزانا ثم أعود لمساعدة تاج وتارا

- سوف تكونان بخير لا تعد إليهما!!

- لست أنا الذي يترك أصدقاءه خلف ظهره ويهرب

- أعرف لكن أخاف عليك من الاشتباك في تلك المعركة!!

وهو لا يزال يحملها بين يديه وينعطف بها يمينًا:

- وفري خوفك للوقت الذي نبدأ فيه القتال ضد ناب الفيل!!

- وهل ستشارك معهم في القتال؟!

- وهل كنت تظنين أنني سأقف متفرجاً بينما يأخذ الآخرون بعأري؟!

صمت قليلاً وكأنها كانت مترددة في إخباره بالأمر الذي تفكر به:

قالت متشجعة: سأخبرك بشيء عن تاج عندما نصل للبيت

- أعرف ما الذي ستقولينه لي

- حقًا تعرف؟!

- يبدو أنك تتساءلين لماذا كانت غاضبة بشأنك قبل قليل؟!

- لا، هناك شيء آخر - ترددت سراي قليلاً ثم باحت:

- أظن أنها هي المرأة التي رأيثها تطل....

كادت أن تقول له بأن تاج هي تلك المرأة التي رأتها تطلق السهم من عند النافذة وتقوم بقتل والده بحر، ولكنها قبل أن تكشف له عن ذلك السر كانت هناك قذيفة قوية قد وجهت لرأس عاصف من الخلف، جعلته يفقد توازنه ويسقط أرضاً، لم يلتفت ليرى مصدر الضربة، بل قفز نحو سراي ليتحقق من أنها على ما يرام، قال لها وهو يجد صعوبة بالغة في البقاء متوازناً

- هل تأذيت؟!

رفعت رأسها لتخبره أنها بخير، ولكنها ما كادت تنظر باتجاهه

حتى اتسعت عيناها من الخوف وصاحت بكل صوتها تحذره مما هو قادم من الخلف إليه: انتبه خلفك!! .. لم يتمكن عاصف من الالتفاف فقد أصابته قذيفة غادرة أخرى في الجزء الخلفي من رأسه، جعلته يسقط على وجهه فاقدًا وعيه .. تشجعت سراي وراحت تهاجم المارد مُراقب وحدها ولكنه استطاع بكل سهولة أن يُطبق عليها من عند عنقها ويرفعها عاليًا سادًا عليها بقبضته مجرى التنفس .. حاولت أن تستنجد بعاصف ولكنه كان لا يزال فاقدًا الوعي ولم ينتبه عليها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

معلقة في الهواء بواسطة ذراع المارد مُراقب تحاول تخلص عنقها من حصار قبضة يده ولكن من غير فائدة .. حركت بؤبؤي عينيها لتنظر نحو عاصف الممدد أرضًا، مدت إليه يدًا وكأنها تريد لمسه لآخر مرة في حياتها ولكن يدها كانت أقصر بكثير من أن تصل إلى وجهتها .. أغمضت عينيها استعدادًا للرحيل فرأت في الظلام أمها فيروز وهي تنظر إليها مبتسمة وتقول:

- لقد اشتقت إليك يا ابنتي

- وأنا أيضًا اشتقت إليك يا أمي

- تعالي معي

قالت ذلك ثم أمسكتها فيروز من يدها وسارت بها في فضاء مُظلم ينتهي ببقعة ضوء بيضاء تشبه بقعة ضوء صغيرة في نهاية النفق.

- إلى أين تأخذيني؟

- حيث أصبحت أقيم - أجابت فيروز - في العالم الآخر.

ولكن قبل أن تبعد الاثنتان كثيرًا، توقفت سراي لحظة وكأنها تذكرت أمرًا مهمًا قالت وهي تفلت يد والدتها:

- لحظة أريد أن أقول لعاصف شيئًا قبل أن أذهب معك...

فتحت عينيها بصعوبة وهي لا تزال معلقة في الهواء بواسطة ذراع المارد مراقب...

كان جسدها قد أصبح عاجزًا تمامًا بسبب نقص الأكسجين ولا طاقة فيه لمزيد من المقاومة، كل ما استطاعت فعله هو أن تعيد تحريك بؤبؤي عينيها نحو عاصف وتقول له بصوت مختنق: «أحب.. أحبك عاصف أنا أحبك!!» وفي تلك اللحظة فقط فتح عينيها وكان تلك الكلمة استطاعت أن توقضه من سباته العميق ... اختفى من مكانه ليظهر فجأة خلف المارد مراقب غرس أنيابه السيفية في عنقه مما جعله يفلت سراي من قبضة يده.. اشتبك الاثنان في معركة ضارية كان فيها عاصف أقوى بكثير من أي مرة خاض فيها نزالًا من قبل، ورغم ذلك إلا أنه لم يتمكن من إيقاف مراقب واستمرت المعركة بينهما لبعض الوقت حتى جاءت تاج وقالت:

- دعه لي يا عاصف

تنحى عاصف جانبًا وذهب ليرى سراي الممددة أرضًا دون حراك، قام بهزها من كتفها ولكن دون فائدة.. همس لها عند أذنها بهدوء وكأنه يحاول اقناعها بشيء ما: «سراي لا تموتي!!» ولكنها لم تستجب: فأمسك رأسها بكلتا يديه وصاح:

- أرجوك لا تذهبي أنت أيضًا قولي شيئًا سرابي، سرابي، سرابي!!

اقتربت منه تارا وقالت:

- أعطها قبلة الحياة.

- ماذا؟!

- يجب أن يصل الهواء إلى أعضائها الداخلية وإلا فستفقدوها!!

شعر عاصف بالغرابة وهو يسمع ذلك الكلام، فقالت تارا:

- ستموت الفتاة بسرعة انفخ في فمها!!

وضع شفتيه على شفتيها وقد أغمض عينيه بسبب خجله الفطري وجعل ينفخ الهواء في فمها - لمرة.. ومرتين.. وثلاث - حتى بدأ صدرها في التحرك ارتفاعًا وانخفاضًا.. فقالت تارا «هذا يكفي».. ولكن عاصف لم ينتبه حتى صاحت عليه تاج غاضبة بعد أن انتهت من قتل المارد مُراقب:

- هذا يكفي أيها الأحمق لقد أصبحت فتاتك بخيرا!!

فتحت سرابي عينيهَا بعد أن بدأت تستعيد وعيها:

- ما الذي حدث؟!

قال وهو يحتضنها: لقد ظننت أنني خسرتك!!

قالت تاج بنبرة صوت تدل على أنها ليست راضية عما يحدث:

- هل تريدان منا أن نغادر المكان لكي نفسح لكما المجال أكثر؟!

شعرت سرابي بالخجل فحررت عنق عاصف بينما قالت تارا:

- يجب أن يأتي جيش الأباطرة في أسرع وقت فالأخبار لن تلبث طويلاً حتى تصل طاغين، وحينها سيأمر بتحريك كل جيوشه ضدنا!!

سأل عاصف:

- أين تتوقعين أن تكون المعركة يا تارا؟!

- أظن أنها ستكون هنا في قرية الجساسة، هل ستشارك قبائل الأشاوس معنا؟!

- لا أعلم فالحكيم وإكليل لم يعودا من هناك بعد.

علقت تاج بقلق:

- سنحتاج معجزة حقيقية لنتصر في حال امتنعت قبائل الأشاوس عن المشاركة.

بدا عاصف متوترًا من سماعه ذلك الكلام فقد اقترب موعد المعركة فعلاً ولم يرجع إكليل والحكيم من هناك بعد، ماذا سيحدث له ولحلفائه إن كانوا أقل قوة وقدرة من المواجهة؟!

أمسكت سرايبي يده وقالت:

- لا تقلق كل شيء سيكون بخير!!

لم يعلق وسار بصمت و شرود نحو بيوت قرية الجساسة، سألته:

- إلى أين

- لإخلاء القرية من السكان، يجب أن نقلص خسائرنا بأكبر قدر

ممکن

نهضت سرايى المتعبه وسارت خلفه تتبعه باذلة جهداً كبيراً فى
التوازن:

- مهلاً سأتى معك ..

علقت تارا: إنها تحبه.

تاج: أعدك بأن لا يستمر هذا الحب طويلاً ...

و تارا تلتفت نحوها: ما الذى تخططين لفعله هذه المرة؟!

- لا شيء

قالت ذلك وصمتت، لكن تارا كانت تعلم أنها تكذب.

قاد جبار جيش الأباطرة من خلال البوابة التي فتحتها لهم الشيطانة روزانا وبدأ المقاتلون في التدفق لأرض الجساسة ممتطين صهوات خيول الحرب الفجحة، واحتاج الجيش وقتًا طويلاً حتى استطاع العبور بشكل كامل لتصبح القرية لاحقاً أشبه بخلية نحل حية .. قامت الوزيرة خيزران بتوزيع الجيش إلى خمسة أقسام رئيسة:

- رأس وميمنة وميسرة وقلب ومؤخرة - وكانت تردد بصوت عالٍ، من وقت لآخر بينما تقوم بإنزال القوات منازلها: «لا نتوقف عن القتال، حتى نسقط أرضاً ونموت!!» والمقاتلون كلهم من غير استثناء يرددون خلفها.

أما جبار فقد كان طوال الوقت يحاول تجنب لقاء زوجته تاج ويحاول كلما صادفها في طريق أن يذهب من طريق آخر، ولكن في إحدى المرات قالت له تاج قبل أن يستدير ويصد عنها:

- متى ستعترف بأنك كنت مخطئاً في الحكم علي يا جبار؟!

التفت إليها وقال كمن يعتذر:

- طاغين آلمني كثيراً يا تاج

- ولماذا تعاقبني بذنب غيري؟!

- ألم تكوني أنت من كان يخبرني بأنه لا يسعى للانقلاب ضدي؟!

- لقد كنت ضحية موك وقد كذب علي أخي طاغين مثل ما كذب

عليك - ثم أضافت وهي تحني رأسها احترامًا وتقديرًا وتكمل حديثها بنبرة صادقة: ولكن انظر إلي اليوم يا سيدي ومولاي أنا في صفوف جندك أستعد للتضحية بنفسي من أجل أن تستعيد مُلكك وعرشك!!

أوما لها جبار برأسه دليلاً على رضاه ثم همس: بعد أن نستعيد المُلك نعود للعيش في جزيرة الأرباب حيث قصر مملكة أبايل مثل ما كنا فيما مضى - ثم أضاف مداعبًا وهو يُربت على شعرها بحنو: - وربما تُرزق بمولود ذكر يكون نائبًا لعرش أبيه.

شعرت تاج بالكثير من السعادة لسماعها ذلك الخبر وابتسمت مثل طفلة يخبرها والدها بأنه سيقوم باصطحابها إلى السوق لشراء الحلوى بعد الانتهاء من أداء واجباتها اليومية، قالت بأمل:

- هل تظن أن أساطير قد يعود عندما يصله خبر استعادتك المُلك؟! - ذلك الولد العاق - غمغم جبار ثم أضاف بغضب:

- ما حاجتي به في الرخاء إن لم يكن عونًا لي في الشدة؟! -

قام عاصف بإدخال سراي للغرفة القديمة التي كان ينام فيها مع أمه عندما كان صغيرًا، وقال لها بحزم:

- ستبقين هنا ريثما تنتهي هذه الحرب!!

- الجميع سيشاركون .. لماذا أنا الوحيدة التي لا تريدها أن تساعدك؟! -

أمسك رأسها بكلتا يديه وقال:

- بقاؤك بخير لهو أكبر مساعدة قد تقدمينها لي يا سراي.

- وأنت - قالت برجاء - هل تعدني أن تكون بخير؟!

- لا أستطيع أن أعدك بذلك!!

- لماذا تقول هذا؟!

- إنها حرب كبيرة تلك التي نستعد لخوضها ولا أحد يستطيع أن يضمن الخروج منها.

- كنت على الأقل تستطيع أن تقدم لي وعدًا زائفًا بالعودة بدلًا من هذا الكلام المخيف!!

- لم أعتد على تقديم وعود زائفة - ثم أردف: هل ستصغين لطلبي؟!

لم تكن راضية ولكنها في الأخير أومأت برأسها موافقة، ثم وقبل أن يغادرها ليأخذ مكانه في الجيش أطلال النظر إلى عينيها اللامعتين مثل بحيرة صافية والقلقتين مثل عيني سنجاب مرعوب، تأمل تفاصيل وجهها الجميل كما لو أنه يريد الاحتفاظ لنفسه بنسخة من ملامحها في أدراج ذاكرته فيظل يتذكرها دائمًا حتى لو أنه مات في المعركة.. طبع قبلة على جبينها ثم قال:

- أحبك

صمت ينظر إليها معتقدًا أنها قد تبادله تلك الكلمة ولكنه كان مخطئًا:

- سأنتظرك حتى تعود من حربيك سالمًا ثم أقولها لك.

- أعدك إذا بأن أبذل قصارى جهدي حتى أعود إليك.

لم تشرق شمس اليوم التالي حتى جاءت عيون الأباطرة تسعى من أقاصي قرية الجساسة، تنقل إليهم الأخبار باقتراب جيش الأعداء: سيدي جبار إن طاغين يقود جيشًا ضاربًا باتجاهنا، إنهم كثر ولم يسبق أن شاهدنا جيوشًا بتلك الضخامة والعتاد من قبل!!

التفت جبار نحو عاصف يسأله:

- لماذا تأخرت قبائل الأشاوس عن الوصول؟!

- لا أعرف - أجاب بحيرة - لم يصلنا ردهم بعد!!

- لم يصلك ماذا؟! - قال جبار كمن ضربته صاعقة وأضاف:

- هل هذا يعني أنك لا تعرف إن كانوا سيشاركون معنا أم لا؟!

لم يجب عاصف وظل صامتًا فصرخ عليه جده:

- أجبني لعنتك السماء!!

- لقد أرسلت لطلب التحالف معهم ولكن لم يصلني ردهم بعد!!

- ولماذا أخبرتنا بأنك قد حصلت بالفعل على موافقتهم؟! هل كنت

تكذب علينا؟!

- ظننت أنني سأحصل عليها!!

- ظننت؟! هل تعتقد أن الحرب ذعابة أيها المتهور لتقول ظننت؟!

تجعلني أشارك بكل أفراد العائلة، ثم تقول بأنك ظننت؟! أي قائد حرب أبله أنت؟! لقد ساندتك بالجميع حتى إنني أحضرت الإناث

للمشاركة .. ستقضي على نسل الأباطرة أيها المتهور!!

تدخلت الوزيرة:

- دعنا ننسحب يا مولاي ما زال أمامنا متسع من الوقت!!

- لن نستطيع يا خيزران يلزمنا الكثير من الوقت حتى ينسحب كامل الجيش وقد يصل طاغين في أي لحظة وحينها ستكون فرصة سهلة بالنسبة له لكي يقتل الذين لم يتمكنوا من الانسحاب.

- ننجو ببعضنا أفضل من أن نهلك جميعًا يا سيدي

- لقد تبعوني إلى هنا لأنهم يثقون بي - قال ذلك وهو يشير بإصبعه نحو أفراد عائلة الأباطرة، ثم تابع بحسم:

- ولن أهرب وأترك خلفي واحدًا منهم يواجه الموت بمفرده!!

- ماذا سنفعل إذا؟!

- لا خيار أمامنا غير الحرب - قال ذلك ثم ضرب خاصرة حصانة بقدميه ليخفق الحصان بأجنحته ويرتفع عاليًا عن الأرض، هتف ملوحًا بيده الضخمة وهو ينظر نحو جيشه: «النصر للأباطرة» فرد جميع المقاتلين خلفه: «النصر للأباطرة»

لم يمض وقت طويل حتى بدأ الجميع يسمعون رفرفة أجنحة في الهواء قادمة من البعيد جعلت الأرض تهتز من تحت أقدامهم، وعندما نظروا باتجاه الأفق شاهدوا في الهواء جيشًا استطاعت مقدمته فقط أن تحجب نجم الشمس من السماء: لقد وصل الموت.

اصطف الجيشان بعضهما مقابل بعض وقد كانت جيوش الملك طاغين وحلفائه من الممالك المجاورة تفوق بكثير الأعداد المتواضعة لجيش الأباطرة، اقتربت ساعة البدء إذا وبدأت الهزيمة تطوف فوق الرؤوس .. كتب طاغين رسالة سرية في رقعة من الجلد وكلف رسولاً يحملها لجبار.. سار الرسول حتى توقف على مقربة من جيش الأباطرة ثم صاح بطريقة مهينة مستفزة وهو يلوح بالرسالة:

- جئت أحمل رسالة من جلالة الملك إلى المدعو جبار الأباطرة.

تقدم جبار نحو الرسول فوق صهوة حصانه المجنح، وقد كانت تلك الإهانة بالنسبة إليه تعني بداية الحرب، سأل بكبرياء:

- ماذا لديك؟!

همس الرسول وهو يمد رقعة الجلد:

- جئت أحمل إليك ولأفراد عائلتك الحياة..

فتح جبار رقعة الجلد المطوية تلك وقرأ ما جاء فيها:

«سَلِّمْ لَنَا عَاصِف، تَنْتَهِي هَذِهِ الْحَرْبُ».

كانت صفقة بسيطة وسهلة وقد جاءت في التوقيت الصحيح .. ولكنها وصلت ليد الشخص الخطأ، فصحيح أن التقدم في العمر جعل من كبير الأباطرة أكثر ميلاً للسلام والرخاء والهدوء، وأصبح في مقدوره تقديم تنازلات كثيرة مقابل حياة آمنة له ولأفراد عائلته، ولكن التقدم بالعمر لم يصل به بعد لأن يصبح نذلاً.

طوى جبار رقعة الجلد بعد أن فرغ من قرائتها، وأرسل نظرة خاطفة نحو طاغين المتحصن خلف جنوده والمبتسم الواصل من نجاح صفقته، ثم نظر نحو الرسول وتمتم:

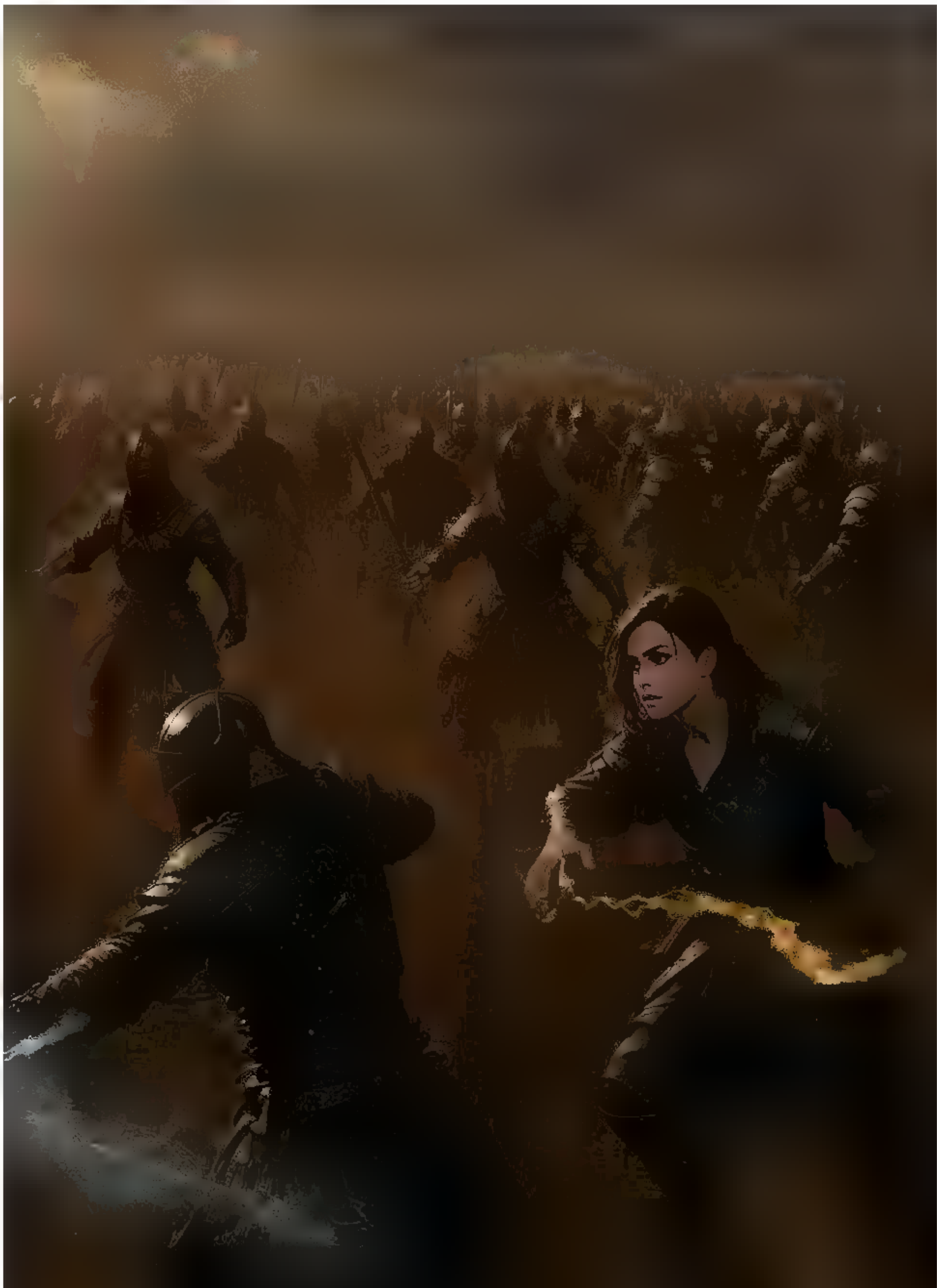
- بل جئت تحمل إلينا الذل والعار.

وفجأة رفع قبضته الضخمة عاليًا وهتف: النصر للأباطرة.

ثم قطع رأس الرسول معلنًا بذلك اندلاع الحرب!!

اشتبك الجيشان في ملحمة كبرى كانت تعني لكلا الطرفين البقاء أو الفناء، لم يشارك الملك طاغين في القتال وظل متحصنًا خلف جوقة من خيرة ساحرائه المقاتلات يراقب بثقة أحداث سير المعركة، بينما كان جبار في الطرف الآخر يحارب بكل ما يستطيع من قوة .. أبلت تاج وتارا بلاء حسنًا هذه المرة أيضًا كثنائي لا يُقهر في القتال جنبًا إلى جنب، أما عاصف فإنه كان يحارب بكل بسالة وهو يشق طريقه نحو الأمام متجهًا لقلب جيش العدو.

كانت المعركة تسير بشكل غير متكافئ تقريبًا - بل غير متكافئ بشكل نهائي - فقد كانت الكفة ترجح دائمًا لمصلحة طاغين وحلفائه من الممالك المجاورة - فبالإضافة للقوة الكاسحة - كان تعداد جيشه كبيرًا جدًا للحد الذي قد يهجم فيه أحيانًا عشرة من جنوده أو أكثر، على فرد واحد فقط من مقاتلي جيش الأباطرة.





رغم الهزيمة الساحقة التي كانت ستلحق بعاصف وحلفائه الأباطرة عاجلاً أم آجلاً إلا أنهم لم يستسلموا وواصلوا القتال بكل شجاعة.. لاحظ جبار حفيده المتهور وهو يقاتل شاقاً طريقه لقلب جيش الخصم فعرف الخطة التي يُفكر بها .. زحف مقترباً منه وصاح عليه قائلاً:

- إلى أين تخال نفسك ذاهباً أيها المتهور؟!

قال عاصف وهو مستمر في القتال:

- لإنهاء هذه الحرب!!

- وكيف ستقوم بإنهائها؟!

- بقتل طاغين!!

- وهل تظن أن قتله سيكون بهذه البساطة؟!

- لا أعرف ولكنني سأخبرك بعد أن أجرب!!

- هل ترى الساحرات اللائي يصطففن حوله؟! إن أضعف ساحرة منهن تستطيع هزيمتك بسهولة!!

- يجب أن يقوم أحدنا بقتله لأننا إن لم نفعل سنهلك جميعاً!!

اقتربت منهما خيزران قاطعة عليهما الجدال لتنقل إليهما تقرير سير المعركة:

- بدأ جيش طاغين يطوقنا من الجهة اليمنى!!

- مصيبة - قال جبار - لو استطاع جيشه تطويقنا فستكون هزيمتنا

ساحقة!!

سأل عاصف الذي لم تكن لديه خبرة في إدارة المعارك:

- ماذا تقترحين أن نفعل يا خيزران؟!

- يجب أن نجد طريقة لنكسر بها ذلك الطوق قبل أن يتمدد ويلتف

على كامل جيشنا!!

صحيح أن جبار كان يقاتل بشراسة منذ بداية المعركة غير أنه أيضًا كان يحاول أن يُبقي نفسه آمنًا قدر المستطاع وذلك لكي يصبح في مقدوره استلام الفلك في حال حدثت المعجزة وانتصروا .. ولكنه الآن يدرك أن الهزيمة ستلحق بأفراد عائلته إن لم يتصرف بسرعة وينقذ الموقف، نظر نحو خيزران وقال:

- احمي ظهري!!

- ماذا ستفعل؟!

- سأكسر الطوق قبل أن يتمدد

- هذه ليست فكرة جيدة يا سيدي

- لو لم أفعّلها فسيموت الجميع ولن ينجو منا أحد!!

- في جميع الأحوال سنموت جميعًا .. فلتبقى أنت لآخر المعركة

- لكي أموت مرتين؟!.. مرة بالحزن على موت الجميع ومرة على يد

طاغين؟!

كادت خيزران تقول شيئًا ولكن جبار أسكتها:

- إنه آخر طلب أطلبه منك احمي ظهري!!

قال ذلك ثم ركل خاصرة حصان حربه المجنح بكعبي قدميه، وانطلق نحو ذراع الطوق الأيمن لجيش العدو.. وما هي إلا لحظات حتى نجح وحده في إيقاف زحفهم عن التقدم وجعل يُجندلهم واحدًا تلو الآخر انتبعت تاج لذلك فلم تصدق:

- ما الذي يفعله جبار هناك؟!

قالت خيزران كما لتخلي مسؤوليتها: لقد حاولت منعه...

- يجب أن نخرجه - تمتعت تاج بينها وبين نفسها ثم نظرت نحو تارا و هتفت: استعدي سوف نقدم المساعدة لجبار!!

- لا - قالت تارا بشكل قاطع - يجب علينا أن لا نترك أماكننا فبهذه الطريقة سوف تعم الفوضى ويجد الأعداء ثغرة في قلب جيشنا ليهجموا علينا من خلالها!!

- فليذهب جيشنا للبراز المهم هو أن لا يموت جبار!!

فقالت خيزران متدخلة: التزمي بمكانك يا تاج!!

- هل وصل بك الحمق لتصدري لي أمراً يا خيزران، هل نسيتي من أنا؟!

- لم أنس ولكن أتمنى أن لا تنسي أنت أيضاً أن سلامة الجيش وأفراده مسؤوليتي!!

- ولماذا لم تمنعي جبار من الذهاب إلى هناك؟!

- لقد عصي أمري وذهب!!

- تفرجي علي إذا وأنا أعصي أمرك وأذهب..

كادت تاج أن تذهب ولكن تارا أوقفتها:

- لن يكون جبار مسرورًا وهو يراك إلى جانبه!!

- ولكنه سيموت إن لم نقدم له المساعدة!!

- لقد اختار مصيره...

قال عاصف متدخلًا:

- أنا سأذهب ..

- لا - منعته خيزران - سقوطك أنت وسيدي جبار في وقت واحد

يعني سقوط الجيش بأكمله!!

لم يتمكن أحد من الذهاب لمساندة جبار وبقي وحيدًا يصد بمهارة عالية كل من يحاول الوقوف بوجهه .. قتل الكثير - الكثير - منهم حتى إن جرمي وزير حرب الملك طاغين لم يتمكن من الصمود أمامه لدقائق معدودة، وهو الذي كان يُعد واحدًا من أشد المقاتلين بأسًا وقوة.. وعندما طفح الكيل وأصبح وجود جبار هناك يُشكل عائقًا حقيقيًا فإن الملك طاغين قام باستدعاء عميدة قرية الساحرات شواهر وقال:

- جبار لن يموت إلا غدًا.

أومأت له الساحرة شواهر برأسها وذهبت.



كان الجميع منشغلين بالقتال حين سمعوا صيحة كانت تشبه صيحة النفخ في الصور وعندما التفتوا نحو مصدرها شاهدوا جبار وقد اخترق ظهره رمح طويل مُسنن أسود اللون يشتعل رأسه بلهب بنفسجي وقد نفذ من الجهة الأخرى لجسده.. وبالرغم من أن تلك الضربة كانت القاضية إلا أنه لم يسقط وظل يحارب بعدها أيضًا، غير أنه كان من الواضح جدًا للجميع بأن دفاعاته انخفضت لحد كبير، وبأنه لن يصمد كثيرًا حتى يسقط وينتهي!!

كان الموقف حرجًا للغاية ويتطلب تدخلًا سريعًا لرفع وتحسين الروح المعنوية لمقاتلي الأباطرة، فمنظر كبيرهم جبار وذلك الرمح السحري مغروس في جسده قد نجح في بث الرعب بقلوبهم واحباط معنوياتهم القتالية، حتى إن تاج - وهي تاج - لم تفعل شيئًا عدا أنها اكتفت بالسقوط أرضًا على ركبتيها من هول الفاجعة وتمتت منهارة:

- جبار؟! -

الوحيد الذي لم يقف مكتوف اليدين هو عاصف فقد قذف بنفسه بكل تهور للمكان الذي يقف فيه جده من غير أن يحسب حسابًا للعواقب، تكالب الأعداء عليه ولكنه استطاع باستخدام الحقد المتفجر في قلبه أن يقف في وجههم لبعض الوقت متحدثًا.

سأله جبار بصوت مُرهق: ما الذي جاء بك أيها المتهور

- جئت كي أخرجك من هنا!!

- اتركني واذهب، أستطيع أن أحمي ظهرك لبعض الوقت هيا!!

قال عاصف بعناد: لن أترك لهم شرف قتلك...

تلفتت الوزيرة خيزران حولها وكأنها تبحث عن حل لإخراجها من هناك ثم هتفت مناديه: أيتها الشيطانة روزانا!!

جاءت الشيطانة تلبى النداء، قالت الوزيرة خيزران تأمرها:

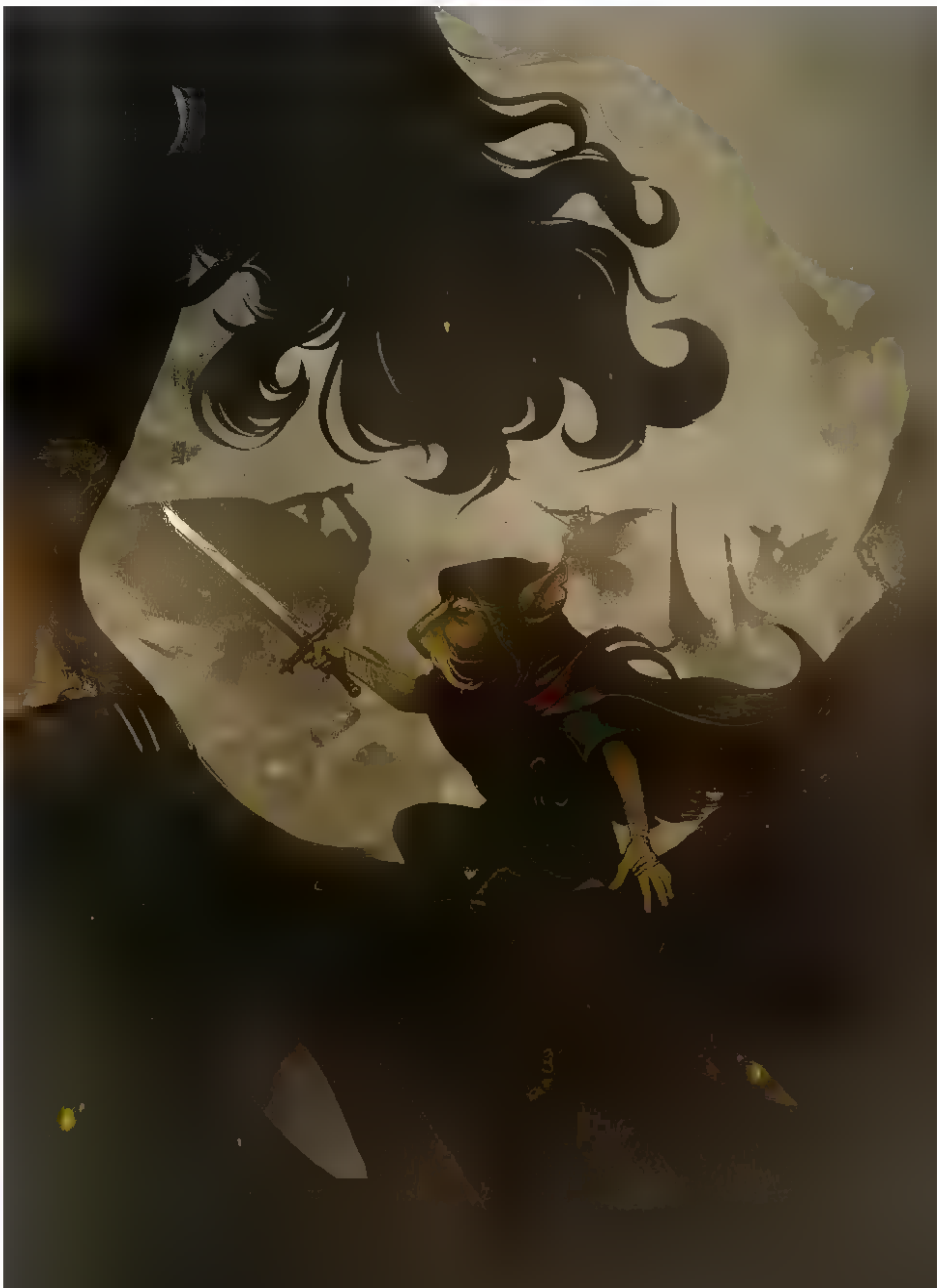
- اذهبي لتأمين خروج آمن لعاصف وسيدك جبار.

- أمرك

قفزت الشيطانة لحزام الموت من أجل محاولة تأمين الخروج الآمن لهما وفعلاً نجحت الخطة لحد كبير، فقد تمكنت روزانا من مشاغلة الأعداء لبعض الوقت ريثما يقوم عاصف بإخراج جده المصاب من تلك المنطقة ولكن قبل أن تكتمل خطة الخروج الآمن وبشكل نهائي أمسكت الساحرة شواهر رمحاً سحرياً آخر كان رأسه مشتعلًا بنار بنفسجية وبدأت في تصويبه نحو هدفها الثاني .. انتبهت إليها الوزيرة خيزران ولكنها لم تتمكن من صنع شيء فقد كانت هي الأخرى منشغلة في صد تقدم الأعداء، وكل ما استطاعت فعله في تلك اللحظة هو أن تتمنى من كل قلبها أن يحدث شيء - أي شيء - يمنع ذلك الرمح من إصابة عاصف .. أرجعت شواهر يدها الممسكة بالرمح للوراء بقدر ما تستطيع حتى يكون اندفاعه قاتلاً ... أغمضت عينًا وصوبت بالعين الأخرى على الهدف، أخذت نفساً عميقاً بواسطة أنفها الكبير ثم وقبل أن تقذف الرمح ذاك باتجاه عاصف حدث شيء ما لم يكن أحد يتوقع حدوثه.

فقد اندلعت فجأة من السماء نار حارقة قضت دفعة واحدة على
الساحرة شواهر.. نظر الجميع لمصدر اللهب فشاهدوا طائرًا ضخماً
أحمر اللون له جناحان طويلان وذيل يشبه ذيل الطاووس، وكان
يستريح على متنه فأر له لحية طويلة تشبه لحية عنز فحل:

- يا سلام رائحة شواء لذيذ - قال الحكيم وهو يستنشق رائحة
الحريق المنبعثة من جسد الساحرة شواهر المتفحم والملقى أرضاً،
ثم أضاف وهو ينظر نحو الجثث التي ملأت ساحة المعركة:
- يبدو أننا تأخرنا كثيراً..







صحيح أن عاصف كان مفجوعًا بسبب الإصابة التي تعرض لها جده ولكنه لم يستطع منع نفسه من أن يبتسم عندما شاهد أخيرًا صديقيه إكليل والحكيم واطمان إلى أنهما بخير، كما أنه لم يستطع أيضًا إخفاء انبهاره عندما نظر للبعيد وشاهد قبائل القناطير التي تغطي بأعدادها الضخمة مغرب السماء ومشرقها وهم يحلقون بأجنحتهم خلف أميرتهم آشاس في استعراض عسكري مهيب!!

انشق أحد القناطير عن السرب وراح يحلق مقتربًا من النقطة التي يقف فيها عاصف ثم وبعد قليل تبين بأن هناك كائنًا بشريًا أسود اللون يجلس على متنه .. ورغم أن البشري ذاك كان ضخما مثل غول إلا أنه بدا ضئيلاً جدًا وهو يستريح فوق جذع القنطور..

ابتسم أيوب كاشفًا عن أسنان ناصعة البياض بينها من واحدة ذهبية اللون وقال:

- لا تزالين حمقاء أيتها القملة الصغيرة المزعجة!!

فقال عاصف بامتنان ودموع الفرح تتسلق حباله الصوتية:

- لقد تأخرت وخفت أن لا تأتي!!

قال قبل أن يذهب ليأخذ مكانه في المعركة:

- الرجل الأسود لا يتخلى عن صديقه يا ولد..

أحدثت تلك التعزيزات فرقًا كبيرًا في ميزان المعركة فقد بدأت قوات الملك طاغين وحلفائه تنحسر وتراجع للوراء بعد أن كانت تزحف متقدمة نحو الأمام من غير أن يستطيع أحد إيقافها، هتف عاصف يحادث الحكيم الذي كان يجلس على متن إكليل:

- أريدك أن تذهب للبقاء بجوار سراي

- لن أذهب لمكان سأبقى لأحارب معك!!

- ولكنك لن تستطيع فعل شيء هنا فأنت لست إلا ف....

صمت مستدرًا فداحة خطئه فقفز الحكيم من فوق ظهر إكليل واستقر على كتف عاصف وهمس: سيكون من دواعي سروري أن أخبرك لاحقًا في أي مكان من جسدك سيدخل هذا الفأر أيها الأبله!!

- لم أكن أقصد - قال معتذرًا - لا تغضب مني..

- هذا ليس وقتًا أغضب فيه منك - وأضاف: سأبقى لأقاتل معك

- ولكنك لن تستطيع بجسدك هذا أن تفعل شيئًا!!

- على الأقل أستطيع أن أكون عينيك الخلفيتين..

شيئًا فشيئًا بدأ حلفاء الملك طاغين في الانسحاب من أرض المعركة عندما بدأوا يدركون الخسارة، وربما هذه الثغرات التي تسبب فيها انسحاب الحلفاء هي ما ساعدت الأباطرة ومقاتلي قبائل الأشاوس على تطويق جيش الأعداء وضربهم في وقت واحد ومن جميع الاتجاهات .. لم يمض الكثير حتى باتت الهزيمة وشيكة على طاغين خصوصًا بعد أن انسحب حلفاءه ومات أكثر من نصف تعداد جيشه وانخفضت معنويات النصف الآخر لمستويات متدنية، ثم وعندما أصبحت الهزيمة شيئًا لا مفر منه فإنه أعطى أمرًا لجوقة ساحراته بأن يأخذنه بعيدا عن ساحة القتال.

وبعد أن بات النصر أكيدًا لعاصف وحلفائه رأت تاج أن مغادرتها موقعها لن تؤثر كثيرًا على سير المعركة وهكذا فإنها انسحبت تدريجيًا من هناك ذاهبة لمكان آخر، وكانت في انسحابها حريصة كل الحرص على أن لا ينتبه إليها أحد، وفعلا لم ينتبه إليها أحد - أو هكذا ظنت هي - غير أنها بالتأكيد كانت مخطئة في ظنونها فبعد أن غادرت أرض المعركة، زحفت تارا نحو الموقع الذي كان يقاتل فيه عاصف، وقالت لحادثه:

- أريدك في أمر مهم..

- تكلمي

- ليس هنا - وأضافت بعثبات: فلنذهب لمكان آمن.

تقهقر عاصف والحكيم وإكليل من مواقعهم وذهبوا خلفها ...

سأل عاصف: ماذا هناك؟!

- لماذا جاءا معك؟! - قالت وهي تنظر باتجاه الحكيم وإكليل ثم

أردفت: أريدك على انفراد.

قال عاصف:

- تكلمي ليس هنالك أحد غريب أنا لا أخبئ عنهما شيئًا.

قالت تارا بنبرة تشي باقتراب مصيبة: تاج يا عاصف!!

- ما بها؟!

صمتت قليلًا وامتد صمتها ذاك أكثر من الحد المسموح به في مثل هذه المواقف، كانت تنظر طوال الوقت لعيني عاصف البندقيتي

اللون كما لو أنها تحاول معرفة إذا ما كان الوقت سيكون مناسبًا لأن تقول له السر الذي ائتمنتها عليه صديقتها جومانا أم لا.

- أسمعك - قال بنفاد صبر - ما بها تاج تكلمي؟!

قالت تارا أخيرًا: منذ وقت طويل .. طويل جدًا .. كان هناك طفل صغير وأم تحبه... تحبه جدًا، كانا يعيشان في كوخ بعيد.. بعيد جدًا، ذات يوم رحلت تلك الأم عن ابنها الصغير وتركت له عند صديقتها سراً خطير، خطيرا جدًا.

ثم تساءلت: ألا تعني لك هذه الأحجية شيئًا؟!

تذكر عاصف تلك الكلمات التي قالتها له أمه في الليلة ذاتها التي ماتت فيها وقال:

- أذكرها ولكن كيف وصلت لك وكيف عرفتِ بشأنها؟!

- أنا هي الصديقة التي تركت أمك عندها ذلك السر الخطير جدًا..

- ماذا تعنين؟!

وهنا قالت تارا:

- لقد حان الوقت يا عاصف لتعرف كل شيء.

ذهبت تاج نحو البيت الذي تختبئ فيه سراي،

اتجهت نحو أحد الغرف .. كان هناك لحاف مفروش فوق شيء ما، أزال تاج ذلك اللحاف فوجدتها - وجدت سراي - مكومة حول نفسها تحته مثل قنفذ، وتنظر إليها بعينين ممتلئتين بالرجاء والخوف:

- هل انتهت الحرب - سألت سراي - هل عاصف بخير؟!

- لن يكون بخير إلا إذا اختفيت أنت.

- ما الذي تعنيه؟!

- يجب أن يتزوج عاصف من إحدى فتيات الأباطرة حتى يصح الخطأ الذي اقترفته والدته قبل سنين طويلة، ووجودك على وجه هذه الأرض سيمنع ذلك!!

- إنه يحبني

- ومن أجل ذلك يجب أن تختفي من الحياة

- ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً فعاصف سيظل يحبني حتى بعد أن أموت!!

- القليل من الوقت كفيلاً بأن يجعله ينساك نهائياً صدقيني

- لا - قالت غير مصدقة - أنت لا تعرفين عاصف!!

نظرت تاج بعين الشفقة نحوها وقالت كمن يعطف على مسكين:

- يبدو أنك أنت التي لا تعرفين الرجال يا عزيزتي، دعيني أخبرك بمعلومة صغيرة عنهم .. إنهم مخلوقات أنانية لا يحبون إلا أنفسهم، فبعد أن تموتي لن يظل عاصف حزينًا عليك طويلًا بل سيقع في حب أول امرأة تفتح له قلبها فهكذا هم الرجال لا شيء ينسيهم فتاة أحبوها، إلا فتاة أخرى يقعون في حبها.

- كذب!!

اقتربت تاج منها بخطوات تشي بشر وهي تقول:

- للأسف لن تعيشي طويلًا حتى تختبري تلك الحقيقة بنفسك!!

أحكمت سرابي الفطاء على نفسها وكأنها تتخذ من الفطاء درعًا تحتمي به، أغمضت عينيها وانتظرت حدوث المعجزة .. تقدمت تاج منها أكثر، أخرجت من جيبها خنجرًا حادًا سرقة من أحد فرسان المنظمة، عندما كانت تقاتل في أرض المعركة فقد كانت تريد أن يبدو مقتل سرابي وكأنه تم بواسطة أحد فرسان الجاثوم .. رفعت الخنجر عاليًا ثم وقبل أن تغرسه في جسدها حدثت المعجزة، إذ حطمت تارا باب الغرفة وزحفت بسرعة بالغة حتى وقفت بوجه تاج:

- توقف.

صرخت عليها تاج: ما الذي جاء بك؟!

- لأمنعك عن قتل المزيد من الأشخاص الخطأ!!

وجهت تاج الخنجر نحوها وقالت:

- سأقتلك إن كان هذا ما ينقص خطتي لكي تنجح!!

- أعرف أنك ستفعلين أي شيء لإنجاح خطتك - قالت تارا ثم
أضافت: أليس لهذا السبب بالذات قمتي بقتل بحر وقمتي من قبل
بقتل ابنتك جومانا؟!

قالت تاج ببرود مصطنع: لا لم أقتل ابنتي جومانا.

- بلى فعلت!! .. لقد كنت تعرفين أنه لا سبيل لك لأخذ الولد إلا
بعد أن تتخلصي من أمه!! كنت تعرفين أنه هو الوحيد الذي قد
ينجح بتحقيق أهدافك بالقضاء على أخيك طاغين، وإثبات أنك
لست متآمرة معه للانقلاب ضد عرش الأباطرة وبالتالي تستطيعين
استعادة مكانتك في قلب زوجك جبارا!!

- لا - نفت تاج - هذا ليس صحيحًا!!

- أنتِ تعرفين أن ما أقوله صحيح - أصرت تارا - قوة الجن
اللانهاية والعقل البشري محكم الصنع، هذا هو الشيء الأخير الذي
كان ينقصك لاكتمال الخطة!!

- من الذي حشا رأسك بهذه التخاريف؟!

- غطيت جسد حفيدك برماد العنقاء وهو لا يزال في غيبوبته،
وأنت تعلمين أن ذلك الأمر كان يمكن أن يكون كفيلاً لقتله ولكنك لم
تبال بذلك، هذا لأنك يا تاج لا تهتمين إلا بمصالحك الخاصة!!

- ما تقولينه سخافات لا أساس لها من الصحة.

أكملت تارا متجاهلة ذلك الإنكار:

- كنت طوال الوقت تخدعين عاصف تقولين له بأن ناب الفيل هو

من قتل أمه, وكنت طوال الوقت أيضًا تحاولين منعه من الوقوع في الحب, وكل ما فعلته أنت منذ البداية حتى الآن لم يكن إلا بدافع حبك لجبارا!!

- ألا يحق لي أن أثبت لزوجي بأنني لم أساعد في الانقلاب على عرشه؟! ألا يحق لي أن أثبت براءتي؟!

- بلى يحق لك بالطبع, ولكنك تجاوزت حدودك كثيرا!!

- لست أنت من ترسمين الحدود لي يا تارا!!

- لماذا تصرين على قتل الفتاة والتسبب لعاصف بصدمة لن يُشفى منها طوال عمره؟!

- إنه أحق لا يعرف مصلحة نفسه

- دعيه يختار ما يراه مناسبًا.

- يجب أن يصحح خطأ والدته!!

قالت سرابي متدخلة:

- ولماذا يتوجب عليه تصحيح خطأ لم يقم هو بارتكابه؟!

أجابت تارا قاطعة على تاج الحق في الرد:

- ليس هذا هو السبب الوحيد الذي تريد قتلك من أجله يا سرابي.

تساءلت سرابي وهي تنظر نحو عيني تارا بفضول وبراعة:

- هناك سبب آخر؟!

- لأنك الوحيدة التي كنت شاهدة عليها وهي تقتل بحر - ثم

أضافت: وفي الحقيقة كانت تاج تريد قتلك في ساحة البيت الداخلية بتلك اللحظة، ولكنها تعلم بأن ذلك الشيء كان من الممكن التسبب في انهيار حفيدها عاصف مما قد يجعله يقوم بإلغاء الحرب بأكملها فقررت تأجيل التخلص منك لوقت آخر..

صاحت سراي بحقد: أنتِ قاتلة يا تاج، قاتلة!!

- اخرسي - أسكتتها تاج وقالت تتوعدّها: سيأتي دورك في الموت أيتها البشرية القذرة ولكن بعد أن أنتهي من القضاء على هذه الأفعى التي تحب دائماً إدخال نفسها في الشؤون التي لا تخصها!!

فقلت تارا بمبات:

- أنا هنا بأمر من جومانا!!

أثارت تلك الكلمة اندهاش تاج فسألت:

- ماذا تعنين بأنك هنا بأمر من جومانا؟!

صمتت تارا قليلاً قبل أن تقول:

- ألا تريدان أن تعرفي لماذا قمث بالذهاب للقاء جومانا قبل موتها

في تلك الليلة؟! صمتت تاج ولكن عينيها صاحت: أخبريني!!

- ذهبث تلك الليلة لأخبرها أنك وضعتي لها السم في الجرة..

فأخبرتني جومانا بأنها ستشرب منها!!

- تساءلت تاج بذهول: ما الذي تقولينه أنت؟!

قالت تارا ثميط اللثام عن النصف الأول للحقيقة:

- لقد ماتت جومانا وهي تعرف أنك من وضع سمي لها في الجرة...
- أنت تكذبين!!

- انظري إلى عيني يا تاج أنت تعرفين أنني أقول الحقيقة!!
- لماذا شربت من الجرة إذا إن كانت تعرف بأنها ستموت؟!
- لكي تحمي ابنها .. كانت تعرف أنك قد تفعلين أي شيء متهور
لكي تأخذي الطفل منها وكانت تخاف من أن تواصل منعك من أخذه
فيدفعك اليأس في نهاية المطاف للتخلص منها ومنه معًا.
- كذب - قالت تاج - هذا كذب!!

ثم كشفت تارا عن النصف الآخر للحقيقة عن - الأحجية - التي
قامت جومانا بتلقيها لابنها قبل موتها بلحظات على شكل قصة
قصيرة غير مكتملة الأركان وأخبرته بأنه في يوم من الأيام سيكمل
الجزء الناقص منها ويصنع نهايتها بنفسه:

- هل تريدان أن تعرفي ماذا أوصتني جومانا قبل أن تموت؟!
سألت لاهئة: ماذا؟!

- أوصتني بأن أنتظر ابنها حتى يكبر ويشهد عوده ويصبح قويًا ثم
أخبره في الوقت المناسب بالحقيقة حتى يأخذ بثأره - قالت تارا ثم
أردفت:

- ولكن هذه المرة يأخذ بثأره من الشخص الصحيح، والذي هو
أنت!!

صاحت تاج وهي ثرخي دفاعاتها تمامًا وتستعد للهجوم عليها:

- سأقتلك قبل أن تخبريه!!

- لقد أخبرتني بكل شيء وانتهى الأمر وها أنا اليوم أصنع نهاية القصة بنفسى!!

قال عاصف ذلك وهو يطعن جدته تاج من الخلف بمخالب يقطر من نهاياتها سم تارا ويضيف قائلاً: «هذه من أجلك يا جوماننا» ثم طعنها بمخالب يده الثانية والتي كان أيضاً يقطر من نهاياتها السم: «وهذه من أجلك يا بحر» .. سقطت تاج على ركبتيها وهي تلتفت نحو حفيدها بذهول، انحنى عاصف عليها وهمس في أذنها قائلاً:

- قلت لك ذات مرة بأنه لا يكفي أن توقفيني، بل يجب عليك التخلص منى وإلا فسأقتلك يوماً!!

نظرت إليه تاج بصمت سحيق كان أبلغ من ألف كلمة عتاب:

- آآآه يا جدتي - تتم بصوت خفيض - علمتيني كل شيء .. كل شيء .. إلا شيئاً واحداً مهماً وهو أن أشد الطعنات ألماً لا تأتي إلا من أقرب الأشخاص إلينا، تخيلي أنني كنت طوال الوقت أطارد ثأراً مزيماً ولم أكن أعرف أن دمك هو ثأري الحقيقي، اذهبي إلى الجحيم ولا تنسي أن تحجزي مكاناً إضافياً هناك لتستقبلي فيه أخاك طاغين، عندما أنتهي من حربي وأرسله مكللاً بالهزائم إليك!!

قالت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة:

- ويلك من جبار

- لا تقلقي.. فهو من أعطاني الأمر بقتلك.

وبعد أن ماتت تاج بلحظات صرخ الحكيم بصوت عالٍ متألِّقا وكأن شيئًا ما حادًا كان يقطع أجزائه ويمزقها .. سقط أرضًا لفرط الوجع الذي يشعر به، ثم فجأة بدأت لحيته التي تشبه لحية عنز فحل ووبر جسده في التساقط شيئًا فشيئًا .. أحس الجميع بالقلق عليه ولم يعودوا يعرفوا ما الذي يحصل له أو ما الذي يستطيعون فعله من أجله، قال متوجعًا:

- لقد ماتت تاج من غير أن تلغي التعويذة ويبدو أنني سأموت معها!!

تدخلت تارا بقلق:

- كان يجب علينا فك التعويذة عنه قبل أن نقوم بقتلها يا عاصف!!

- لا تمت - صاح عاصف وهو يشعر بالذنب - إياك أن تموت!!

قال الحكيم: سامحني على كل مرة كدت أن أخذك فيها..

وعاصف يعض شفتيه ويغالب دموعه: أسامحك بالتأكيد..

والحكيم ينظر نحو إكليل:

- وأنت سامحني على كل كلمة جرحتك فيها بلساني أيها الأبله..

إكليل وهو يكشف للتو مدى حبه للحكيم: أسامحك!!

ثم نظر نحو سراي: أنت أيضًا سامحيني فقد كنت طوال الوقت

أتخيلك في رأسي ترقصين لي، وتقولين ما رأيك برقصي أيها

الحكيم - وحين لاحظ ردة فعلها التي تدل على أنها غير راضية فإنه

قال: سامحيني فأنت لا تعرفين إلى أي مدى قد أصبح فيه عقول

الرجال فاسدة أحيانًا!!

قالت:

- أسامحك

- فلتسامحوني، ولتسامحني السماء وترأف بحالي!!

قال ذلك ثم أغمض عينيه وتوقف صدره عن الحركة .. نظر إليه الجميع بحزن بالغ لقد فقدوا صديقًا عزيزًا عليهم وشخصًا طيب القلب رغم بذاءة لسانه: «الوداع أيها الحكيم - قالوا جميعًا» ثم ما هي إلا لحظات قليلة بعد ذلك حتى جاءت سحابة بيضاء تشبه رغوة حليب ساخن غطت جسد الفأر الممدد وبدأت تلك السحابة في التوسع والتضخم والاستطالة حتى إنها أصبحت تغطي نصف مساحة الغرفة، وعندما بدأت تلك السحابة أخيرًا في الانقشاع ظهر لهم جسد رجل بشري طويل ونحيل مثل ساق قصب سكر لديه شعر منفوش غير مصفف يجعل منظره العام أشبه بمكنسة أوساخ.. ولديه لحية تشبه لحية عنز فحل، وكان شاربه الحليق هو الأمر الذي أكسب أنفه بروزًا متقدمًا.

قالت تارا مندهشة:

- لقد زالت عنه التعويذة!!

همس عاصف: أيها الحكيم هل تسمعي؟!

رمش بعينه لعدة مرات قبل أن يفتحهما غير مصدق بأنه لا يزال حيًا نظر إلى يديه وأطراف جسده البشري، تحسس وجهه بأنامله كما لو أنه يريد التأكد أكثر من أن التعويذة اختفت عنه وأنه لم يكن

يحلم في تلك اللحظة ثم هتف:

- لقد عاد جسدي!!

لم يهتم الحكيم لجسده العاري والذي بات منظره يشبه جسد
سلحفاة عجوز خرجت للتو من صدفتها، بل راح يرقص سعيدًا في
الغرفة محتفلًا بإلغاء التعويذة أما عاصف وسرابي وإكيل فإنهم من
شدة الفرح جعلوا يشاركونه الرقص احتفالًا بعودته للحياة!!

انتهت الحرب أخيرًا بانتصار عاصف وحلفائه ولم يتبقّ عليهم فقط غير اقتحام قصر مملكة أبايل، وخلع الملك المتحصن بساحراته المقاتلات في الداخل .. وعلى الرغم من هيئة جبار التي أصبحت قريبة من هيئة شخص ميت، والمنظر المخيف للرمح الذي كان لا يزال مخترقًا جسده ويشعل رأسه بنار بنفسجية، إلا أنه أصر على الوقوف حتى آخر لحظة والمشاركة في اقتحام القصر مع المقاتلين..
اعترض عاصف:

- يجب أن ترتاح يا جدي!!

- هل ظننت أنني سرايبي حتى تأمرني فأطيع أمرك؟! - قال جبار مداعبًا ثم أضاف بصوت جاد: لقد شاركت معك في بدء هذه الحرب وسأقوم بمشاركتك في إنهاؤها!! ممتطين صهوات خيول الحرب الفُجّنة الضخمة اجتاز عاصف وحلفاؤه البحر متجهين نحو جزيرة الأرباب حيث المكان الذي ينتصب فيه قصر مملكة أبايل... حاوطت القوات القصر من جميع الجهات غير مكترئين بالساحرات اللائي كن يربضن فوق الأسوار العالية الارتفاع لقتل أي شخص يخطو نحو القصر خطوة واحدة.

صاح عاصف وهو يلتفت نحو الحلفاء: أريد طاغين حيًا!!

فصاحت بعده الأميرة أشاس لأتباعها الذين لا يطيعون غيرها:

- ابن صديقنا بحر يريد طاغين حيًا!!

وعندما تأكد من أن تعليماته وصلت لجميع أفراد الجيش فإنه رفع

يده عاليًا ثم أشار بها نحو القصر معلنًا بدء عملية الاقتحام.. استطاع حلفاؤه دخول القصر بسرعة ومن غير سقوط ضحية واحدة رغم المقاومة الشرسة التي أبدتها الساحرات ضدهم.. ثم وفي غضون وقت قصير استطاع نفر من القناطير إلقاء القبض على طاغين وإحضاره حيًا...

وفي الساحة الخارجية الفسيحة الممتدة أمام قصر مملكة أبابيل والتي قام فيها طاغين سابقًا بإعدام أعيان قرية الجساسة عندما جاؤوا إليه بقيادة شيخهم همام.. ركع الملك المخلوع تحت قدمي عاصف مهزومًا ذليلاً مهان، فنظر الجميع نحو عاصف في انتظار أن يقوم بقتله معلنًا بذلك انتهاء الحرب.. وفعلا كاد عاصف أن يقتله ولكن طاغين همس قائلاً:

- إن فعلتها فإنك لن تعرف مكان صديقك الشمالي..

- هل الشمالي لا يزال حيًا؟!!

- وهل كنت تظن أنني قد أحرق ورقتي الأخيرة بهذه السهولة؟!

- أخبرني أين هو؟!

- أخبرني أنت أولاً ما الذي قد تدفعه لي مقابل ذلك؟!

- أي شيء - ثم أضاف مترددًا: ولكن إياك أن تفكر بالحياة!!

- لن تعرف مكانه قبل أن تعطيني وعدًا بالحياة

صاح عليه وهو يهزه من ثيابه:

- لقد طلبت ثمنًا باهظًا ..

- وصديقك الشمالي يستحق هذا الثمن - ثم أضاف:

- ما رأيك يا ابن جوماننا حياة مقابل حياة أليس هذا عادلاً؟!

بدا عاصف أنه كان يفكر في الأمر بجدية الشيء الذي لم يعجب
أبدًا جده جبار، فقال بحزم:

- اقتله!!

أشار عاصف بيده نحو أصدقائه - إكليل والحكيم وسرابي - ثم
قال:

- لو قمت بقتله يا جدي فإن هؤلاء لن يسامحوني أبدًا!!

- أتتركه حيا بعد الذي فعله بنا؟!

- أعرف أنه ضرب من الجنون - تتمم بشرود - وأننا في هذه الحرب
خسرنا الكثير بسببه، ولكن حتى أجد صديقي الشمالي فأنا لا أملك
حلًا آخر غير أن أدفع لطاغين ما يريد..

تدخلت الوزيرة خيزران:

- لماذا لا نبحث عن صديقك بأنفسنا؟!

- لن تجدوه - قال طاغين متدخلًا - ولو أن الحظ حالفكم
ووجدتموه بعد سنين طويلة فإنه سيكون حينها قد أصبح هيكلاً
عظيمًا ...

همس عاصف وهو ينظر نحو جده:

- نحن لا نملك خيارًا آخرًا!!

فقال جبار رافضًا تلك الفكرة وبصوت عالٍ:

- لن أسمح له بمغادرة هذا المكان حيًا!!

ثم تقدم نحو طاغين ليقتله غير أن عاصف وقف بوجه جده:

- إن حاولت قتله فإنك تحاول قتل الشمالي وهذا ما لن أسمح به!!

اصطف جيش الأباطرة خلف جبار في إعلان واضح وصريح لقيام حرب جديدة، فتحرك أيوب والأميرة آشاس وتحركت معها جميع قبائل الأشاوس مصطفىين خلف عاصف معلنين بذلك استعدادهم الكامل للوقوف معه.

قال جبار موجهًا كلامه للأميرة القناطير:

- هل ستقفين ضدنا يا آشاس؟!

- نحن لا ندين لكم بشيء - قالت الأميرة بنبرة صوت قوية ثم

تابعت: ولكننا ندين لبحر بالكثير ونحن لن نسمح لأحد أيًا كان بأذية ابنه..

تدخلت تارا في المنتصف بين الجيشين:

- هل ترضون بي حكمًا؟!

قال جبار بحصافة:

- لا أمانع فأنا أثق بحكمتك وعدلك...

سألت وهي تنظر نحو عاصف: وأنت؟!

لم يتكلم ولكنه أوماً لها برأسه موافقا.

كان تدخل تارا حكيماً فلو أنها لم تفعل ذلك لكانت الحرب اشتعلت بين الأباطرة وبين حفيدهم عاصف.. نظرت كوبرا الجن باتجاه جبار وقالت بنبرة صوت محايدة:

- فلتبدأ أنت!!

رغم إصابته إلا أنه تقدم متحدياً الجميع وتكلم برصانة تليق بمكانته:

- لقد أخذ طاغين العرش بالخيانة وأهاننا لزمان طويل، قتل الكثير من أفراد عائلتنا غدرًا وجعلنا طوال تلك السنين الفائزة نعاني انعدام الأمن والاستقرار...

يكفي أنه جعلنا نسكن الغابة كحيوانات مشردة تخاف كل يوم شباك الصياد، يكفي أنه جعلنا نسكن جوف الأرض كحشرات تخاف الموت دهسًا بالحذاء، إنه يستحق الموت بدون رحمة.

رددت الأباطرة خلف كبيرها:

- إنه يستحق الموت بدون رحمة!!

نظرت تارا نحو عاصف وقالت: حان دورك في الكلام.

بحقد قال عاصف: إن طاغين أخو تاج وهذا سبب كافٍ لقتله.

قالت تارا: إذا فأنت تريد قتله؟!

- بالطبع أريد؛ فبسببه عشت من غير أب وعاشت أُمي زمناً طويلاً من غير زوجها الذي تحبه.. ولكن هناك فرق بين الأشياء التي نريدها

والأشياء التي نستطيع أو لا نستطيع القيام بها - وأضاف موضحاً وهو يوزع نظره بالتساوي على الجميع:

- أنا أريد قتله ولكن لا أستطيع، لأنني إن قمت بذلك فهذا يعني أنني أقوم بقتل صديقي الشمالي .. لقد كان الاتفاق واضحاً منذ البداية يا جدي، أن أعطيك الفلّك مقابل مشاركتك الحرب معي، واليوم أعطيك الفلّك الذي وعدتك به أما طاغين فإنه لي أفعل به ما أشاء.

صمتت تارا تفكر في حجة الطرفين وكان الاثنان محقّقين في الكلام الذي قاله وربما جبار يكون هو الأقرب للصواب في كلامه؛ فطاغين يجب أن يموت ولكن ليس بسبب الأفعال التي اقترفها في الماضي فقط بل منعاً للكوارث التي قد يفعلها في المستقبل القادم من أجل استعادة الفلّك، غير أن تارا في الأخير لم تلتزم كامل الحياد في حكمها ومالت لابن صديقتها جوماننا حيث قالت بحزم:

- يأخذ جبار الفلّك، ويفعل عاصف بطاغين ما يشاء!!

بدا من ملامح جبار أنه لم يوافق على الأمر، فاستبقت الأميرة أشاس الأحداث قائلة:

- ويحك يا جبار لقد رضيت بتارا حكماً هل تريد مخالفة الحكم؟!

قال جبار مستعيزاً الكلام الذي قاله حفيده قبل قليل: هناك فرق بين الأشياء التي نريدها والأشياء التي نستطيع أو لا نستطيع القيام بها .. أنا أريد مخالفة الحكم ولكنني لا أستطيع .. ليس ضعفاً بل لأنني لم أعتد أن أقول كلاماً ثم أرجع فيه...

وهكذا نظر عاصف نحو طاغين وقال:

- أنا أعطيك وعدًا بالحياة مقابل أن تعيد لي صديقي الشمالي..

ابتسم طاغين ولمعت عيناه خبثًا وقال: « هذا هو العدل » ثم قادهم عبر الانفاق والسراديب والممرات السرية والتي قامت بحفرها له الساحرات - فيما مضى - باستخدام التعاويذ البالغة الخطورة والتي كانت بالتأكيد سوف تتسبب بمقتل أي شخص يحاول العبور منها دون أن يكون مُلَمًّا بالكماثن والفخاخ المزروعة فيها، توقف طاغين بهم أخيرًا أمام زنزانة ضيقة لا تتسع لأكثر من شخص واحد، حيث شاهدوا في منتصفها شابًا يجلس متربعا - كان هزيلًا يرتدي ثيابًا بيضاء واسعة متسخة وقد بدا عليه الجوع والعطش والإرهاق وبقايا من آثار تعذيب مبرح - ورغم ذلك إلا أنه كان هادئًا وهو يُغمض عينيه وابتسم بأمل كما لو أنه في تلك اللحظة كان يراقب ورده تتفتح.

همس الأصدقاء له:

- أيها الشمالي..

ابتسم وهو لا يزال مُغمضًا عينيه ثم قال شيئًا غريبًا: لقد وجدت الرب..

لم تدم فترة حكم الملك جبار كثيرًا .. فقد تدهورت حالته الصحية لمستويات منخفضة جدًا، وذلك بعد أن اجتمع أطباء الجن من أقاصي الأرض وقرروا إخضاعه لعملية جراحية طارئة يقومون فيها بنزع الرمح السحري الأسود ذي الرأس المشتعل بلهب بنفسجي من جسده.

في البداية اعترض الحكيم على ذلك القرار قائلاً بأنه قرأ في أحد الكتب القديمة كلامًا مفاده أن ذلك الرمح السحري لا يبدأ مفعوله إلا بعد أن يقوم أحدهم بانتزاعه من جسد المصاب به.. ولكن رئيس أطباء الجن وهو عفريت طاعن في السن اسمه نوار تصدى للحكيم:

- أنتم البشر تحبون حشر أنوفكم الطويلة في الأشياء التي لا تفقهون فيها.

لم يكن الوقت مناسبًا للرد.. لذلك نظر الحكيم نحو جبار وقال:

- لا تدعهم ينتزعون ذلك الرمح من جسدك - ثم أضاف بنبرة توسلية: أرجوك!!

قال رئيس أطباء الجن متدخلًا: هذا أمر لا يعنيك أيها البشري.

- سلامة الملك أمر يعني الجميع.

- اسمعني أيها الفضولي - قال نوار - مهما بلغت بك الأمور فإن سلامة الملك لن تهلك كما تهمنا، فنحن أبناء جنسه أما أنت لا واهتمامك كله مبني على المصلحة - ثم أضاف مؤكدًا: المصلحة

فقط.

سأل الحكيم ملتفتًا إليه: هل أنهيت كلامك؟!

- هو ذاك.

- إذا اسمعني أيها الجني الأبله لقد خضنا معًا في الأيام الماضية حربًا مستحيلة كدنا جميعنا نفقد أرواحنا فيها .. قاتلنا إلى جوار بعض بكل قوة حتى انتزعنا النصر من بين أنياب الهزيمة لقد حدث ذلك حين كنت والحمقى الذين معك تحكون مؤخراتكم في بيوتكم آمنين فلا تحاول أن تقنعني بأنك تهتم بشأن جبار أكثر مني!!

وعندما اشتد الحوار بينهما كان لزامًا على الملك أن يتدخل:

- دعهم أيها الحكيم - ثم تابع بصوت واهن:

- فلن أبقى طوال عمري أحمل هذا الرمح في جسدي.

- سوف نجد لك حلا ولكن دعنا ننتظر لبعض الوقت!!

تدخل نوار ساخرًا:

- تجد له حلًا في كتبكم القديمة التي لا تصلح لشيء؟!

- بل عند قبائل الأشاوس فقد وصلوا لمراحل متقدمة من العلم.....

قاطع جبار:

- انهم يعتبرون أنفسهم خارج حكمي وأنا لن أطلب منهم شيئًا.

صاح الحكيم عليه: هذا ليس وقت الكبرياء!!

قال رئيس أطباء الجن مبدئيًا استياءه:

- عجبني لا ينتهي كيف ترفع صوتك بوجه الملك؟!

نظر الحكيم نحو جبار محاولاً إقناعه:

- لن نخسر شيئاً لو أننا طلبنا منهم المساعدة!!

شعر الأطباء ومعهم رئيسهم بالإهانة فقالوا:

- نطلب من جلالتك أن تختار بيننا وبين هذا البشري الجاهل!!

فهمس جبار للحكيم بلطف:

- أشكر لك اهتمامك ولكن دعهم يفعلوا ما يرونه مناسباً ...

صاح الحكيم مقهوراً: إنهم أبقار لا يفهمون شيئاً يا جبار...

قاطعه الملك بحدة:

- أيها الحكيم أنت تنسى كثيراً من أكون..

قال وهو يخفض رأسه معتذراً: آسف

- لا بأس انصرف الآن ودعهم يكملوا عملهم..

تمتم الحكيم في أذن نؤار قبل أن ينصرف:

- سأقتلك بحذائي إن حدث شيء لجلالته ..

كان كبراء الأباطرة مجتمعين في مجلس الحكم عندما جاءهم رئيس أطباء الجن نؤار ليعلن لهم أنه سوف يبدأ هو وفريقه بإجراء عملية انتزاع الرمح.. طلبت منه الوزيرة خيزران الحضور معهم،

ولكن نوار أكد لها أن حضورها لن يكون ضروريًا وأنها قد تشاهد هناك أشياء سوف تتمنى لاحقًا لو أنها لم تشاهدها.

- ربما تكون محقًا - قالت خيزران وأضافت بحزن:

- فأنا لن أحتمل رؤية سيدي وهو بين الحياة والموت...

قال بأدب: هذا ما قصدته

تكلم أحد كُبراء عائلة الأباطرة وكان اسمه بُركام:

هل هناك ما نستطيع تقديمه لكي نضمن سلامة الملك؟

- الهدوء يا سيد بُركام - أجاب نوار بوجه خاشع - أطلب منكم ومن جميع الموجودين في القصر التزام الهدوء التام ريثما ننهي عملنا، فنحن في حاجة لأكبر قدر من التركيز ولا نريد لأي شيء أن يتسبب في تشتيت انتباهنا ...

فقالت الوزيرة خيزران وهي تنصرف:

- سأتكفل أنا بذلك..

أوقفها نوار قبل أن تذهب: أيتها الوزيرة

- ماذا هناك

قال بنبرة صادقة:

- تمنى لنا حظًا موفقًا.

أومأت له خيزران بحزن و قالت:

- ابذلوا كل ما تستطيعون

في إحدى القاعات الفسيحة للقصر الملكي والبعيدة جدًا عن احتمال حدوث أي صخب ممكن الوقوع، كان الملك جبار ممددًا فوق سرير مريح يتنفس بعمق هواء مملكة أبايل المتسلل مع أشعة الشمس عبر النوافذ الطويلة المفتوحة.. تحلق اطباء الجن حوله بالقلق الطبيعي الذي يسبق قيام أي عملية خطيرة وحساسة.

اقترب نوار منه واستأذن بأدب:

- جلالتك؟!

حرك جبار رأسه آذنا له بالكلام.

- سوف نحقن جسدك بمادة تفقدك الوعي لبعض الوقت

- لا داعي لذلك أستطيع تحمل الألم

فأجاب هامسًا وهو يقترب من الملك خطوة إضافية:

- غيابك عن الوعي سوف يساعدنا في أداء عملنا بشكل أفضل،

فلن يستطيع الأطباء العمل تحت وطأة نظراتك لهم..

فكر الملك قليلًا ثم قال متفهمًا:

- وهل سأغيب كثيرًا؟!

- إلى أن ننجح في استخراج الرمح من جسدك فقط.

قال واهبًا لهم الإذن في بدء عملهم: حسنًا، افعلوا.

وبعد أن حقنوه بالمادة المخدرة انتظروا قليلًا حتى اطمأنوا إلى

أنه فقد الوعي تمامًا وأنه لم يعد يشعر بالأشياء التي تدور حوله، بعد ذلك أغلقوا النوافذ وأسدلوا الستائر وأوصدوا الباب بالمزلاج ليتأكدوا أكثر من أن أحدًا لن يفاجئهم وهم في وسط عملهم ثم أشعلوا الكثير من الشموع في أرجاء القاعة لتوفير إضاءة جيدة، وعندما أصبح الجو مهيبًا للعمل فإن رئيس أطباء الجن همس قائلاً:

- افتحوا السرداب

ذهب نفر من الجن لنقطة مُحددة بعلامة سرية في أحد حيطان تلك القاعة وقاموا بالطرق عليها سبع مرات، بعد ذلك اهتز الحائط ثم انقسم القسمين ليخرج منه شخص ما يُخفي رأسه كاملاً بغطاء ولا يُظهر من ملامح وجهه شيء إلا عينيه الزرقاوين، قال وهو يتقدم نحو الملك الممدد فوق السرير والفاقد للوعي:

- كيف سارت الأمور؟!

رد عليه نؤار: كاد الحكيم أن يعطل خطتنا ويقنعه بالاستعانة بقبائل الأشاوس ...

- لا تهتم لذلك المعتوه - قال ذلك الشخص ثم أردف: اعملوا الآن على التخلص من جبار أولاً، فهو الشيء الوحيد الذي قد يفسد علينا خطتنا القادمة.

سأل رئيس أطباء الجن:

- نقتله؟!

أجاب ذلك الشخص:

- لا فحينها سيبدو الأمر كما لو أنه خطة مدبرة.

- ماذا نفعل إذا؟!

- دعوه يمت ببطء فنحن لسنا في عجلة من أمرنا - ثم أضاف
ساخرًا: كما أنني أتوق شوقًا لمعرفة من سيختار جبار لولاية عرش
أبائيل من بعده، وإذا قتلناه الآن فإنه سوف يفوتنا معرفة ذلك!!

قال رئيس أطباء الجن وهو يحني رأسه: أمرك سيدي.

استدار ذلك الشخص وسار عائدًا للمكان الذي جاء منه:

- ربما لم أعد أملك جيشًا أواجه به الأباطرة ولكن القتال ليس
الوسيلة الوحيدة للانتصار.

- متى تعطينا ما وعدتنا به يا سيدي؟!

- عندما أستعيد الفلك يا نوار .. عندما أستعيد الفلك!!

- وكيف سوف تستعيده وأنت لا تملك جيشًا؟!

- بالحب..

قال طاغين ذلك بابتسامة خبيثة ومن غير أن يُفسر كلامه ثم
دفع بجسده مغادرًا من السرداب السري والذي كان ضمن الأنفاق
والسراديب السرية التي لا يعلم أحد بوجودها.. والتي حفرتها له
الساحرات في القصر عندما كان ملكًا .. وقد غاب عن بال عائلة
الأباطرة الملكية لاحقًا أن تفتش عنها بسبب المصيبة التي يمر بها
كبيرهم جبار.

بعد وقت طويل أعلن الأطباء أنهم استطاعوا انتزاع الرمح ولكن
ولسوء الحظ انتشر السحر في جسد الملك بطريقة لم يتمكنوا فيها
من إيقافها، وقالوا بحزن شديد:

- الملك جبار لن يكون في مقدوره أن يعيش لأكثر من ثلاثة أيام.
لاحقًا عندما أفاق جبار ونقلوا إليه الخبر لم يجزع أو يحزن بل
كان متماسكًا وثابتًا كما لو أن ذلك الأمر لا يعنيه، كل ما فعله بتلك
اللحظة هو أن أصدر أمرًا باجتماع عاجل في يوم الغد لكبراء عائلة
الأباطرة، وطالب فيه بحضور عاصف وأصدقائه للاجتماع.

في صباح اليوم التالي كان كبراء عائلة الأباطرة بالإضافة للوزيرة
خيزران وعاصف وسرابي وإكيل والحكيم والشمالى، جميعهم
متحلقين بشكل دائري منتظم تاركين مسافة خمسة أمتار بينهم
وبين الملك جبار الممدد فوق السرير والذي كان يستعد للفظ أنفاسه
الأخيرة:

- ما يعزيني هو أنني سأموت وأنا مطمئن بأن مملكتي وشعبي
وعائلي بخير - ثم التفت نحو عاصف وأضاف معاتبًا: غير أنني كنت
سأكون أكثر اطمئنانا لو أنك قتلت طاغين.

اقترب عاصف حتى جلس عند رأسه:

- كان موته يعني خسارة أحد أصدقائي، ولكن اطمئن يا جدي لقد
جرد طاغين من جيشه، و ما عاد وجوده يشكل خطرًا علينا.

متجاهلاً ذلك الكلام همس جبار بلهجة مترددة تشي بقلقه:

- أنت لا تعرف طاغين - ثم أردف متمتقا: ليتك قتلتته.

لم يجادل الحفيد في الأمر أكثر وكل ما فعله هو أنه أمسك بيد جده الضخمة وكأنه كان يريد أن يتشبث به لكي لا يستطيع الموت أخذه للعالم الآخر..

نظر جبار في وجوه من حوله.. تأملهم لبعض الوقت قبل أن يثبت بصره أخيرًا على وجه الوزيرة خيزران ويقول:

- أعرف أن لديك ما تقولينه.

تمتمت متلعثمة:

- سنشتاق إليك كثيرًا يا سيدي.

- وأنا سأشتاق لكم أيضًا - قال جبار بشجن ثم أضاف:

- ولكن ليس هذا ما كنت تريدون قوله أيتها الوزيرة.

قالت بخجل:

- جرت العادة أن يُنصب الملك وليًا لعرشه حتى إذا - ثم صمتت

الوزيرة وكأن الكلام خانها في تلك اللحظة .. فأكمل جبار الحديث عنها قائلاً:

- حتى إذا مات تولى نائبه الفلك من بعده، أليس كذلك؟

هزت خيزران رأسها، فقال جبار:

- وهذا ما طلبت الاجتماع بكم لأجله...

ثم أعاد مرة أخرى النظر في وجوه كُبراء العائلة وكأنه في تلك اللحظة كان يختار منهم الأصلح لكي يصبح من بعده ملكًا، إنه يثق بأنه يستطيع انتقاء أي أحد من كُبراء عائلته لقيادة المرحلة القادمة وهو مطمئن على أن حبيبتة أباييل ستكون بخير، قال بنبرة جادة:

- لم يحدث أن عصاني أحد منكم من قبل، ولا أرغب بأن يعصيني أحدكم في رغبتني الأخيرة هذه.

لم يتكلم منهم أحد وكأنهم بصمتهم ذاك يعاهدونه على عدم عصيان رغبتة الأخيرة... ثم ومن دون مقدمات وبطريقة تشبه عادات القدر في إنزال الأحكام الغير متوقعة، نظر الملك جبار فجأة نحو حفيده عاصف وقال:

- أنت - ثم أردف بحزم: ستكون الملك!!

أصيب الجميع بالدهشة لسماعهم ذلك القرار؛ فعاصف هو آخر شخص كان من الممكن أن يتم اختياره ملكًا قادمًا لأباييل .. فبالإضافة لكونه مخلوقًا هجينًا وهذا يعني أنه ليس شخصًا ينتمي بشكل كامل لعائلة الأباطرة الملكية، فهو طائش ومندفع ومتهور للغاية، غير أن الملك جبار كان يرى فيه شيئًا آخر قال: أريدك أن تعتبر الشعب أصدقاءك يا عاصف أن تحميهم بكل قلبك من أي خطر قد يواجهونه في المستقبل، تمامًا مثل ما كنت طوال الوقت تحمي إكليل والحكيم في المعركة، مثل ما قذفت بنفسك للموت من أجلي مثل ما تنازلت عن قتل طاغين لكي تضمن سلامة صديقك الشمالي، مثل ما تحب سراي وتخاف عليها أريدك أن تحب أباييل وتحب شعبها.

- ولكن يا جدي أنا لا أصلح أن أكون الملك..

- الذي يعرف كيف يكون صديقًا جيدًا، سيكون ملكًا رائعًا..

لم يعلق عاصف فقال جبار:

- هذا آخر طلب يطلبه منك جدك العجوز أيها الولد.

صمت عاصف دليلاً على موافقته بينما أكمل جبار كما لو أنه يوصيه:

- أريد منك وعدًا بأن تحافظ على هذه الأرض وتؤمن للجميع الرخاء والسلام والازدهار..

وضع عاصف يده على قلبه كما فعل أمام فيروز حين وعد بحماية ابنتها:

- أعدك بأن أحافظ على هذه الأرض، وأن أؤمن للجميع الرخاء والسلام والازدهار. نظر الملك جبار لكبراء العائلة وقال:

- أريد أن أسمع منكم بأنكم قبلتموه ملكًا حتى أغادر وأنا مطمئن.

رغم الحيرة التي ما زالت في نفوسهم إلا أن كُبراء العائلة لم يعصوا الأمر الأخير لكبيرهم وأعطوا لعاصف «قسم ملوك أبايل» وهم راکعين: السمع والطاعة في الرخاء والشدة، في العدل والظلم، في السلم والحرب، في الوفاء والخيانة، في الحياة والموت!!

وبعد أن انتهت مراسم تنصيب الملك الجديد، فإن جبار طلب من حفيده أن يقترب كما لو أنه يريد إخباره بسر خطير:

- لو عاد بي الزمان للوراء يا عاصف لكنت في الحقيقة سأحمي ابنتي جومانا من الأخطار بكل قوتي - ثم أضاف بغصة: أتعلم؟!.. لا شيء أشد رعبًا من أن تتظاهر بالثبات بينما داخلك يتحطم قطعة قطعة لقد بكيث كثيرًا عندما وصلني خبر موتها، لكن بصفتي كبير العائلة فإنني احترمت القانون وتظاهرت بأن لا شيء يحدث!!

صمت قليلاً للحد الذي أعتقد معه عاصف بأن جده أنهى كلامه، ولكن جبار لم ينته وأكمل معترفًا:

- أقسمت بيني وبين نفسي أن أثار لها عندما أعرف الفاعل وتحين الفرصة، لذلك عندما قامت الأفعى تارا بإخباري في ساحة المعركة بالحقيقة أعطيتكما الإذن بقتل تاج.

- هل ما زلت تحب جومانا يا جدي؟!

فأجاب بصراحة تليق باللحظات الأخيرة لشخص مثله:

- عندما سألتني سابقًا أمام كبراء العائلة إذا ما كنت أحب جومانا أم لا، قلت لك: «لا» حتى لا أثير غضبهم بينما في الحقيقة كنت أقصد ألف ألف نعم!!

أصاب الذهول قلب عاصف عندما سمع تلك الإجابة التي تشبه تمامًا آخر شيء قالته جومانا له قبل أن تغمض عينيها وتموت، كان حينها طفلًا خائفًا .. ولفرط ما كان يرفض فكرة أن تذهب أمه وتتركه وحيدًا في هذا العالم المخيف، فإنه لم يستوعب خبر موتها وذهب ليجلب للحكيم كل النقود التي يملكونها في ذلك الوقت من أجل أن يشفيها من الموت، واليوم يصبح ذلك الطفل التائه المشرّد

المكسور ملكًا لأبائيل.

ولكن الأمر الأكثر خطورة من كل ذلك هو أن عاصف للتو فقط أدرك بأن كل الأحداث التي وقعت معه منذ ولادته وحتى اليوم كان يعرفها سلفًا .. فقد طالعها حرفًا حرفًا، كلمة كلمة، سطرًا سطرًا، وذلك عندما كان طفلًا يحدق بخشوع راهب في العينين البندقيتين لوالدته يقرأ فيهما البداية والنهاية!!

قال جبار وهو ينظر باتجاه سرابي:

- أنت أيضًا اقتربي..

اقتربت منه مثل ما طلب منها:

- ربما كنت محقة فيما قلته تلك المرة.. لقد أخطأنا بحق جوماننا كثيرًا عندما تخلينا عنها، فالحب شيء لا نملك سلطة منعه أو حدوثه - ثم قال مرددًا كلامها: إنه كالمرور ولا أحد يستطيع إيقاف المرور..

ابتسمت لسماعها ذلك الكلام بينما أكمل جبار لها قائلاً:

- لا أعلم إن كان ما سأفعله بعد قليل سيكون صحيحًا أم لا ولكنني واثق من أنه سيفضّب الكثير من كُبراء عائلة الأباطرة، غير أننا يجب علينا تصحيح أخطائنا عندما تتيح لنا الأقدار فرصة تصحيحها أليس كذلك يا سرابي؟!

أومأت برأسها وهي تضم يديها بخجل وحزن بينما أثارت تلك الكلمات التي قالها جبار الفضول في نفوس الجميع وباتوا يتساءلون فيما بينهم وبهمس خافت عن الشيء الذي سيفعله الملك.

قال جبار وهو ينظر لعاصف:

- ضع يدك في يدها.

اقترب عاصف من سراي وأمسك يدها.

حاول الملك جبار أن يستوي في جلسته فوق السرير كما لو أنه يعلن احترامه للشيء الذي هو بصدد القيام به، أخذ نفسًا عميقًا وصمت لبعض الوقت حتى يضيف للمشهد وقاره وهيئته.

هو لا يعرف الصيغة الصحيحة ولا الكلمات المنمقة والتي يجب أن تقال في مثل هذه المناسبات، لذلك فإنه قال بشكل مباشر جدًا ومختصر:

- أعلنكما منذ هذه اللحظة زوجًا وزوجة..

أغضب ذلك الأمر كبراء العائلة فقد كانوا يتوقعون أن يتزوج ملكهم القادم واحدة من فتياتهم للحفاظ على السلالة الملكية داخل عائلة الأباطرة .. ولكن ها هو جبار يكسر القانون بشكل لا يمكن إصلاحه ويعلن زواج حفيده «الملك القادم» من مخلوقة بشرية عادية.. كما لو أنه بذلك الفعل أراد أن يكفر عن خطأه السابق، الخطأ الذي ارتكبه عندما وافق أن يتخلى عن ابنته جومانا بسبب قرارها الزواج من بحر ثم وحين لمح الاعتراض باديًا في وجوهه كبراء الأباطرة فإنه قال:

«لا قوانين تقف أمام سطوة الحب»...

لقد فعل جبار أشياء كثيرة في حياته تدعو للفخر غير أن مباركته لزواج عاصف وسراي - المخلوقين المختلفين - واللذين يُحب كل

واحد منهما الآخر .. كان أكثر شيء سوف يفخر بأنه فعله قبل أن يغادر الحياة، نظر أخيرًا نحو حفيده باحترام شديد، وقال مستأذناً بجدية قبل أن يغمض عينيه للأبد:

- والآن اسمح لي بالانصراف يا مولاي الملك عاصف.



’وبعد عامين..’

لم تكن طفلة عادية أبدًا فهي لم تخرج من رحم والدتها باكية مثل بقية المواليد، بل خرجت صامتة ثقلب بصرها في الأشياء مدهوشة كما لو أنها تفاجأت بوجود كوكب آخر غير الكوكب المظلم الضيق الذي كانت تعيش فيه...

حملها عاصف بين يديه برفق ولم يكن بعد قد لاحظ فيها شيئًا يثير الدهشة أو الغرابة، ولكنه عندما ضمها إليه ليضع قلبه عليها اكتشف المفاجأة.. حيث كانت رائحة الياسمين هناك في انتظاره عالقة على جسد طفلته الملطخ بدماء الولادة، وعندما قُرب وجهها أكر من مجال أشعة الشمس كانت دهشته أعظم وأعظم عندما شاهد بريق عينيها البُنْدَقِيَّتِي اللون.

سألت سراي المُتعبة: ما بك يا عاصف؟!

- لا ، لا شيء، لا شيء..

هذا ما قاله شاردًا وهو يدقق النظر بعمق في تفاصيل وجه الطفلة كما لو أنه باحث آثار يتفحص بتمعن شديد وحرص حذرًا ثمينًا عثر عليه تتم بينه وبين نفسه و هو لا يزال يحدق فيها بعدم تصديق:

- لا يمكن أن تكون هذه مجرد مصادفة.

- هل ابنتنا بها شيء؟! - تساءلت سراي بخوف - لقد بدأت

تقلقني .

- لقد استجاب الرب دعائي - تتمم - لقد أعاد لي أُمِّي حية .

عندما استنشق رائحة ابنته العابقة برائحة الياسمين وشاهد لون بريق عينيها البندقيتي اللون، شعر بأنه يحمل أمه جومانا بين يديه وفهم أخيرًا درسه الأخير وهو أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه مثل ما كانت والدته تقول، ولكنه يُجيبها في التوقيت والكيفية التي يراها مناسبة بعلمه وحكمته:

- إنه الحقيقة الوحيدة وكل الأشياء زائفة...

لقد آمن للتو بأن الرب كان هناك منذ البداية، وبأنه الذي كان طوال مغامرته يحميه ويصد عنه الأخطار ويكتب له الحياة في كل لحظة موت وشيكة، من أجل أن يُخبره في النهاية عن أصدق قصة قصيرة عرفها التاريخ منذ بداية الخليقة:

«منذ وقت طويل.. طويل جدًا.. كانت السماء وما زالت وستظل دائمًا تُجيب»

ثم وبينما كانت الطفلة لا تزال ساكنة بين يدي والدها إذ وقعت عيناها على والدتها المستلقية فوق السرير الملكي، والغارقة في عرقها اللانهائي فانتفض جسدها الصغير اللزج مثل سمكة زينة صغيرة أخرجوها للتو من حوضها المائي.. زحفت سرابي إلى الخلف بصعوبة بالغة حتى أسندت ظهرها على رأس السرير..

ثم رفعت يديها المرتجفتين في الهواء وقالت:

- دعني أراها - وتساءلت هل هي بصحة جيدة يا عاصف؟!

قال وهو ينحني ليضعها برفق بين يديها: إنها بخير

عندما أصبحت بين يدي والدتها مدت أصابعها الصغيرة نحو خصلة نافرة من شعرها البني الناعم، وألقت عليه القبض بقوة لا تتوافر لدى طفلة في مثل عمرها .. ثم وبينما هي تُمسك بخصلة شعرها النافرة تلك إذ جعلت تتدبر بصمت وخشوع في عينيها السوداوين كما لو أنها في تلك اللحظة كانت تقرأ فيهما البداية والنهاية.

وعندما فرش الليل عباءته على سماء مملكة أبايل واختبأ القمر خلف سحب الليل الرمادية المتراكمة؛ قام الملك عاصف بإغلاق بوابة جناحه الملكي، أطفأ الشموع والقناديل المعلقة على الحائط ثم اقترب من زوجته وطفلته الصغيرة «جوماننا». تمدد بجوارهما فوق السرير وجعل يحكي لهما أحد القصص التي كانت والدته قديما ترويها له .. وحين انتهت الحكاية اقترب من ابنته بلطف وقال لها في أذنها الشيء الذي من خلاله ستعرف في السنين القادمة أن قصة ما قبل النوم انتهت وأن موعد النوم قد حان:

- تذكرني طوال عمرك يا بُنيتي أن الرب يُجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

ثم صمت قليلاً كما لو أنه يتخيلها تسأله قائلة:

«أي دعوة يا أبي؟!»

فأجاب هو وسرابي في اللحظة ذاتها ومن غير تخطيط مسبق:

- نعم أي دعوة.



خارطة الأرض القديمة



هذه الطبعة الخاصة من رواية أبابيل ليست مجرد كتاب عادي، بل رحلة بصرية ونصية استثنائية تجمع بين الكلمة والصورة .. سعيًا من خلالها إلى تقديم تجربة جديدة للقارئ تتحول فيها الكلمات إلى مشاهد تنبض بالحياة. سُميت طبعة النار بهذا الاسم اقتباسًا من اسم الملحمة - ملحمة الطين والنار - وهي لا تقتصر فقط على هذا الكتاب، بل هو مشروع يتضمن المزيد من الطباعات الفاخرة، ومقالات صحفية يُنشر فيها صوت القراء، قراء السلسلة وهم يحلون من خلالها مشاهد سابقة للرواية، ويتنبأون بما سيحدث في الأجزاء القادمة. وعطور سوف تُطرح لاحقًا بأسماء شخصيات الرواية. في هذه الطبعة الفاخرة تم رسم ما يزيد عن ثلاثين مشهد.. استعنا فيها برسامين عالميين ومحليين لتنفيذها. وتمت الطباعة على واحدة من أجود أنواع الورق لتخرج طبعة النار - هذه الطبعة العربية - بهذا المستوى العالي من الاحترافية التي ننافس بها الطباعات العالمية .

- أحمد آل حمدان